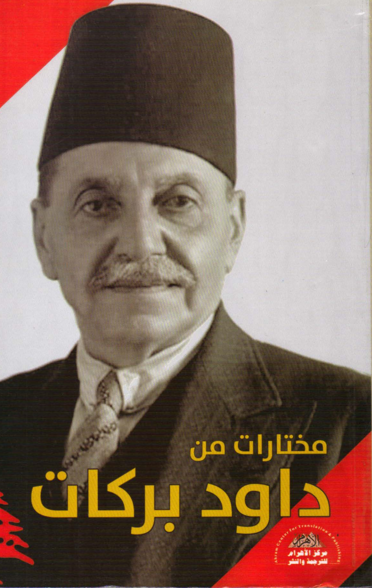


مختارات من
داود بركات

Ahram Center for Translation & Publishing
مركز الأهرام للترجمة والنشر

داود بركات
مقالات مختارة

مدير مركز الأهرام للترجمة والنشر
إبـراهيــم داود

مدير النشر
أحمـد جـابـر

نائب مدير النشر
محمد فكـرى
حـازم خـليـل

شئون إدارية
ماجدة حسن
خالد فرج

تحرير
محمود الشريف

المراجعة والتحرير
أحمد سليمان
رابية يوسف

تصميم الغلاف
سامح الكاشف

الجمع والتنضيد
شريف حسن

التصميم الداخلى
رجب شرابي

الطبعة الأولى
٢٠١٨

Ahram Center for Translation & Publishing
مركز الأهرام للترجمة والنشر

إصدار مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون: ٢٧٧٠٣٤٤٥ - ٢٧٧٠٥٠٦٣

رقم الإيداع ١٧٦٩١ / ٢٠١٨
I.S.B.N 978-977-320-295-8

مطابع الأهرام التجارية ACP
e-mail: acp@ahram.org.eg



داود بركات

٨ ديسمبر ١٨٦٨ - ٤ نوفمبر ١٩٣٣

المحتويات

قبل أن تقرأ

داود بركات هو رئيس تحرير الأهرام الذى قضى أطول فترة في ذلك المنصب من سنة ١٩٠١ إلى ١٩٣٣، وهو من زاد عدد صفحاته من أربع صفحات إلى ست عشرة صفحة، ثم هو بعدُ خامسُ خمسة سعوا بعد الحرب العالمية الأولى لإنشاء نقابة للصحفيين ممثلا عن الأهرام، وهو قبل وبعد هذا كله كاتب موسوعى الثقافة ملم بالتراث العربى مطلع على الحضارة والثقافات الأوروبية القديمة والحديثة والمعاصرة يسوق استشهادات تراثية جنبا إلى جنب مع صور من الحضارة الغربية المعاصرة فى كتاباته التى عالجت كثيرا من القضايا المصيرية والمسائل اليومية وسايرت الواقع المعيش فى الثلث الأول من القرن العشرين.

ولد داود بركات سنة ١٨٦٨ م فى قرية يحشوش بمحافظة جبل لبنان، وتبعد عن بيروت مسافة ٤٥ كيلومتر. يُقال عنه أنه لبنانى الجنسية، وحين كتب عن حرب البلقان (١٩١٢، ١٩١٣) على صدر صفحات الأهرام مطلع القرن العشرين قدم نفسه بأنه من رعايا الدولة العثمانية، وقبل ذلك وفى ردٍ له على قرائه فى مقالة بعنوان «العثمانيون فى مصر أنحن هيئة يعتد بها؟» فاخر بأنه عثمانى.

وحين كتب مقالات «فى لبنان وعاصمته» فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين تجده لبنانيا؛ وحين كتب عن «الجامعة المصرية ولماذا أنشئت» تقول أنه مصرى. لتتقافز الأسئلة فى عقلك؛ هل هو عثمانى، أم مصرى، أم لبنانى؟ وتهتدى فى النهاية إلى أنه عربى، وفخر لكل عربى أن ينسبه للعروبة وليس لجنسية بعينها، اقرؤوا إن شئتم مقالته فى هذا الكتاب بعنوان «من هم العرب». لقد عاصر داود بركات حقبة شهدت



فيها الأمة منعطفات كبرى؛ إذ قامت فيها حرب عالمية، وأُسقطت الخلافة العثمانية، وظهرت دول جديدة بحدود سياسية جديدة.

وبجانب مقالاته الصحفية التى تُعد كنزا ثقافيا وفكريا لا ينضب، فقد ترك لنا داود بركات كتابين اثنين من تأليفه: أحدهما عن إبراهيم باشا بعنوان «البطل الفاتح إبراهيم»، والثانى عن السودان بعنوان «السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية».

وقد انتخبنا من بين مقالات الراحل العظيم سبعا وثلاثين مقالة، من أجناس صحفية مختلفة، ما بين حوار، ومقالة رأي، وأدب رحلات، ومرثية، أو عرض كتاب، أو تحقيق صحفى، كما يجد القارئ أيضا رسالتين من رسائل القراء ورد الكاتب عليهما.

ولعل قارئ الكتاب سيتعجب وينظر مع كل مقالة يقرؤها إلى تاريخ نشرها؛ ليس لأن داود بركات يكتب بلغة سلسة ويمتلك ناصية الفصحى المعاصرة ويمزج المفردات التراثية مع قريناتها المعاصرة فحسب؛ بل لمهارته أيضا فى تشريح المشكلة وتشخيص الداء ووصف الدواء. فهو ينسج العام مع الخاص ويجعل الصحافة فى القلب من معايش الناس.

وربما يظن القارئ أن الكتاب ما هو إلا احتفاء بشخص داود بركات؛ إلا أن الكتاب الذى يجمع بعض مقالات داود بركات يمثل مرحلة مهمة فى رصد تاريخ الصحافة المصرية والقضايا التى تناولتها، وسجلا حيا للعربية المعاصرة ومن ثَمَّ فهى تفيد دارس الصحافة وعلوم اللغويات والاتصال. والكتاب يعد بامتياز تأريخا لحركة الصحافة فى العالم العربى وتاريخ الصحيفة الأقدم والأعرق فى مصر. وربما يستكشف المتابع الحصيف من خلال الخط التحريرى الذى انتهجه داود بركات كيف امتثلت الأهرام لقانون البقاء، فبقيت ... بينما تطايرت صحف وغربت شموس دول ...

فلا يزال صحفيو الأهرام بل قراء العربية جميعا يفاخرون بأن الأهرام أقدم نشأة من كثير من الدول ... الأهرام دولة ... وديوان من دواوين العربية الخالدة.

د. محمود حامد الشريف



كلمة فى الفلسفة مع الفلاح المصرى[1]

أيها الصديق العزيز

إذا كنت تحرث الأرض لتخرج لنا منها الأرزاق فإنّا ننقب فى تضاعيف العلوم لنلتقط لك منها غذاء النفوس. فكلانا خادم مخدوم، وكلانا رازق مرزوق، وأفضلنا أنفعنا لأخيه وقومه. وإذا كنت قد سمعتَ أصواتنا فى رى أرضك وخدمة زرعك، وتعهّد مائك، وتعزيز أمنك وراحتك. فهل يروقك منا أن تسمع آنا فآنا صوتنا فى عظتك وتعليمك؟ فأصغ الآن إلى يَراعَة ألفت منك الإصغاء. وتلقَّ حديثها معك فى الفلسفة. فلا يروعك قبل أن تقرأ أنه حديث فلسفة. فلا يكبر عليك ما هو مأخوذ منك، ولا يفوق ذهنك وإدراكك ما هو نتاج فكرك أو يدك.

فاليوم قد ظهرت فى العالم فلسفة جديدة باسم «براغماتيك» أو «براغما تيسيسم»– ولك الخيار فى حفظ هذا الاسم أو إهماله– كادت تقضى على فلسفة اليونان ومن خلفهم من العرب واللاتين والجرمان. نبتت فى «العالم»[2] الجديد، ونمت فى ربوع الأميركان، وارتوت من أفكار الإنكليز، وظهرت بمظهر المنذر المهدد لتلك الفلسفة العقلية القديمة التى كانت تستند على الألفاظ والعبارات، وتضل العقول والألباب دون الوصول إلى الحقيقة والجوهر، حتى كان يستحيل على صاحبها أن يعرف الرشد من الغَيِّ.

فالفلسفة الجديدة هى النظر إلى نتاج الأفكار لا إلى الأفكار دون النتائج، وقاعدتها العمل وعنوانها الفعل. فكل ما أدى إلى البحث عن الطرق الموصلة إلى النتائج الفعلية (...)[3].

١ ـ الأهرام، ٦ آزار/مارس ١٩٠٧م.
٢ ـ فى الأصل «العام»، والصواب ما ذكرناه.
٣ ـ سطر ساقط فى الأصل.

والفيلسوف هو من بحث فى كل أمر بحثا متواصلا إلى أن يصل إلى شيء يعتقد بصحته، فمتى اعتاد الإنسان أن يحكم على صحة الفكر أو على خطئه من نتيجة العمل الذى صدر عن ذلك الفكر، فقد صار فيلسوفا أميركيا وإنكليزيا.

فإذا جاءك أيها الفلاح العزيز رجل يقول لك: إن الإنكليز يخرجون من مصر بصياحك عليهم فَزِن ذلك فى فكرك واسأل نفسك عن نتيجة صياحك عليهم وعن نتيجة خروجهم عليك أو لك. وما هى فائدة ذلك الخروج وما هو الفرق بين بقائهم وخروجهم؟؟ فإذا ظهرت لك النتيجة فافعل ما يُرشِدك إليه المعتقد الصحيح لا الهوى والهوس وثورة النفس دون استبانة وجوه النفع.

وإذا قيل لك عاون على إنشاء الكتاتيب فقلب ذلك بالطلب فى ذهنك، وانظر إلى نتائجه لك أو عليك، فإن لم تجد منه نفعا لك فلا تُقدِم عليه ولا تهتم بعد ذلك بصوابية الطلب وبطلانه وبصحته أو كذبه. حتى أنه يجب عليك ألا تباحث فى أمر لا تجد لك من ورائه نفعا.

وعلى هذه القاعدة التى سماها الأميركان والإنكليز فلسفة يكون من الفلاسفة إنكليزى ركب حمارا- على قول الرواة والمحدثين- فسار على ذلك الحمار إلى غرضه، والحمار من ورائه يسبه ويلعنه متظاهرا بحث حماره على الركض بهذا السُّباب، فسمع شخص ذلك الحمار يسب، فأوقف الإنكليزى وقال له: ألا تسمع لما يقوله هذا الحمار؟ قال: وماذا يقول؟ قال: إنه يسبك ويلعنك! قال: وهل رأيت الحمار تأخر عن السير بى إلى غرضى؟ قال: كلا. قال: فما دام الحمار راكضا بى إلى ما أريد فلا يهمنى أن يلعن صاحبه أو يبارك!

ذلك مثل ينطبق على قواعدهم الفلسفية. وإنى لمورد على مسامعك



مثلا آخر ضربه فيلسوف منهم يسمى جيمس. قال: افترض أن العالم قريب الزوال، وإنا نحن الناس نعرف ذلك فلا يهمنا بعد هذه المعرفة أن يكون العالم نتيجة تجمد الذريات يتحرك على نظام لا يتغير أو هو نتيجةُ صنع مُبدع عاقل. ولكن إذا كانت حياتنا مستمرة على الأرض لا تنقطع وجب نعرفَ أحد التعليمين والأفضل فى نظرنا يكون التعليم الأكثر نفعا لنا فى حياتنا. فإذا عرفت ذلك قل لنفسك: هل من الموافق لنا فى الأرض أن يعاقب الأشرار بعد موتهم أو لا؟ تجد الجواب أن الأشرار إذا خافوا العقاب فى الآخرة أقلّوا من الشر فى الدنيا (...)[1] الذى يوافقنا هو أن يعتقدوا بالعقاب عن السيئة فنُوقَى سيئاتهم، وبالجزاء عن الحسنة فنغنم حسناتهم.

***

ولا شك أنك تتناءل[2] عن رأى هذه الفلسفة بالدين؛ لأن أصحاب الأديان يجرمون بعض أنواع الفلسفة، فأصحابها يقولون: إن العقل لا يقوى على إبانة ما وراء الحياة، وعلمنا لا يتطلب أن تبعد نظرك عما يحيط بك، والحقيقة عندنا هى أن تنظر فى نتائج تعليم الدهريين وتعليم الربانيين؛ فالمتدين رتَّب أعماله على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتسلح بالقوة التى لا تنتهى لمقاتلة كل يأس وقنوط ومصاب على عكس الدهرى، فهو إذن أفضل منه لك.

قال أحد فلاسفتهم: إن للاعتقاد تأثيرا عظيما على فعل الإنسان. فمن استطاع أن يعتقد فى مقدرته نال ما تمنى. مثال ذلك أن رجلين توقلا[3] جبلا عاليا، وفى نفس أحدهما أنه يتسلق الجبل ولا يقف أمام عقبة، وفى نفس الثانى أن عقبات الجبل لا تُجاز. فصاحب الاعتقاد بالتغلب على الصعاب هو الذى يفوز، وصاحب الاعتقاد بوقوف العقبة فى وجهه هو الذى يُحبط.

١ ـ كلمتان مطموستان فى الأصل.
٢ ـ أي: تستثقل ذلك، من نأل أى مشى ونهض برأسه يحركه إلى فوق، كمن يعدو وعليه حمل. الوسيط «نأل».
٣ ـ صعدا فيه. الوسيط «وقل».

فمعتقد الإنسان فى نفسه ذو تأثير عظيم على كل أعماله. فقس أيها الصديق على هذا سياسة المصريين فى بلادهم تَرَ أن من اعتقد منهم أن الإنكليز ناس مثلهم وعاملهم معاملة الند والنظير فاز ونجح معهم ونال حقه، ومن اعتقد أنهم فوقه علما وبطشا وطينة خُذِل وذل لهم.

ولو أنك حضرت التمثيل فى دار التمثيل العربى لقلت لك راقب حمدان تَرَ كيف أن تردده سبب له الحبوط، وراقب السيد تَرَ كيف أوصله اعتقاده إلى نيل أمنيته.

فمتى اعتقدت أنك فى الطريق القويم وسرت بلغت أمنيتك، ومتى ظللت مترددا وسرت كنت إلى الحبوط أقرب منك إلى النجاح، وخلاصة ذلك أن التصور يكون على نوعين: نوع ضعيف بتردد، ونوع ثابت بتأكد. ولا يمكن الحكم على فكر يخطر إلا بنتائجه كما أنه لا يصح الحكم على شجرة إلا بثمرها.

تلك هى الكلمة فى الفلسفة التى أحدثك بها لأنها سر النجاح فى كل عمل من الأعمال، وأنت تعرف أيها الفلاح الصديق أن هؤلاء العلماء الباحثين إنما هم يأخذون آراءهم وأقوالهم من مراقبة أعمالنا، فحكماء الإنكليز والأميركان أعطونا بما رويته لك وسردته على مسامعك خلاصة أخلاق أمتيهم العظيمتين أكبر أمم الأرض وأوسعها ملكا وأعظمها نجاحا، فهل لى ولك أن نتعلم شيئا منهم فندرُجَ بعضَ أدراجهم؟

داود بركات



العثمانيون فى مصر
أنحن هيئة يعتد بها؟[١]

حضرة الفاضل رئيس تحرير الأهرام:

قرأت بمزيد الاهتمام تقرير جناب اللورد كرومر، وتلوت فصوله فصلا فصلا. فأنا أترك الكلام فى الحزب الوطنى والوطنيين، ولا أتعرض لما جاء فيه عن امتيازات الأوروبيين ممن وجه إليهم الكلام فى ذلك، لأنّا لم نحسب شيئا فى هذه الأمور. ولكنى ألفت نظرى إلى حالنا، وما يهمنا نحن العثمانيين سكان القطر المصري.

فإذا نظرنا إلى العدد وجدنا أنا نحن العثمانيين من أتراك وسوريين وأروام وأرمن وإسرائيليين... إلخ إلخ أكثر عددا من أكبر عائلة من طوائف الأمم الأخرى. وإذا نظرنا إلى التجارة وجدنا أن دولتنا فى مقدمة الدول التى تعامل القطر المصرى بالبضائع والأموال، وأبناؤها يفدون على مصر أفواجا أفواجا وجماهير جماهير.

وإذا نظرنا إلى الثروة وجدنا أن ثروة العثمانيين فى القطر المصرى هى أكبر الثروات. فإذا أنا لم أذكر غير ثروة السوريين وجدت أنها تقدر بنحو ٥٠ مليون جنيه. وهذه بورصات مصر والإسكندرية ملأى بالأروام والإسرائيليين العثمانيين. وقد استحوذ الأرمن على الجزء الأكبر من تجارة مصر، ويمتلك التركُ الأراضى الواسعة والأطيان الكثيرة.

فمن هذا كله يظهر أن العثمانيين فى القطر المصرى يشغلون مركزا مهما سواء كان من حيث الثروة أو العدد أو التجارة أو الصناعة... إلخ إلخ.

ومع هذا كله نرى جناب اللورد كرومر لا يكاد يهمل ذكر الإسبانى الذى

١- الأهرام، ١٠ نيسان/أبريل ١٩٠٧م.

يدير أكاديمية البليار، والإيرانى الذى يبيع السجاد، وغيرهم من صغار الطوائف والأمم التى لا أهمية لها فى القطر المصرى، ولا يذكر كلمة عن العثمانيين فى هذه الديار وهم أصحاب المرافق والمصالح والمراكز والأعمال.

ولقد يجيب بعضهم بلا شك أنا نعتبر رعايا الحكومة المحلية، فأنا أقبل ذلك وأُسرُّ به بل تقَرُّ به عينى. ولكنى أطلب بعد ذلك أن أتمتع بالامتيازات التى تخوَّل لصاحب هذا اللقب وتجعله مصريا بحتا.

وإلا كيف يصح أن أُعتبر رعية دون أن أستطيع أن أكون مستخدما فى الحكومة، ودون أن يحق لى أن أَنتخب أو أُنتخب للجمعية العمومية ومجلس الشورى؟ مع أنى من جهة أخرى أتحمل كل أعباء الرعوية المصرية بحذافيرها على مرأى من الأوروبيين الذين ليس لهم فى هذه البلاد حقوقا ومنافع كإخوانى العثمانيين، ومع ذلك ينالون الحق بالتمتع بما فى البلاد من الأمور الممتازة.

فالأمر بين اثنين– وأظن أنى بما أتساءل عنه على اتفاق تام مع أبناء وطنى الكرام. فإما أن نعدَّ كالمصريين فنعامل معاملة المصريين، وإما أن نعدَّ كالأوروبيين ونتمتع بامتيازات الأوروبيين.

لأن حالتنا مبهمة كل الإبهام، ونحن نطلب أن نخرج من هذا الإبهام، وهو طلب عادل لا يجادلنا فى عدالته أحد.

فأنا إذا أوجه إلى جميع أخوالى العثمانيين السؤال الآتى: هل نحن هيئة لا يعتد بها؟ فإذ لم نكن كذلك، فلنطلب مركزنا تحت الشمس.

الأفوكاتو

جلال الدين عارف

جواب عثمانى– إنا بلا شك هيئة يعتد بها، بل إن كل طائفة منا على حدة هى هيئة كبرى وجزء عظيم من أجزاء هذه الأمم؛ فلو أنا أخذنا السوريين



على حدة لألفيناهم كأكبر نَزّالة أوروبية، ولو أنا أخذنا الأرمن لألفيناهم كذلك، وقس على مَن ذكرت مَن لم أذكر. ولكن كل طائفة بل كل فرد منا يشعر أنه عثمانى فى ولاية عثمانية ومصرى فى بلاد مصرية. وكأنّا نشعر أيضا أن مصر بامتيازها بإدارة حكمها وتفردها عن سائر الولايات قد امتازت بصفات أخرى، كحرماننا التمتع بما لأبنائها من الحقوق. ففى كل شيء نحن مصريون إلا بالاشتراك مع المصريين فى حكم بلادهم، وهذا الحاجز الذى أقامه رياض باشا فى وجه العثمانيين وأيدته محكمة الاستئناف الأهلية بحكم أصدرته بهذا الشأن- هو حاجز غير طبيعي، وأجرأُ فأقول أيضا: إنه حاجز غير قانونى، بل يحق لى أن أقول إنه أضر بمصر أيضا لأنه حرمها أُناسا هم لها وهى لهم. ولكن رياض باشا بقانونه ومحكمة الاستئناف بحكمها لم يراعيا إلا أمرا واحدا، وهو وضع عقبة فى وجه العثمانيين الذين يتقدمون للخدمة فى الحكومة المصرية. ولقد قيل إن الإنكليز هم الذين مهدوا لحكم محكمة الاستئناف بالجنسية المصرية التى باتت من أصعب جنسيات العالم لا ينالها إلا طويل العمر عظيم الصبر (وشرطها إقامة ١٥ سنة فى مصر وتقديم طلب قبل نيل الجنسية بسبع سنوات من الإقرار على منحها للطالب)، ولكنه لم يقم من تقاريرهم الرسمية دليل على ذلك، واللورد كرومر لم يقل حتى الساعة كلمة بهذا الشأن، وأنا ممن يوافق عزة الكاتب على ما قال، فلنطلب مكاننا تحت الشمس!!

داود بركات

ديوان حافظ[1]

لا أكتب هذه الكلمة لأمدح شاعرا إذا قال بيتا أنشدته مصر، وردَّدته سوريا، وتغنى به السودان، وطرب له كل عربى أينما كان إذا وقع من أذنه أو مرّ بخاطره. ولكنى أريد من كلمتى هذه أن أقف مع قراء العربية متسائلا عن سوق الآداب فى الأمصار العربية. فقد كسدت بضاعة الأدب فى لغة العرب، حتى بات حمل القلم أحقر فى نظر الناس من حمل الهراوة. وحتى رغب كل أديب عن هذه الحرفة كأنها أسقط الحِرَف. وقد زج نفسه فى عالم الكتابة والتحرير والتأليف والتحبير من أفسد على العرب لغتهم وذوقهم وذهب برونق كلامهم وبلاغة أقوالهم.

ففى كل مملكة ومصر تصدر التقاويم، وفيها ذكر المؤلفات المبتكرة فى الأدب والتاريخ والفنون والجغرافيا والشعر والقصص. وهذه الأمة العربية المنتشرة من سواحل الأطلنطيك إلى حدود إيران إذا أُحصى المبتكر فى لغتها كل سنة كان شيئا قليلا. وإذا سألت عن ذلك الكاتب المبتكر لقيته بين (...)[2] يُساوره وهمّ يكده. وإذا هو كتب لم يجد قارئا. وإذا وَقَف عمره على العلم لم يجد منه مرتزقا. وقد يقول الحكمة فيُزدرى بها إذا لم تبرز من فمه لذهن الناس مع بَدرَة من جيبه تُبهر عيونهم. وقد ينظم الكلام كأسماط اللؤلؤ فلا يلقى مَن يعرف قدره، حتى مات بيننا الأدب وقل الأدباء. وصار المُجيدُ منّا مَن نسخ عن كاتب مرت على أقواله العصور، ودرست معانيه وألفاظه مع الأيام والدهور. فهذا شاعر مصر- ولا أخطئُ إذا قلت شاعر العرب حافظ- سلوه كم طبع من ديوانه؟ وسلوه كيف كان رواج الديوان؟ وسلوه أىَّ مال جمعه من أدبه على عشق الناس لنظمه؟ بل قارنوا بينه وبين شعراء الإسبان، وأحقر

عُمرٌ

١ - الأهرام، ١ أيار/مايو ١٩٠٧م.
٢ - كلمة مطموسة فى الأصل.



كتاب اليونان، وأضعف أدباء البرازيل والأرجنتين– ولا أقول الفرنساويين والإنكليز والطليان والألمان– تجدوا أن البون شاسع والفرق عظيم. بل تعرفوا من ذلك: إن الأمة التى كان يُملأ فمُ الشاعر منها– إذا أجاد ببيت واحد– درا وجيبه لُجينا وعَسْجَدا[1]. باتت اليوم لا تهتز لأدب مهما راع، ولا تطرَبُ لنظم أو نثر مهما كان بليغا.

***

ذلك دليل الانحطاط بلا جدال وذلك عنوان تحول النفوس عن أن تتغذى بالآداب وتتحلى بالحكم لترقى إلى مكان من العلم والنبَّالة تبوأته كل أمة متمدنة وانحطت عنه أمة العرب التى فاخرت قبل اليوم كل أمة بآدابها وعزة نفوسها وكرامة مهدها. ولم يبق لنا نحن سلالتها المتأخرين إلا الفخار بتلك العظام الرميمة «وما الفخر فى العظم الرميم»[2].

بيننا الآن بير لوتى الكاتب الفرنساوي، وهو إذا كتب فصلا– ولو عن أمر تافه كوصفه منذ أيام القاهرة– تتخطف فصله الأيدى والعيون، ويردد عباراته المنسقةَ الكتاب والمحدثون. ويلتقى الصديقان فيتساءلان عما فى قوله من وصف جميل وتصوير بديع وإشارة واستعارة وتشبيه وتطريز وهو عائد غدا إلى بلاده. وقد يضع رواية يحيك أطرافها كالناسج البارع، فلا تخلو منها مكتبة أو بيت وتدر عليه الخير والثروة.

ولو أن كاتبا منا تصدى لأن يبدع إبداعه ويجيد إجادته فنجح فى عمله لأضاع وقته سدى وتعبه عبثا وماله بلا جدوى.

وهذا البستانى فى الإلياذة، وهذا اليازجى فى تنقية اللغة، وهذا شوقى فى شعره، وهذا حافظ فى نظمه، وهذا المويلحى فى نثره.

---

١ - ذهبا. مختار الصحاح، (عسجد).

٢- جزء من شطربيت لأبى محمد الحريرى، وهو بتمامه:

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما ... فخار الذى يبغى الفخار بنفسه

لو أنهم كانوا فى عالم غير عالمنا وفى أمة غير أُمتنا لما قل مجدهم عن مجد كردوتشى الذى جعل له الإفرنج أثرا حتى فى وسط بلادنا، ولما سار بير لوتى فى شوارع مصر أمام كُتّابنا يتيه عُجبا ودلالا وهم يسيرون كأفراد العامة لا يُجل لهم أحد مقاما! وقد يروق للمتخرِّصين[1] أن يقولوا أين هؤلاء من كتّاب الإفرنج وشعرائهم. ونحن نقول لهم لقد ضللتم ضلالا كبيرا؛ فإنّا نعرف لشعرائنا نظما يحسدهم فيكتور هوغو على بيت منه، ونعرف لهم نثرا يغبطهم أكبر كتاب الغرب عليه لو أنهم فهموه، ونعرف لهم وصفا يضعف قلم المصوِّر عن الإتيان بمثله. فلا يحق لجمهورنا أن يقول فى أدبائنا هذا القول، ولكنه يحق لرجال الأقلام والأدب عندنا أن يقولوا أين قراؤنا من قراء الإفرنج، وأين ناسنا من ناسهم؟

بل إنه يحق لنا جميعا أن نقول أين يومنا من أمسنا– ولم تكن المدارس موجودة والعلوم منتشرة، فكانت فى كل بيت مكتبة، وفى كل دار مقرأة. وكان المؤلف إذا نشر كتابا يروج رواج التِّبر ويقدَّم فى المجالس ويعظُمُ قدره بين الطوائف.

فهل ترانا نسير القَهقَرى والعالم إلى الأمام؟

وهل ترانا نجد غدا من الناشئة غراما بالأدب ينسينا هذه الفترة العاطلة والمدة التى نسينا فيها الأدب ونسينا العلم وتوارى الأدباء والعلماء حتى كأنه ليس بيننا عالِم؟

إلا أنا نتعلل بالأمل، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل![2]

داود بركات

---

١ - الخرص الكذب، مختار الصحاح، (خرص).

٢-عجز بيت من قصيدة شهيرة للطغرانى، وهو بتمامه:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!



حديث البحر
عن شئون البر[1]

سارت بنا الباخرة «سردينيا» الطليانية من الإسكندرية تؤم بيروت. باخرة ضخمة بلا عيب- فاخرة الرياش كبيرة الغرف، نظيفة الأرض والجدران، تحكى صالوناتها صالونات الدور الكبيرة، كثيرة المصابيح الكهربائية والمراوح والمقاعد والكراسي. وقومندانها رجل جمع إلى الشيخوخة نشاط الشباب ولطافة الظرفاء.. وظرافة الأدباء الألبّاء وتركت تلك الباخرة على البر أناسا قصدوا ركوبها فرارا من حر مصر إلى لطافة جو سوريا لضيقها عن وسع المسافرين، فما كان الماء يحول دوننا ودون البر حتى التفت كل واحد منا إلى رفيق السفر. كأنه أخو العمر ولصيق الحياة «وكل غريب للغريب نسيب» حتى إذا ما غابت منارة الإسكندرية عن العيون والأبصار، وتوارى عنا ثَغر مصر البَسّام وراء طى الكرة- تلفت قلبنا إلى مصر ومن فيها، ودار حديث الركاب على ظواهرها وخوافيها، على قطنها وزرعها، على ريها وعمرانها، على سياستها وإدارتها، على شعبها وحكومتها.

وإن قوما يتجردون عن مشاغل الحياة، ومآرب الأعمال والشئون لهم أصحُّ حكما منهم وهم مسوقون فى الحديث إلى غاية، ومقودون فى الحكم إلى مقصد.

وقبل أن أنقل إلى القراء خلاصة تلك الأحاديث؛ أحاديث البحر عن شئون البر أروى لهم كلام موظف عثمانى كبير خبير، قدم منذ بضعة أيام من اليمن وكان صلة التعارف بينى وبينه فى القطار صديقى الدكتور شرف الدين بك.. واليمن من مشاغل الدولة العليَّة التى تُقدَّم أمورُها عندنا على كل أمر.

١- الأهرام، ١١ آب/أغسطس ١٩٠٩م.

حديث اليمن

بعد تحية الإخاء سألت ذلك الموظف العاقل الكبير القادم من فضاء إبّ «الفضاء الرابع من أفضية اليمن، وهى: الحُدَيدَة، وعَسير، وإبّ، وصنعاء» عن شيخ الزيدية الإمام يحيى. وعن حال الشقة اليمانية بوجه عام، فأخذ يسرد لى الأحاديث دون أن يضطرنى إلى سؤاله:

قال: عرفتك صحافيا مصريا، وأعرف الأهرام مصرية- ومن قال مصرى فقد قال عثمانى- فأنا أود الآن أن أبسط لك الحديث عن كل ما أعرفه فى تلك البلاد التى صرفت فيها سبع سنوات، فكنت مديرا للمعارف ثم موظفا ملكيا، ثم عسكريا يقاتل، وأسرت مع من أسرهم رجال الإمام، وذقت مرارة الجوع والعرى، ولم أغادر صنعاء إلا منذ ١٧ يوما، فاسمع حديثى:

البلاد اليمانية بلاد خصب وخير، وجبالها قليلة الارتفاع، فهى آكام وروابٍ، لا جبال وعرة، ومياهها غزيرة حتى أن المطر يهطل صيفا، فقد أمطرتنا السماء أخيرا وأنا فى صنعاء. وهواؤها بارد جاف حتى أنى عند خروجى من صنعاء كنت متدثرا بأدفأ الأثواب. وقد رأيت اليمانيين يزرعون الأذرة ويحصدونها وبعد حصدها تنبت مرة أخرى وتطرح. فمن زرع واحد يتناول اليمانيون محصولين وهم أهل زرع وضرع.

أما ذكاء اليمنى فإنه يفوق كل ذكاء. وشهادتى أصدق شهادة لأنى من متخرجى الملكية فى الأستانة. وتوليت شئون المعارف فى جهات الأناضول وحلب ودمشق والحجاز واليمن، فاليمنى أوفر ذكاء وأحَدّ ذهنا من الجميع.. وقد دلنى درس أخلاقهم على أنه تتنزل إليهم من العصور القديمة المستغرقة فى الماضى، والغالب أخلاق وعوائد وتقاليد يحفظ مثلها التاريخ اليونانى فى الميثولوجية، إلا أنهم وَفّقوا بينها وبين الدين الإسلامى.



فهم في دورهم ومنازلهم وصحاريهم وقِفارهم ومساجدهم وأحاديثهم على تلك الأخلاق. وقد تفردوا دون الشعوب العثمانية والعناصر الشرقية بمذهب سار عليه شيوخهم وأطفالهم، رجالهم ونساؤهم، وذلك المذهب المنكر «أن الغاية تبرر الواسطة» فإذا جعل اليمني شيئا نُصبَ عينيه، وتطلب ذلك الشيء استباح في سبيله كل محرَّم، واستسهل كل صعب، واحتقر كل عظيم، وتخلّق كل خُلق، فهم من هذا الوجه أصعب مراسا من كل أمة، ويزيد في صعوبة مراسهم حدة ذكائهم. وفي اليمني شَمَم وكرامة، فهو يحس من نفسه دبيب الكرامة ولمعة الفهم وفرط الذكاء.

أما رأيهم فيما يصلح بلادهم، فهو العودة إلى ما كانوا عليه قبل التاريخ، فلا يروقهم نظام ولا تروقهم مدنية. ولا يحبون المدارس الحديثة، إلا الشافعية منهم؛ فإن أبناءهم ذاقوا لذة العلم في المدارس السبع الرشدية الأميرية وفي المدرسة الأميرية الإعدادية.. أما الزيدية فإنهم يأبون إدخال أبنائهم المدارس ويكتفون من تعليمهم بقليل من الفقه.

أما الإمام يحيى فإنه يطلب من الدولة أن تسلم إليه إدارة الجبال العالية، ولكن مجلس النواب قد رفض هذا الطلب الذي وافق عليه مجلس الوكلاء. وقد رأيت يوم سفري من الحُدَيدَة كتابا من أحد نواب اليمن طاهر أفندي يقول فيه: إن وكلاء الإمام يعودون قريبا إلى اليمن وهم فارغو اليد وأنا عائد في ١٧ تموز (٣٠ يوليو). والذي اضطر مجلس النواب إلى هذا الرفض هو أن الشوافع هددوا بالثورة وخلع نير الطاعة للحكومة إذا هي سلمت بمطالب الإمام. وقد أحسن مجلس النواب بالرفض؛ لأن خروج الشوافع علينا كان أمرا مضرا جدا.

أما ما قالوه عن تأهب الإمام واستعداده فهو كلام بكلام، فنحن لم يغلبنا الإمام ولكن الجوع قهرنا.

والعرب إذا قاتلوا لا يقاتلون إلا فى عقر دارهم والإمام يستهويهم بالغنائم، وعندنا الآن فى اليمن قوة كافية. ولهذا الإمام النازل الآن فى قافلة- وهى بلدة يهودية مشهورة بكثرة مقاهيها (جمع مقهوة وهى بلغة اليمانيين الخان تسقى فيه القهوة)- ندٌّ ومناظر هو الضحياتى الذى يزعم أن الزيدية لم يبايعوا الإمام يحيى؛ لأن شروط البيعة لم تتوفر فيه ولكنهم بايعوه هو لتوفر تلك الشروط. ولكن الإمام يحيى خدعهم خدعا واستهواهم استهواء، وقد اقتتل الإمامان مرارا. وهناك إمام آخر ظهر الآن فى صبيا وهو ذو حَول وطَول.

فاليمن إذن لا تؤلف قوة واحدة، بل إن أهاليها منقسمون فرقا، والأكثرية خاضعة للدولة كل الخضوع. والذى يحتاج إليه اليمانيون الجرائد الصادقة؛ فإنها تنفعهم كثيرا؛ فقد سألت وأنا فى اليمن أحد أصحابى بمصر عن جريدة تمدح الحكم الدستورى، فسمى لى بعضها وفى مقدمتها الأهرام واللواء فأشركت بهما بعض عقلاء إبّ.

ثم أخذت أرقب تأثير الصحافة، فظهر لى أن ذلك التأثير كان عظيما، فعقدت النية على أن أسأل حكومة الأستانة السعى بإنشاء جريدة حرة عاقلة.

- قلت: وما حكاية قبائل الزرانيق ومقاتلتها الجنود؟

قال: إن الزرانيق قوم ألفوا سرقة المراكب وتهريب المحظور دخوله. فأرسلت الحكومة ١٠ توابير لتأديبهم، فجاءوا جميعا طائعين خاضعين.

فاليمن سهلة الإدارة كثيرة الخير والخصب ولكنّا كنّا فيها قبل اليوم ظالمين مظلومين، بل إنا لم نكن قبل الدستور حكاما فى اليمن بل منفيين بلا مأكل ولا مشرب ولا زاد ولا عده، وكان الشعب اليمنى كالبقرة الحلوب يَصُر ضرعها كل إنسان حتى هلك فيها الزرع والضرع.



الزرع وغورست والوزارة

بين موجتين تلطمان خاصرتى السفينة وتسحب تلك السفينة بنا تشق البساط السندسى من الماء، وتسعى سعيها مزدرية بالهواء- ولم يهب- وبالماء- ولم يثر ولم يقر- وبين منادمة وسمر، وحديث الشمس والقمر، يسمع الصحافى نبرات آراء الجمهور فإن التقطها نتفا، وضمها جملا ونقلها مهذبة، نقل إلى قرائه أنزه آراء قومه عن التصنّع والتفعل، ومثل لهم غورست فى نظر الشعب، والزرع فى رأى الأمة الصميم، والوزراء فى نظر الخاصة والعامة.

وحديث الزرع اليوم مقدم على كل حديث، ومن حدثك عن زرع مصر فى هذا الأوان كانت فاتحة حديثه عن الدودة ومضارها. فقد روى لنا مزارع كبير خطير أن الدودة ظهرت فى مزارعه فى الدقهلية، فأسرع لتفقد زرعه وإتلافها. فدهش إذ رأى ساعة وصوله إلى الغيط شيخا يؤذن فى وسط القطن، فسأل عن السبب، فقيل له إن الناظر كلف الشيخ بالأذان ليطرد بأذانه الدودة. ولم يكلف رجال العزبة وصبيانها بتنقية الدودة، فذكر الجميع عند ذلك كلام دولة الأمير الجليل البرنس حسين كامل باشا أبى الفلاح؛ إذ قال لى فى حديثه المشهور عن دودة القطن: إن بعض مشايخ الطرق يثبطون همم الفلاحين، ويزعمون أن الدودة مسلّطة من الله على القطن، فإبادتها مخالفة لما قدَّر الله ومعارضة لأحكامه.

وذكرَ آخرَ دواء اكتشفه زيد وطريقة ابتدعها عمر. ثم أجمع الجميع على أن التنقية هى الوسيلة الوحيدة لإبادة هذه الآفة، وعلى أن أشد ما يضر بالأمة اعتقادها بخرافات الذين يلبسون لباس العلماء والواحد منهم أجهل من الضب.

من آلة الحكم ما عند الأمير سوى تحريك لحيته فى حال إيماء

فذكرت لهم النقابات الزراعية؛ فقالوا: لا خلاص للبلاد بغيرها، وإذا ما توفق «أبو الفلاح» الأمير حسين بتأليفها فى مصر انتقل نظامها إلى سوريا، فلما قالوا هذا القول تذكرت حديثا للأستاذ عمر بك لطفى معى وأنا فى الإسكندرية، فقد قال: إنه قد عقد النية على زيارة سوريا فى العام المقبل لإلقاء محاضرات فى تأليف هذه النقابات فى الأقطار السورية.

وعرفت أن بعض نجباء الأمة سيُرسَلون إلى أوروبا لدرس إدارة النقابات وصناديق التوفير وصناديق الزراعة. وعلى هذا تكون الأمة مندفعة كل الاندفاع فى هذا التيار. وقد سأل سائل، وما رأى وزارة مصر بهذه المشاريع؟ وهل يظهر الإنكليز الرضا عنها؟ وإذا هم لم يظهروا الرضا، هل تُقدِم الوزارة من تلقاء نفسها على العمل؟ وكان اتفاق الجميع على أن بطرس باشا كان طامحا فى الرئاسة وقد نالها الآن، فلم يبق له من مطمع بغير البقاء، فهل هو يضحى فى سبيل البقاء بالعمل[1] لخلاص البلاد من الفاقة والفقر. أما السير الدن غورست فقد حدثنى عنه رجل عارف، قال:

يحس السير غورست بأنه لم يفعل فى مصر شيئا حتى الآن، وهو يريد أن يفعل، فلا نظنه يعارض فى إنشاء النقابات الزراعية أو يتهاون فى المساعدة.

أما مركزه فليس ثابتا؛ لأن جميع إنكليز مصر ناقمون عليه لأنهم يدّعون أنه أخذ من سيادتهم وأعطى ما أخذ للوطنيين، وقد تلقى أوامر عديدة تقضى عليه بالسير على المنهاج الكرومرى، فرد على حكومته بأن ذلك لا يوافق. وأوقف إنفاذ تلك الأوامر. فليس غريبا أن تثور عليه صحف لندن أو مجلاتها، إنما الغريب ألا تفعل ذلك. أما مصر فإنها تنتظر منه أن يفعل خيرا. وأكبر خير يفعله هو أن يعاون على إنشاء النقابات، وأن ينفذ وعده

١- فى الأصل (العمل)، والصواب ما ذكرناه.



بتوسيع الجمعية العمومية والشورى؛ لأنه لا يعقل منح مجلس المديرية سلطة فعلية يحرم منها الشورى والجمعية العمومية وكلاهما أعلى منه وأرفع.

الوطنية والمهاجرون

يعز على كاتب أن يركب باخرة من سوريا أو باخرة إليها دون أن يرى مئات المهاجرين السوريين الذاهبين إلى أمريكا والعائدين منها مكدسين على ظهور البواخر. فقد رأينا قبل خروجنا من ميناء الإسكندرية الباخرة الطليانية المسافرة إلى جنوى وعليها ٤٥٠ مهاجرا. وكان معنا فى الباخرة المسافرة إلى سوريا ١٨٥ عائدين إلى بلادهم.

وأخبرنى قومندان الباخرة بأن أجرة السفر إلى البرازيل والأرجنتين ١٨٥ فرنكا، ولكن جيب المهاجر يُستحلَب فلا يقل ما يدفعه عن ٣٥٠ فرنكا.

وقد اعتاد الذين يمتصون جيب المهاجر أن يسافروا إلى جنوى ويعودوا منها ليتمكنوا من استحلاب تلك الجيوب.

وحدث أن ١٢ منهم وصلوا إلى الإسكندرية ليعودوا منها مع المهاجرين فلم يقبلهم القومندان على ظهر الباخرة.

وأخبرنى بأن البواخر الطليانية الست التى تشتغل مع الأساكل العثمانية قدمت تقارير إلى قناصل إيطاليا بهذا الشأن، فبذل القناصل ما باستطاعتهم لإراحة المهاجرين. وأخبرنى أن وكالة بيروت لا ترى وجوه المهاجرين بل السماسرة.

وإنى لأقتصر عن الكلام على المهاجرة لطول هذا الفصل، وأذكر حادثة جرت أمامى: وهى أن شابا من الركاب غضب على مستخدم فى الباخرة، فأخذ يؤنبه ويقول له: أنتم الأجانب تحتقروننا مع أنكم بحاجة إلى مالنا لتعيشوا! فضحكت لهذا القول، ولم أدر أنحن أشد حاجة إليهم أم هم إلينا!

وأية باخرة كنا نركب لولا البواخر الأوروبية، فأنا أرى من عبث الرأى التشبث بهذا المذهب والعدول عنه للاشتغال بما يوصلنا للاستغناء بمالنا عن مال غيرنا، وإلا فلا نفع من التخرّص والدعوى، وهذه الباخرة «سردينيا» التى نركبها هى لشركة روباتينو وعدد بواخر هذه الشركة ١٠٦، تسيِّر منها ٦ على خط سوريا وتدفع الحكومة أمانة للشركة ١٠ ملايين فرنك، فمتى صرنا مثلهم صارت حكومتنا كحكومتهم وشركاتنا كشركاتهم.

بيروت- داود بركات



الجرائد الإفرنجية لا تنصف الشورى[1]

غدا يعود الشورى إلى استئناف أعماله وليس فى برنامج الأعمال شيء جديد سوى قراءة محضر الجلسة الماضية. والذى لاحظناه بعد الجلسات السابقة أن (أكثر الصحف)[2] الإفرنجية لا ينصف مجلسنا ولا يعامله بما يستحق من الإكرام. كأن حضرات الكُتّاب الذين يكاتبون الصحف الإفرنجية يدخلون قاعة الشورى وقد وضعوا فى رؤوسهم أن يخطئوا تلك الهيئة وأن يكونوا عليها لا لها. وأن يقرعوها بكل أنواع التحقير والتخطئة، فلماذا هذا الكره؟!

نطالع أقوال بعض رصفائنا فيما سمعناه ورأيناه فلا نكاد نرى إلا ما يُمدَح. فنعجب لتحويلهم كل شيء إلى مذموم، وإذا كان هناك شيء يذم كنا أسبق إلى إعلانه من أولئك الرصفاء، فنكتب نحن محاضر الجلسات ويكتبونها هم، فنقابل بين قولنا وقولهم فنجد فرقا عظيما وبونا شاسعا. وبعضهم يتناول أخبار المجلس عن الصحف العربية فيترك الحسن ويتناول ضده، فما هو السبب؟!

وبعضهم نراه على مقصده يرتب حركات الأعضاء، فإذا سمع عضوا يندد بمشروع ضجر وتململ وإذا سمع عضوا يوافق ولا على كل شيء سر وانشرح، فلماذا هذا التحيز والميل؟!

لقد كنا نعرف بالصحافيين الإفرنج أناسا يحبون مصر والمصريين حبا جما، ويدافعون عن مصر وطنهم الثانى دفاعا حسنا جميلا، بل إنا لا نخطئ إذا قلنا إنهم كانوا يقودون الوطنيين فى طريق الدفاع عن حقوقهم، فأين هؤلاء الكتاب الآن؟

١ - الأهرام، ٢٦ تشرين ثان/نوفمبر ١٩٠٩م.
٢ - فى الأصل: (الصحف أكثر)، والصواب ما ذكرناه.

بل أين الكتاب الأوروبيون الأحرار الذين نتلقى عليهم علم الحرية واحترام الآراء وإنصاف المظلوم من الظالم، وقول الحق ولو كان على أنفسهم.

إلا أنّا لا نشك بأنهم لا يزالون موجودين، لا يزالون على مبادئهم ولكنهم يُخدعون ويُغرر بهم الآن بالباطل الذى ينقل إليهم، فنحن ندعوهم إلى حضور جلسات الشورى وإلى سماع مناقشاته، بل نحن ندعوهم إلى مراجعة محاضر الجلسة الصحيحة ليكون لهم إلمام صحيح بما يجرى فى تلك القاعة. بل إذا هم شاءوا معرفة ما يقوم به المجلس من الخدمات فليراجعوا نصوص القوانين التى عدلها المجلس وبدل منها وغير، ثم يحكمون بعد ذلك على قدرته ومعارفه وصلاحية مناقشاته.

إنا لا نرضى لرصفائنا إلا إنصاف الشعب المصرى وإنصاف مندوبيه فى مجلس الشورى، وإذا قالوا لنا إن الأقلية صالحة والأكثرية غير صالحة، فقد نسلم معهم بذلك؛ لأن هيئة المجلس لا تمثل الأمة حق التمثيل، ولأن ٣٠ عضوا تُعيِّن نصفهم الحكومة لا يصلح عددهم أن يكون دليلا على مقدرة الأمة كلها، فلماذا لا يساعدون المجلس على تعديل نظامه ويهزأون به إذا طلب ذلك؟!

ومع ذلك، فإن هذه الهيئة الصغيرة تُظهر فى كل المواطن والأعمال والمشاريع والنقد والمناقشة مقدرة جليلة لا نظن أن المنصفين يزدرون بها كما نرى ونطالع فى رصيفاتنا الإفرنجيات فى هذا الأوان.

ولا نكتم رصيفاتنا أنا نرى عليها مسحة التعصب الأعمى للحكومة بل للاحتلال! فكل نقد لمشاريع الاحتلال مر طعمه فى ذوقها، فهى تلوم المجلس عليه! وكل تساهل مع الحكومة حلو مذاقه عندها فهى تمدح المجلس من أجله.

فهل هذا هو الإنصاف عندها؟ أما نحن فإنّا لا نوجه كلمة العتاب إلى



المأجورين لذم المصريين. بل إلى الأحرار المستقلين الذين تعتمد مصر على حريتهم وإنصافهم كما تعتمد على نفسها أو أكثر؛ لأنها تعدهم منها ولها، وأكبر عضد لنيل استقلالها أو بالأحرى لإصلاح شئونها.

داود بركات

علموا المصريين الاقتصاد[1]

أين النقابات الزراعية؟

سلوا الحكومة

يرى صديقى «مرسل» فى الجورنال دى كير أنى قد أكون فى نثرى شاعرا يعود به قلمه وتخيله إلى عصر «هومير» وما بعده، لأنى نقلت رواية عن مهندس بأن أميركيا عثر على عدة من منابع البترول فى جبل الزيت. ومرسل لا يعتقد بتلك المنابع ولا يريد أن يعتقد ببترولها حتى يضىء أمام عينيه. وأنا لا أكلف نفسى أن أضع مصباحا من ذلك البترول أمام عينيه؛ لأنه إذا همنى أن تنهمر فى مصر المعادن الغنية علَى المصريين يربحون منها إما بالعمل وإما بتدنى الأسعار فإنه لا يهمنى أن تربح شركة وتخسر أخرى.

فتهمة الشاعرية وتهمة الشعر الهوميرى تبعده عنى بعدَ يقينِ «مرسل» بزيت المهندس الأميريكى.

على أن قلم صديقى الكاتب قد مس اليوم موضوعا جليلا أريد أن أتناوله منه وأعاونه فيه، وهو موضوع تعليم الاقتصاد لأهل هذه البلاد. فإن الفلاح المصرى لا يجمع «النقود البيض للأيام السود»، ولا يخزن من سنى البقرات السبع السِّمان لسنى البقرات السبع العِجاف.

وتلك حقيقة لا تقبل الجدل ولا يختلف اثنان، بل «لا ينتطح فيها عنزان» فهو- أى الفلاح- لا يطلب إلا الوصول إلى المال، فإذا وصل المال إلى يده لا يهتم إلا بتبذيره وتبديده، فإما أن يتزوج ولو كان متزوجا والبنون يملأون داره، وإما أنه يقصد الحج ولو كانت فريضة الحج ساقطة عنه لأنه لا يستطيع إليه سبيلا، وإما أنه يقصد الموالد ويقيم الأفراح والحفلات لينفق المال الذى يكون قد رَهَن عليه أرضه ومحصوله! غير ذاكر أن ذلك

١- الأهرام، ٢٨ تشرين أول/أكتوبر ١٩٠٩م.



الرهن قد يحل قريبا، وأن المحصول لا يكفى لدفع الدين، وأن صاحب المال لا يلبث أن يأخذ أرضه وملكه ويتركه عاريا حافيا جائعا عطشانا.

تلك مسألة أوافق عليها زميلي ويوافقنى، وكلانا يعرف دواءها الوحيد، وهو إنشاء النقابات الزراعية وصناديق التوفير الزراعى. فقد قال: «إن الاقتصاديين المصريين يفكرون منذ زمن بعيد بأن يعلموا الفلاح المبذر المسرف الاقتصاد وتوفير الأموال. وتلك المهمة التى يلقونها على أكتافهم لهى مهمة شريفة جليلة يقل كل تنشيط فى جنبها. فلا يسعنى أن أخالف فى مدحها الرأى العام الطالب إنشاء النقابات الزراعية وصناديق الاقتصاد العقارى، فإن هذين المشروعين قد دل اختبارهما فى العالم كله على النفع والفائدة الجليلة، فلا شك ولا ارتياب بأنهما يثمران ثمارهما فى وادى النيل.

على أن أصحاب المشروعين يداوون المرض الذى تتطلب مداواته الإسراع بالدواء ومداركة المريض العليل الحاضر، فما أجمل وما أجل مشروعهم! بل ما أشد العقبة التى تقوم فى وجههم لأنهم سيكافحون إهمالا مزمنا وتوانيا متأصلا، ولكن ذلك يجعل فضلهم أكبر وأجل، ودعوتهم بل رسالتهم أشرف وأنبل.

ذلك كلام وصفى يمتدح به المشروع كأنه قد أنجز أو كاد. لأنى رأيته ينتقل منه إلى نصح أصحاب المشروع بزرع بذر آخر يحيا به مشروعهم ويقوى إلى الأبد، وهو أن يعلموا تلامذة المدارس الاقتصاد بصناديق ينشئونها لهم كما فعل المسيو «كانه» فى فرنسا. وجوابى على قوله– جوابا لا يدحضه– بل يعززه أن الحكومة التى انتظرنا منها أن تنجز مشروع النقابات الزراعية لا يبدو على وجهها ولا على أقلامها ولا على دواوينها الرغبة الشديدة حتى الآن فى إنجاز مشروع النقابات.

فهى تناولت ذلك المشروع منذ ستة أشهر ونيف، ونقلته من يد إلى يد ومن ديوان إلى ديوان حتى بتنا لا ندرى فى قِمَطْر[1] مَن هو مخزون الآن لنسأله عنه؟!! إلا أن الحكومة التى ترى الفلاح فى أشد الضيق والفاقة والحاجة. وترى البنوك تبيع أطيانه بالألوف والملايين لا تتعب نفسها ولا تُجهد فكرها فى مشروع يخلصه وينجيه!

ولو كان بالإمكان أن تقوم الأمة به دون الحكومة لقلنا للأمة تجاوزى عن مساعدة الحكومة، ولكن ذلك ليس بالإمكان. وإذا قلنا إن فلانا من الحكام المسؤولين لا يريد بالبلاد خيرا لأنه أهمل مثل هذا المشروع، قام دعاته وأحزابه علينا ورمونا بالتحامل والتجريح. وهكذا يغمضون جفونهم على أهم شؤون البلاد وينصرفون إلى ما لا يهم بل إلى ما لا ينفع. وحكومة مصر كما هو معلوم لا تشتغل إلا بضعة أشهر من نوفمبر إلى فبراير. فإذا ذكرناها اليوم بذلك المشروع فلعلمنا أنه مشروع حيوى لا بد منه للبلاد بعد الأزمات التى توالت وبعد أن غرق الفلاح بالديون.

فالواجب إذن أن نطلب الآن علاج الداء القاتل وبعد ذلك نبذر ذلك البذار الذى يشور به وصيفى الباحث. وهو تعليم الناشئة والاقتصاد والتعاضد على طريقة «كانه» الذى توفى منذ شهر وتباركه الآن فرنسا بطولها وعرضها. لأنه ابتدع صناديق التعاضد فى المدارس منذ سنة ٨١ فبلغ عدد أعضاء هذه الصناديق حتى الآن ٩٠٠ ألف عضو. وطريقتهم أن يأتى الطالب كل يوم إثنين بعشرة سنتيمات للمعلم الذى يشطرها شطرين: أحدهما يحفظ للشخص بفائدة ٣ ونصف بالمئة والثانى يصرف لإعانة التلامذة المرضى بإعطاء المريض نصف فرنك فى اليوم فى الشهرين الأولين. وعلى هذا النحو لا يبلغ الطفل ٦٥ سنة حتى يكون عنده دخل فى السنة لا يقل عن ١٣٥ فرنكا.

١- هو ما تصان فيه الكتب، ويقصد هنا الأرفف أو الأدراج. الوسيط (قمطر).



فكل هذا حسن نتمناه ونود إنفاذه، ولكن قبل أن نعلم الغريق السباحة يجب علينا أن ننشله من اللجَّة، فليعطونا النقابات.

داود بركات

فى مجلس الشورى
فى المجلس ومن أجله[1]

نشرنا المناقشة التى دارت أمس فى مجلس الشورى فى «صدى الأهرام»، فليراجعها كل قارئ، فإن مذكرة سعادتلو يحيى باشا وأقواله مما يستحق الحفظ إلى أن تجيب الحكومة على تلك الأقوال أو تُظهر ميزانيتها فيظهر لنا كيف أنفقت الأموال، وهناك ملحوظات أخرى أبداها حضرات الأعضاء ذات أهمية جليلة. وهى لا تعدّ سوى مقدمة لما ننتظره فى المستقبل؛ لأن المالية عماد الأعمال، وكل عمل فى البلاد يصدر عنها ويعود إليها.

والذى نقف عنده اليوم هو جواب سعادة ناظر المالية. ولو أن سعادته اكتفى بقوله. «أنّا سننظر فى هذه الملحوظات» ولم يزد كلمة واحدة على ذلك لعددنا له الجواب فوزا كبيرا. ولكنه أراد الخطابة وخلب الألباب. فلم يجد أمامه سوى نفحة من نفحات أبواق الاحتلال التى سمعناها مرارا فقال- سامحه الله- الميزانية مضبوطة، والأموال التى تنفق تدرج فى الميزانية وفى الحساب الختامى. فهل قال أحد إن الميزانية مختلة وإن الأموال التى تنفق (لا تدرج فى)[2] الميزانية؟

ولكى يُظهر لنا حسنات الإدارة المالية أعادنا إلى سنة ٩٣، فقال: إنه لم يكن للحكومة ميزانية كميزانية اليوم. ومن ذا الذى سأله عن هذا التاريخ، وما هو دخل ذلك التاريخ بسؤاله عما فعلوا بستة وعشرين مليون جنيه، وهو الاحتياطى فى ٤ سنوات.

أيكلمون سعادته فى الشرق ويجاوب فى الغرب؟ وهل لا يستطيع المنادون بحسنة الحكومة وحسن إدارتها أن يبينوا تلك الحسنة بغير مقابلتها

١- الأهرام، ٣٠ تشرين ثان/نوفمبر ١٩٠٩م.
٢- فى الأصل (فى لا تدرج)، والصواب ما ذكرناه.



بالماضى البعيد؟!

ولماذا لم يعد سعادته كالمقطم إلى عصر المماليك. وهل ذكر مع إنفاق ٧٠ مليون جنيه من ٦٢ إلى ٧٠ (...)[1] عمال كوَّنت مصر وصيرتها ذات إيراد لم يكن سوى مليون ونصف فصار ١٦ مليونا؟!

وأية مملكة فى دور تكوينها لا تكون على مثل تلك الحالة؟ بل ما دخل هذا الكلام فى سؤاله عن إدارة ٤ سنوات؟!

حقا، إن حشمت باشا أراد أن يقول شيئا، فلم يقل شيئا أو أنه قال شيئا لا قيمة له، وإذا كان هو يَعد كلامه من فضة فإن سكوته كان يُعد عندنا من الذهب.

شكرا للأهرام

قد اعترضت جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٦ الجارى على ما تنشره بعض الجرائد الإفرنجية عن مجلس الشورى محرّفا عن حقيقته، وذلك مسبب عن مكاتبيها الذين يحضرون جلساته، بل ذلك علاوة على ما تأتيه الجرائد الاحتلالية من التحريف والتزييف والتهكم على أعضاء المجلس المشار إليه.

فإن كان دفاع الأهرام عن المجلس يستحق عليه الثناء والشكر من كل مصرى فنحن نود أن يتم جميله بنشر اعتراضه السالف الذكر بجريدة « البيراميد » حتى يَطلع عليه الرأى العام بأوروبا فلا يؤثر عليه افتراء المفترين!

إن أكبر ما يقترفه الإنسان من النقائص أن يسعى بجاهه وماله ليقلب بعض الحقائق حتى ينال ما يريده، ويَتم له ما يقصده من الغايات الفاسدة، ولا يهمه لو قيل عنه إنه كاذب أو محتال على سلب ما فى يد غيره، فبئس الصنع.

١ - بياض فى الأصل.

وحيث إن مجلس الشورى ما أباح انعقاد جلساته علانية إلا لتقرير الحقائق تماما، ولم يخطر بباله أن تعمل يد السياسة على قلبها، فيحقّ له الآن أن يلغى هذه الإباحة أو أن كل قرار يصدر منه يترجمه حالا إلى اللغة الفرنساوية والإنجليزية ويعطيهما للجرائد لتنشرهما، وفى ذلك ما يمنع كل تلاعب وتحريف.

حسن موسى العقاد

(الأهرام) إن ما طلبه سعادة الكاتب قد حصل، وقد تَرجمت جميع الصحف الإفرنجية التى وجهنا إليها الخطاب هذه المقالة: ولنا الأمل أن تكون نافعة لنا ولهم.

ومن البلية ما يضحك.

وجهتُ كلمة إلى الصحافة الإفرنجية التى نعدها منبع الحرية وأستاذ العدالة فى القول لأنبهها إلى خطأ يرتكبه بعض كتاب تلك الصحف فى كلامهم عن الشورى، فألفت أحد أصدقائى نظرى إلى رد علىّ فى جريدة البورص إجبشيان. فتناولت تلك الجريدة لأُطالع الرد! فما تلوت سطرين منه حتى اشمأزت نفسى! فأسرعت إلى اسم الكاتب فوجدت الرد مذيلا باسم (نجيب ظريفة) فطرحت الورقة ونفضت يدى سريعا.. ضحكت وشر البلية ما يُضحك.

داود بركات



حديث مع ناظر المعارف[1]

المعارف هي متجه نظر كل مصرى الآن؛ لأن مصر تنتظر أن تستمد من المعارف كل قوة، وكل تقدم، وكل مدنية، وكل تربية، وكل ثروة، وكل صناعة؛ وبالجملة كل حياة طيبة.

فلم نرَ بدًّا من أن نسأل سعادة الوطنى المفضال والوزير الحسن المقاصد أحمد حشمت باشا عما ينويه لنظارته الخطيرة من المشروعات التى تنطبق على آمال الأمة وأمانيها؛ بعدما نشرنا مغزى خطابه يوم الجمعة الماضى بنُظّار المدارس الابتدائية ووكلاء المدارس الثانوية وأطباء تلك المدارس مما يعد شبه برنامج لخطة سعادته فى إدارة المعارف.

***

قصدت قصر النظارة عند ظهر أمس فوجدت سعادته مهتما بالأعمال مع بعض الرؤساء، فجلست أنتظر فى قاعة الانتظار، حيث وجدت حضرة الإدارى الحازم عبد الرحيم بك أحمد مدير إدارة الكتاتيب فسألت حضرته عن الكتاتيب، التى يديرها فأعرب لى عن أمله بالنجاح الكبير بعدما حولت مجالس المديريات عنايتها إليها، وقال لى: إن دليل العناية التى تُبشرنا بمستقبل زاهر وتوفر العلم فى جميع جهات البلاد، أن مجلس مديرية الفيوم أقرَّ على إصلاح ٥٠ كُتّابا وإنفاق مئة جنيه فى السنة على كل كُتّاب، ومجلس مديرية أسيوط أقر على إصلاح (٧)[2] كُتابا وإنشاء ٥٠ كُتابا، وعلى هذا المنهج تسير المجالس فى المديريات الأخرى. نعم، إن بعض المجالس يميل إلى إنشاء مدارس ابتدائية، ولكن الكُتّاب إذا أُصلح يكون مدرسة ابتدائية، ولا ينقصه إلا تعليم لغة أجنبية، وهذا لا يمنع ذاك.

١ - الأهرام، ٧ آزار/مارس ١٩١٠م.

٢ - الظاهر من العدد هو رقم العشرات (٧) ولكن تمييز العدد يدل على أن العدد يتراوح بين (٧٠) إلى (٧٩).

وإذا سار الإصلاح على هذا المنوال قد تستغنى المدارس الابتدائية عن السنة الأولى فى برنامجها، وبهذه الواسطة تُزاد سُنو[1] التعليم وأنواع العلوم بتوفر تلك السنة سواء كان فى الابتدائى أو الثانوى.

ولما وصلنا إلى هذه النقطة من الحديث دعانى سكرتير حضرة الناظر إلى مقابلة سعادته.

فدخلت عليه، فإذا به واقف مع عزتلو رياض بك المهندس الذى زار سوريا فى العام الماضى وتفقد الأراضى التى يمر بها الخط الحجازى، وعثر على الينابيع المعدنية عند محطة الحمة ونهر اليرموك، فوضع لذلك خريطة بارزة تمثل الأودية والجبال والينابيع أحسن تمثيل. وقد أهدى إلى سعادة ناظر المعارف نسخة منها فى صندوق، فشكره سعادته على هذه الهدية ووعده بأن يرسلها إلى المكتبة لتحفظ فيها، وسمعت رياض بك يقول لسعادته: إنه سيدعو الماليين قريبا إلى الاكتتاب فى شركة لاستثمار تلك الينابيع المعدنية، وإنه ساعٍ الآن لنيل الامتياز من الباب العالى.

***

جلس سعادته وقال لى: إنى طالعت ما نقلتموه من الكلام الذى وجهته إلى حضرات نظار المدارس ووكلائها وأطبائها، وهذا الكلام لم يكن مكتوبا، فإذا كان لم ينقل إليكم بالنص فهو منقول بالمعنى والمغزى، إلا أنى أود أن ألاحظ ملاحظة واحدة آمل نشرها، وهى: «أنى لم أقل إنه لم يثبت اشتراك بعض الطلبة بالحادثة المفجعة، بل الذى قلته: إن بعض الطلبة قد اتهموا، وهم الآن بين يدى النيابة، فالذى أرجو وآمل ألا يثبت اشتراكهم، هذه هى عبارتى تقريبا؛ لأنه لا يمكن البت بالاشتراك أو عدمه إلا بعد إنجاز النيابة للتحقيق. هذا ما أردناه من عبارتنا، فإذا كان قد فهم منها غير ذلك

---
[1] - ملحق بجمع المذكر السالم، وأصله (سنون) وحذفت النون للإضافة.



فإنه يسرنا تصحيح العبارة بما ينطبق على فكر سعادتكم ولا يتجاوزه، ولتسمح لى سعادتكم بعد هذا أن أسألكم رأيكم فى حالة التعليم.

التعليم بالعربية

إنى قد استلمت النظارة منذ عهد قريب، فالذى ظهر لى أن سير المدارس يدعو إلى الارتياح، ويؤكد لى الرؤساء والنظار أن أفكار الطلبة منصرفة بحمد الله إلى العمل والتهذيب مع حفظ النظام، وإذا كانت لنا نيات ومقاصد إصلاحية فإنا سنتوخى لها كل الوسائل الممكنة. فقد بدأ التعليم باللغة العربية، وهو سيسير على هذا المنهج حتى الكمال بإذن الله. ويسرنى أن أقول لك إن مدير الزراعة أطلعنى أمس على أن جماعة من المعلمين يشتغلون الآن بترجمة مؤلف زراعى، وأمامى الآن على هذه الطاولة مؤلف آخر للهندسة ترجم إلى العربية وبوشر (طبعه)[1]، وإذا أمكن تأليف لجنة لترجمة الكتب العلمية يكون ذلك حسنا ومن أجلِّ أمانىَّ. على أن التعليم سيسير باللغة العربية سيرا حسنا، واللغة ذاتها تتقدم وتتهذب، فالطريقة الكتابية منذ ٢٠ سنة قد تغيرت الآن، فلماذا لا يكون من السهل سير العلم بلغتنا مع تقدمها كتابة؟

إنى أوقن بأن ذلك سهل، ونحن إذا علَّمنا العلوم بالعربية لا نعلم الطلبة فقط بل الأمة كلها.

تعليم الصناعة والزراعة

– هل تنوون سيادتكم زيادة فن أو نوع من العلوم على ما يدرس الآن؟

– إن الحكومة والأمة اهتمتا بإنشاء المدارس الصناعية، ومن رأيى أن يُنشأ فى كل مدرسة صناعية قسم لتعليم الزراعة العملية، فإن صناعتنا إذا قضت حاجة فى البلاد فإن الزراعة بحاجة إلى من يعرف مبادءها على طريقة عملية،

١ - كلمة مطموسة فى الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.

وقد سافر أمس مدير إدارة الزراعة والصنائع إلى دمنهور وشبين الكوم لتفقد المدارس الصناعية، فأوصيته بالاعتناء بإنشاء فرع زراعى فى كل مدرسة صناعية، ولا أريد بهذا النوع تعليم العلوم العالية بل المبادئ العملية؛ كمعرفة نوع التربة وما يوافق طبيعتها من الزرع، ومعرفة أمراض المواشى والطيور الداجنة وما يقيها وما يشفيها، وما ينفعها وينميها، وصيانة النبات وتسبيخه، والأشجار وغرسها، والزهور والانتفاع بها، وما شاكل ذلك مما أشعر نحن بحاجة شديدة إلى معرفته.

الإرسالية المصرية

بلغنا أن رئيس الإرسالية المصرية فى إنكلترا طلب استدعاء ثلاثة من طلبة الإرسالية فى إنكلترا، فهل ذلك صحيح، وما هو السبب، وكيف حال الإرسالية؟

– لما توليت النظارة عرض علىّ كتاب من كوربت بك رئيس الإرسالية فى إنكلترا يقول فيه: إن اثنين من طلبة الإرسالية اشتركا بالمسائل السياسية فى أثناء الانتخابات الإنكليزية الأخيرة، وإن آخر سلك مسلكا خارجا عن شروط الإرسالية، وطلب بكتابه استدعاء الثلاثة، فرأيت أن يعامل الثلاثة بالتؤدة والحكمة، وأن توجه إليهم النصيحة حتى لا يعودوا إلى مثل ذلك مرة أخرى. فكتبت النظارة إلى رئيس الإرسالية بذلك، وأَمَلِى أن يكون هذا النصح كافيا؛ لأنّا بحاجة إلى شبان نشيطين من أبنائنا يتجردون لتحصيل العلوم فقط ونقلها إلينا، فيكون تحصيل تلك العلوم شغلهم الشاغل المفضل بل كل شغلهم؛ كما يشتغل الساقى النشيط عن كل شىء بأن يستمد الماء للظمآن ليحييه وينعشه. ومن فكرى أن التربية التى يربى بها الطلبة فى إنكلترا هى تربية شريفة لأنهم يكتسبون أخلاقا كريمة ويكونون رجالا لا يتكلمون إلا على أنفسهم فى معترك الحياة. ومثلا سمعت بولد يتعلم



بإنكلترا صدمت عربته عربة شخص آخر، فأوقف عربته ونزل يعرض على الرجل إصلاح ما تعطل من عربته؛ لأنه أدرك أن عليه حقا لصاحب العربة يجب أداؤه. والقاعدة القانونية «من أتلف شيئا فعليه تعويضه»، فمتى تربت عندنا طبقة تعرف ما لها وما عليها كان ذلك غنما (للباقين)[١].

وهناك تعليم آخر نحن بحاجة إليه وأرى أن تلاميذتنا بأوروبا يتلقون من الوسط الذى يعيشون فيه ما يسمى بـ«معونة المعيشة» من حيث مقابلة الناس ومعاملتهم والمسايرة فى المجتمعات والأندية حتى اللبس والجلوس والمكالمة.

التعليم التجارى

– (...)[٢]عند سعادتكم (...)[٣] للتعليم التعليم الذى (...)[٤]

– يهمنى جدا (التعليم التجارى)(...)[٥]

ومسك الدفاتر والمعاملات الاقتصادية، (وقد)[٦] أعربت عن رأيى هذا فى مجلس الشورى؛ لأن بلادنا بحاجة إلى هذا النوع من العلوم العملية؛ فالشبان المصريون لا يتولون كثيرا من المناصب التجارية وأعمال الشركات مع أن البلاد بحاجة إلى ذلك، ويكفى الطالب حصة فى الأسبوع يتلقى فيها درسا عمليا، فإذا خرج من المدرسة وعنده المبادئ الأساسية لعلم التجارة والاقتصاد وحسابات الزراعة وأعمالها وطرقها (ونظم ريها)[٧] الاصطلاحية يستطيع إتمام ما ينقصه فى مزاولة العمل، إما بأن يدير أعماله الخصوصية إذا كان غدا وإما أن يدير أعمال سواه،

١ - بياض فى الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.
٢ - كلمة مطموسة فى الأصل.
٣ - سطر مطموس فى الأصل.
٤ - سطر مطموس فى الأصل.
٥ - كلمتان مطموستان فى الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.
٦ - كلمة مطموسة فى الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.
٧ - فى الأصل (وظامايها)، ولعل الصواب ما ذكرناه.

وإما أن يستخدمها فى البنوك والمحلات التجارية والزراعية ويترقى، ولا يكون انصراف الجميع إلى خدمة الحكومة التى لا تسع الجميع على ما ننتظره من انتشار العلم وزيادة عدد العاملين. وعلى كل حال إنا نحب من صميم فؤادنا خدمة وطننا بما يصل إليه جهدنا واستطاعتنا وتساعدنا على نيله الظروف.

الجمعية العمومية

– لى سؤال أخير أرجو سعادتكم التفضل بالجواب عليه: هل رأى الجمعية العمومية قطعى أو استشارى بمشروع أنفاق القناة؟

– لما كنت ناظرا للمالية أبنت للجنة كل ما طلبت منى من البيان، وقالت الحكومة رأيها مرارا فى هذا الموضوع، والأمر الآن موقوف على قرار الجمعية ذاتها، وليس عندى ما أزيده على ما هو معروف ومشهور.

فشكرت سعادته على رحابة صدره وتفضله بهذا البيان، وخرجت أدعو لرجال حكومتنا الكرام بالتوفيق فى خدمة الأمة.

داود بركات



ما هذه الحرب[1]

(١)

بعد أن اكتسح بنو عثمان البلقان وثلوا عروشه وقوضوا ممالكه، اكتفوا من أهله بالجزية والخراج، ومن أبطأ أدبوه بالسيف ومن لم يبطء تركوه وشأنه. فلم يحوّلوا تلك الممالك إلى أمم عثمانية، ولم يهمهم من أمرها إلا تناول خراجها، فظلت عصبية تلك الممالك والشعوب سليمة من كل مساس.

وصغر العنصر التركى (ومن تترك)[2]، عن استغراق تلك العناصر الخاضعة للقوة والمكرهة بالسيف، على الإطاعة، فظلت النعرة العنصرية والثورة[3] الجنسية تسرى فى عروقها إلى أن اتسع ملك بنى عثمان اتساعا لم يكن بالإمكان صونه كله بالسيف والقوة، فأخذت جوانبه تنهار وأطرافه تنتثر، وتحولت مجاهدة العثمانيين من الفتح وتقويض أركان الممالك والإمارات إلى حفظ البلاد المفتوحة وإبقاء الشعوب المغلوبة تحت النيِّر العثمانى؛ أى أن الدولة تحولت بعد السلطان سليمان من الهجوم إلى الدفاع، وهذه ٢٥٠ سنة مرت لم يجرِّد العثمانى فيها سيفا ولا سَلّ رمحا للفتح، ولكن حسامه لم ينم ساعة فى غِمده بل ظل مُصلَتا فى سبيل الدفاع عن ملكه وعما فتح آباؤه.

وإذا صدق المتنبى بأن خير الممالك ما يبنى على الأسَل[4] فأصدق منه كاتب كتب إلى ملكه ينصحه: «افتح بالسيف، واملك بالحكمة، وصن الملك بالسياسة».

---

١ - الأهرام، ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٢م.

٢ - فى الأصل (وممن ترك) والصواب ما ذكرناه.

٣ - فى الأصل (الثروة)، الصواب ما ذكرناه.

٤ - الشطر الأول من صدر قصيدة للمتنبى، وهو بتمامه:

أعلى الممالك ما يُبنى على الأسَلِ والطَّعنُ عندَ مُحِبّيهِنَّ كالقُبَلِ

ولو لم يتسع ملك العثمانيين ذلك الاتساع مع قلة عددهم لما انهار ذلك الانهيار ولما سقطت أطرافه حتى عجز السيف عن دعمها والرمح عن سندها، ولانصرف الفاتحون إلى تأليفها بالسياسة وإدارتها بالحكمة، ولَمَحَوا النعرة العنصرية من نفوس الشعوب التى ملكوها، ولما ذكر الأرمنى- مثلا- أنه كان له منذ ١٢٥٠ سنة مَلِك أسره الفرس ومُلْك هدمه الأعجام، فقاموا فى هذه الأيام يصوّرون ذلك الملك المجاهد، ويذكرون جهاده كأنه ابن ساعته وعفو يومه. ولما ظل الإغريقى يذكر مجد قسطنطين، والسربى[١] أَسْرَ مَلِكه فى إسكوب، والبلغارى تاريخ أمرائه. فتلك المقدمة بالفتح لم يكن ممكنا أن تنتج نتيجة أخرى فى مستقبل الملك غير ما رأينا، حتى أن العرب الذين قام العثمانى مقامهم فى حماية الأرض المقدسة وخدمة البيت الحرام، ظل [أمرا]ؤهم[٢] - مع تسليمهم لابن عثمان بالخلافة - متمسكين باستقلالهم، عازمين إلى الاستزادة من ذلك الاستقلال. وامتاز القرن الماضى بهبوب مصر للاستقلال بزعامة محمد على، ثم اليونان الذين بلغوا قصدهم بمعاونة أوروبا، ثم بلغاريا والصرب والجبل الأسود ورومانيا بفضل روسيا، وسياسة إنكلترا التى اقتادت روسيا إلى تخليص بلغاريا والصرب... إلخ. وحرمت مصر جنى ثمرة حروبها ونصرها لطمعها بها لنفسها. وأخذت قبرص مقابل عهد أعطته على نفسها بأن تمنع أخذ شىء من الأملاك العثمانية.

***

تكونت فى البلقان نواة حرة مستقلة، فتطاول[٣] اليونان إلى أن يضموا إليهم كل إغريقى فى البلاد العثمانية، وطمح البلغاريون إلى امتلاك كل أرض عثمانية يتوطنها بلغارى، وطمع الصرب فى أن يتحدوا مع الجبل

١- لعله يقصد الصربى نسبة إلى صربيا.
٢- ما بين المعكوفين اضافة من المحرر.
٣-فى الأصل (فتطال).



الأسود ويملكوا الشطر الأعلى من مقدونيا. وهو ما يطلقون عليه اسم «صربيا القديمة».

ولم يلقِّب أولئك الأمراء والملوك أنفسهم بأسماء بلادهم: فلم يقولوا «ملك صربيا» كما يقال ملك فرنسا، ولا أمير بلغاريا كما يقال أمير لكمسبورج، بل أطلقوا على أنفسهم ألقابا ضخمة كانت عنوانا لسياستهم، فقالوا قيصر البلغاريين، وملك الصربيين، وملك اليونانيين. فكأنهم يقولون إن فردينان ملك كل بلغارى، وبطرس ملك كل صربى، وجورج ملك كل يونانى. ولقد رأينا من الصرب يوم ضمت النمسا البوسنة والهرسك إلى أملاكها العجب. إذ وَثَب ذلك الشعب الفقير الصغير الضعيف الضئيل لمكافحة تلك الإمبراطورية الضخمة التى لا تعد صربيا عشر ولاية من ولاياتها. وغاضبت اليونان الصغيرة الحقيرة دولة القيصر التى تدر عليها الرواتب والإعانة حتى الآن لزعمها أن روسيا ضمت إليها جماهير من اليونان فى نودسا وسواحل البحر الأسود فصيرتهم روسا، وبها وأنها تسعى (...)-[1] لتأخذ منهم السيادة الدينية على الأرثوذكس فى بطريركيات الأستانة والقدس وسوريا.

وهذه النعرة الجنسية فى أمم البلقان حملت اليونان والبلغار والصرب والرومان على تأليف العصابات لتُفنِى كل من قال من المقدونيين الأرثوذكس أنه تابَع أمة منهم دون أخرى، فسبحت مقدونيا بالدماء المراقة وأخذت بالقرى المحرَّقة. واعتمدت حكومتنا كثيرا على تماديهم وتفانيهم وتطاحنهم. وظلت معتمدة على ذلك حتى انقطعت العلائق السياسية حاسبة أن اليونان يتخلفون عن الآخرين، فأعطت معتمدى بلغاريا والصرب جواز السفر من الأستانة ولم ترسل هذا الجواز لمعتمد اليونان، فذهب إلى نظارة الخارجية يطلبه أسوة بزملائه؛ لأن اتفاقهم قضى ذلك.

١ - كلمة مطموسة فى الأصل.

أجل، إنهم اتفقوا على انتهاك ملك الدولة، وعلى أن يشبعَ كل واحد منهم بعض مطامعه؛ لأنهم أدركوا أن تخاذلهم سيكون حائلا إلى الأبد دون بلوغ أمانيهم، وهم يعرفون أنفسهم ضعافا عن منازلة الدولة العليَّة؛ لأنهم إذا كثروا لا يبلغون ثلث العثمانيين، وإذا قويت جيوشهم لا تعادل قوة الجندى العثمانى. ولكن لهم بدول أوروبا ضامنا على أن لا يخسروا شيئا من أملاكهم إذا انكسروا وقُهروا، وعلى أن يربحوا إذا فازوا وانتصروا، فطوحوا بأنفسهم هذا التطوح واندفعوا هذا الاندفاع، وجعلوا مرافق العالم كله بين أسنة سيوفهم وأشداق مطامعهم. فإذا انتصروا– لا سمح الله!– جعلوا السِّلم عرضة الضياع إلى ما شاء الله، أما إذا انتصرت الدولة العلية عليهم– بإذن الله– سلم السِّلم فى العالم من أن تتداعى أركانه إلى أمد بعيد؛ لأن الدولة العلية لا تطمع بغير إصلاح ملكها وترقية شعبها خلافا لهم، فإنهم يطمعون بتوسيع أملاكهم وتكثير شعوبهم: فهم إذا انتصروا كانوا كالمحْضاء[1] تحرك به النار، وإذا قهروا قبعوا فى أوطانهم ساكنين. فإذا تمنينا النصر لدولتنا كعثمانيين فإنا نتمناه لها أيضا كشَطْر من الإنسانية العاقلة المنصفة المحبة للإصلاح وعيش الشعوب تحت ظل السلام والنجاح.

داود بركات

١- عود تُحرَّك به النار. الصحاح، (حضا).



ما هذه الحرب [1]

(٢)

تكونت نوى الاستقلال فى البلقان فلم تتكون فى الدولة العليَّة نواة تقابلها؛ لأن تحول الحكم بعد مدحت باشا وفاضل باشا المصرى ورفاقهم، إلى اعتبار السلطنة مزرعة للسطان واعتبار الرعية عبيدا أو ضيوفا فى تلك المزرعة– أضعف الدولة مدة ثلث قرن، وما ذهب من قوتها زاد فى مطامع البلقانيين وقوتهم. فالبلغار أخذت الروملل وجيش السلطان واقف يشاهد ذلك من وراء الحدود مدة ثلاثة أشهر ولا يُسمح له بطرد العصابة البلغارية من تلك الولاية.

وسبب ذلك أن سعيد باشا الصدر الأعظم أبى مرة قبول أحمد جلال الدين باشا نفكنجى السلطان وهو يحمل إليه رسالة من جلالته بحجة أن السلاطين لا يراسلون الصدور العظام إلا مع حجابهم. فانتقم أحمد جلال الدين من سعيد باشا الذى جرد الحملة لطرد العصابة البلغارية بحمل السلطان على منع الجيش عن الزحف على الروملل. وأثار اليونان الثورات فى كريد حتى انفصلت عن الدولة ولم يبق لنا فيها سوى علم من الحديد مرفوع فوق صخرة ضائعة فى البحر.

ورضيت حكومة السلطان أن تضرب الرسوم الجمركية فى الموانئ العثمانية على واردات كريد، ولولا أن الضباط قطعوا السلك عام ٩٧ بين حدود اليونان والأستانة حتى لا تصل إليهم أوامر القصر السلطانى بالوقوف عن الزحف لما نشبت حرب اليونان، ولما استعاد الجيش العثمانى مهابته بعد تلك الحرب فى البلقان؛ لأن السلطان كان يطلب الراحة من الحروب والمشاكل السياسية، فترك الطليان يأخذون مَصُوع، والإنكليز يأخذون بربرة والصومال،وأبى أن

١- الأهرام، ٢٩ تشرين أول/أكتوبر ١٩١٢م.

يحتج على اشتراك الإنكليز بالسودان المصرى، وأبىَ سَنْد الخديوية ضد اللورد سالسبورى، وسند فرنسا فى حادثة فاشودة، وترك أمير المحمَّرة يدَّعى الاستقلال ويحتمى بالإنكليز، وشيخ الكويت وشيوخ الخليج الفارسى يستقلون وينقطعون عن دفع الخراج. ورضى فى غرابة (...)[1] تتولى الدول رقابة مقدونيا، فجزع الجيش؛ لأن فصل مقدونيا عن جسم الدولة يشطر أملاكها الأوروبية شطرين، فلا تلبث ألبانيا أن تلحق بمقدونيا أو أن تحذو حذوها، تلك كانت حالة الدولة يوم إعلان الدستور، بل ذلك كان السبب فى إعلانه.

***

أدرك ضباط الجيش الخطر فثاروا ونادوا بالدستور، ففكت أوروبا أيديها عن مقدونيا. وكان مثل الضباط فى إعلان الدستور عام ١٩٠٨ كمثل مدحت باشا فى إعلان القانون الأساسى عام ١٨٧٦. وذلك أن ثورة بلغاريا والجبل الأسود يومئذ دعت الدول إلى عقد مؤتمر فى الآستانة لمنح بلغاريا الاستقلال الإدارى، فاجتمع السفراء ذات يوم للتباحث فسمعوا دوىَّ المدافع من القلاع ومن سفن الأسطول فأخذوا يتساءلون عن السبب، فإذا بمدحت باشا داخل عليهم وفى يده صورة القانون الأساسى، فقال للسفراء: «وماذا يريد البلغاريون أو سواهم من الرعية؟ فهذا هو الدستور يساوى بين الجميع، فإذا هم أرادوا إصلاح بلادهم فليرسلوا نوابهم إلى المجلس ليطلبوا ذلك الإصلاح، فقد أعذرناهم فى ثورتهم على الحكومة المطلقة، واليوم صار الحكم للشعب وهم شَطْر منه فلا عذر لهم».

فلما سمع السفراء هذا الكلام قوَّضوا اجتماعهم وانصرفوا، ولكن روسيا ما لبثت أن شهرت الحرب على الدولة، وبعد الحرب اشترطت أن تتكون الإمارة البلغارية من بلغاريا والروملى ومقدونيا وبعض أدرنه حتى تتكون

١ - كلمتان مطموستان فى الأصل.



«بلغاريا العظيمة الكبيرة» التى ظلت مطمح أبصار البلغاريين من يوم استقلالهم إلى اليوم. فصرفوا أموالهم وجَنَى حياتهم فى إعداد القوة التى توصلهم إلى إنشاء «بلغاريا الكبيرة». والدولة تنظر إليهم بعين السخط، ولكنها ما كانت تهابهم لضعفهم وقوتها، ولقلتهم وكثرتها، ولجُبنهم وشجاعتها.

ولوقوف الصرب ورومانيا واليونان لهم بالمرصاد؛ لأن بلغاريا تدعى أن مقدونيا كلها بلغارية، وتخالفها تلك الدول وتقاتلها من أجل هذا الزعم، ولم تعاون رومانيا سنة ٧٦ على تحرير بلغاريا إلا لتعلن استقلالها هى وتنال غُنما. فنالت إقليم دبروجا ولكن إقليم سلستريا ظل موضوع الخصام بين البلغاريين ورومانيا إلى الآن.

وترى رومانيا فوق ذلك أن كل زيادة فى بلغاريا نقص فيها، كما ترى النمسا أن امتلاك الصرب لسنجق نوى بازار يقفل طريق سلانيك فى وجهها. وطمع النمسا وألمانيا فى خليج سلانيك مشهور شهرة طمع إيطاليا بطرابلس الغرب قبل إغارتها عليها، فلهذا يخشون كثيرا ويخافون الآن جدا من أن يكون قيام دول البلقان مقدمة لقيام النمسا، كما كانت ثورة بلغاريا والجبل الأسود سنة ٧٦ مقدمة للحرب الروسية المشهورة. ولم تعلن حتى الساعة روسيا والنمسا وإيطاليا حيادها. وتقول رومانيا إنها لا تعلن حيادها إلا بعد روسيا. وقال وزير خارجية اليونان: إن روسيا بذلت كل جهدها لتفكيك روابط الاتفاق البلقانى، ولكن النمسا تنظر إلى هذا الاتفاق بعين الرضى. إنما تضطرب أوروبا أن ينهض العالم السِّلافى ضد العالم الجرمانى إذا تحركت النمسا وهى يد ألمانيا؛ لأنه فى هذه الحالة لا تستطيع قوة من القوات ولا حكومة من الحكومات صدَّ روسيا عن مناصرة السلافيين البلقانيين.

وقد أخذت صحف ألمانيا تشكو من شدة طمع النمسا وقد أخذ المسيو بوانكره رئيس وزارة فرنسا على عاتقه حمل الدول على إبرام إتفاق مُذ الآن لحصر الحرب فى دائرتها وتقرير نتائجها تقريرا باتا، سواء كان الفوز للعثمانيين أو للبلقانيين.

وأكبر عقبة تقوم فى وجهه «نومة» إنكلترا، وقد كان كل اعتماده عليها، حتى أبدت صحف فرنسا السخط والغضب من سياسة السير إدوار غراى، ولا ينفى هذه الحقيقة التكذيب الرسمى، وأكثر ما يكون التكذيب الرسمى تأييدا لما كذبوه. ومسلك النمسا ظاهر من اقتراحها الذى بنى عليه اقتراح دول البلقان. ويَدُ إيطاليا فى الاتفاق البلقانى ظاهرة بادية؛ حتى أن الغرندوق الروسى صهر أمير الجبل الأسود لما قرأ وهو فى فيينا خبر عقد الصلح بين إيطاليا والدولة العلية أظهر اشمئزازه من الطليان، وألقى الصحيفة فى الأرض حاسبا أن إيطاليا خانت عهد البلقانيين.

ورووا أن سفير بلغاريا فى باريز لما عرف فى نظارة خارجية فرنسا خبر عقد الصلح بين الدولة العلية وإيطاليا سقط على الكرسى. فكت أوروبا القيود التى قيدت بها مقدونيا بعد إعلان الدستور، واستلم العثمانيون مشروع الإصلاح المقدونى الذى نيط بحسين حلمى باشا إنفاذه، ولكنهم لم يثابروا على ذلك سوى خمسة أشهر، ولا يدرى أحد حتى الآن السبب الذى حمل حزب الاتحاد والترقى على تعطيل ذلك المشروع.

وصرفت حكومتنا الدستورية خمس سنين فى تنازع الأحزاب، فصرفت الدول البلقانية تلك السنين الخمس فى إعمال الفكرة وإنعام النظر بما (ينيلها)[1] قصدها قبل أن تقوى الدول، وتتضام أجزاؤها، وتزهر ماليتها، وتتم الخطوط الحديدية فى أرضها، وتألف جموع شعوبها الخدمة العسكرية،

١- فى الأصل (يقيلها)، والصواب ما ذكرناه.



فخمس سنين خسرناها فى تنازع الأحزاب كانت خمس سنين ربحها أولئك البلقانيون فى لم شعثهم وتدريب قواتهم وعقد الاتفاق بينهم ضدنا. ونحن موقنون أنهم لا يتفقون، وبأنهم لا يحاربون حتى أنهم شهروا الحرب علينا ولم تأمر حكومتنا بتعبئة الجيش لظنها بأن أوروبا تطالب بالإصلاح فقط، وهى قد أمرت به طبقا لمعاهدة ١٨٨٠ ولكن أوروبا إذا أرادت أمرا بإجماع الآراء عجزت عن الوصول إليه. وإذا أرادته دولة واحدة بلغت قصدها، وقد أثبت التاريخ ذلك فى جميع الحوادث والظروف، فهذا الإجماع الأوروبى عجز عن منع حرب محمد على، وعجز عن إخماد الفتنة العرابية، وعجز عن منع الثورة اليونانية الكريدية، وعجز عن حل كل مُشكل ومعضلة باسم أوروبا جمعاء، فهو الآن فى أزمة البلقان أعجز منه فى كل وقت وزمان مع تهديدها لأوروبا ذاتها بالويل والثبور وعظائم الأمور. وثقة دولتنا بأوروبا ونجاح مساعيها مكنت البلقانيين من حشد جيوشهم وقواتهم وأجلت جمع القوات العثمانية من سوريا والأناضول، حيث يقضى على الجندى أن يسير على قدميه أسابيع قبل أن يصل إلى الخطوط الحديدية التى تنقله إلى ميدان القتال، ولولا ذلك لما استطاعت جيوش دول البلقان أن تتعدى حدودها، ولكان بإمكان جيشنا أن يغزو تلك الممالك الأربع الصغيرة بوقت واحد.

وقد جمعت تلك الممالك كل ما يمكن جمعه من قواتها، أما دولتنا فإنها لم تجمع حتى الساعة إلا النزر اليسير من جيشها، والحرب على كل حال خدعة، والنصر بيد الله يأتيه[1] من يشاء.

داود بركات

١- هكذا فى الأصل. ولعل الكاتب أراد بـ«يأتيه» من يأخذ بأسبابه ويستعد له.

ما هذه الحرب[1]
الحياة أو الموت
(٣)

يحاربنا البلغاريون واليونان والصرب والجبل الأسود معا لا دفعا لعنائنا، ولا دفاعا عن حوزتهم منّا، بل يحاربوننا للغنم لا كما قال ملوكهم فى رسائلهم إلى شعوبهم- أن يخلّصوا إخوانهم من نير العثمانية.

ونحن لا نحاربهم للفتح وللغنم، ولا توسيع الملك وبسط السلطان، بل لصد مطامعهم، ودفع جشعهم، وصون ملكنا الأوروبى من الضياع؛ لأنه إذا صح حلمهم، أخرجوا من حكم العثمانية ما يزعمون أنه بلغارى أو صربى أو يونانى أو جبلى.

وأخذوا أدرنه وسلانك وقوصوه ومانستير وشقودره والأرخبيل بل الأستانة ذاتها، وأتت ألبانيا منفصلة عن جسم الدولة ودخل أكثرها فى دائرة زعمهم، فالبلغاريون لا يضربون من الملك العثمانى طرفا وذيلا، بل هم يضربون منه الصميم، ويتطاولون إلى القلب، ويهددون ببأس، فلهذا لا تعد هذه الحرب معهم حرب إيطاليا فى طرابلس، ولا هى كغيرها من الحروب السابقة، بل حرب الحياة أو الموت، حرب تنازع البقاء، حرب العثمانية كلها، وحرب كل عثمانى؛ لأنه إذا ضاعت مقدونيا- لا سمح الله- ضاع من الملك النظر الأعز، والجناح الأمتن، والعضد الأقوى، وليست لهذه الشعوب البلقانية حجة غير الحجة التاريخية البالية التى مرثتها الليالى والأيام بل الأدهار والأزمان؛ لأنّا لو أحصينا عدد المسيحيين فى هذه الولايات وحسبناهم إغريقا فقط لما كانت لهم الغالبية فى العدد إذا عُدَّ

[1] - الأهرام ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٢م.



مسلموها ويهودها وغيرهم من عناصرها، وما مثلهم فيها إلا كمثل الأرمن يوم حرضوا على ثورتهم فرسموا الخرائط الجغرافية للأناضول وحسبوا تلك البلاد أرمنية فأطلقوا عليها اسم «أرمينيا» والأرمن فيها لا يعدون واحدا في كل مائة من أهلها.

ولو أن ملوك البلقان قالوا فى رسائلهم إن ممالكنا صغيرة حقيرة، ولا مطمع لنا بتكبيرها وبزيادتها إلا من الأملاك العثمانية القريبة منا ونحن نخشى أن تقوى العثمانية وتزداد قوة ولا يبقى لنا معها أمل بالغنم فرأينا أن الفرصة سانحة لشهر الحرب، فإن فزنا أخذنا وغنمنا، وإن حبطنا كان وجودنا مصونا بفضل أوروبا، نقول إنهم لو قالوا ذلك فى رسائلهم لقالوا صدقا ولم ينطقوا بهتانا وزورا.

ولقد زعم أولئك الملوك فى رسائلهم إن إخوانهم الخاضعين للحكم العثمانى يسامون العذاب ألوانا فهم يحاربون لخلاصهم من ذلك العذاب، ولو أنهم أنصفوا لجهروا واعترفوا بأنهم هم الذين يسومون أولئك المسيحيين المقدونيين العذاب، وهم الذين يؤلفون العصابات ويسلحونها بالديناميت فتنسحب تسحُّب الأفعوان بين الوهاد والجبال وفى أكفها النار والضِّرام والرصاص والمُدَى لتقتل وتحرق كلَ من انتسب إلى كنيسة غير كنيسة من سلحتها.

وهذه إحدى صحف أثينا ذاتها قد اعترفت جهارا بأن اليونان أفلست أربع مرات لما أنفقته من الأموال على إتاوة الثورات وهياج الهيجان فى كريت، أَوَلَمْ نر صحفهم تنشر صور زعماء العصابات النازية فى مقدونيا وتنعتهم بالأبطال الصناديد؟! أَوَلَمْ نر مصوريهم يصوّرون أولئك السفاحين مكللين بغار الفخار لأنهم أسرفوا فى قتل النفوس وتخريب الدور وإحراق القرى والمزارع والدساكر؟! أَوَلَمْ يقل أحد خطباء أثينا

في رثاء زعيم إحدى العصابات «لمثل هذا يجب الرثاء لأنا بالأمس ما كنا نطمع بعائلة واحدة في مقدونيا، أما اليوم وقد أوقع أبطالنا الرعب بقلوب القرى التي تزعم أنها بلغارية، فصار ثلث المقدونيين المسيحيين يجهرون بأنهم يونان خوفا من مُدى هؤلاء الأبطال الفدائيين».

***

إن ملوك البلقان لو صدقوا القول في رسائلهم إلى شعوبهم وإلى العالم المتمدن لفضحوا بالحقائق أنفسهم وفضحوا وزراءهم، ولكنهم يَلبسون الباطل لباس الحق، ويزوقون الجور بزخرف العدل:

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فإنك عاري[1]

ولو لم يكونوا أنفسهم الجلادين في مقدونيا السفاحين فيما جاور بلادهم لكانت مقدونيا كغيرها من الولايات العثمانية بأمان وسلام منزهة كسواها من الأمصار العثمانية عن الفظائع الطائفية.

ولا يؤخذن على العثماني إيراده كلمة «الأمان والسلام»؛ فإنه لا يوجد عثماني واحد يدعي أن سلطته في السكون والراحة، كبريطانيا أو كفرنسا أو كألمانيا ولكن كل عثماني يقول والمقدونيون في مقدمة القائلين:

إن الشعب استلم أزمة الحكم الدستوري فهو سائر في بلاده إلى الرقي والنهوض والإصلاح حتى تبلغ في القريب العاجل شأن البلاد التي تقدمتها والأمم التي سبقتها، نعم إن البلاد خارجة من ثورة تمخضت بها عشرات من السنين، فلا عيب عليها إذا أضاعت خمس سنين في تمحيص هذه الثورة حتى يبدو المخض من اللبن الصريح؛ لأنَّا لم نعرف أمة انقلبت من الحكم المطلق إلى الحكم الدستوري فنالت قصدها وبلغت مناها في سنين قلائل، وإذا تفحصنا حال المقدونيين في مجلس نوابنا تبين لنا أنه كان لنوابهم

١ - البيت لأبي ذؤيب الهذلي. وهو شاعر مخضرم، أسلم ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم.



الصوت الأعلى والنفوذ الأسمى، فلا إصلاح حال المقدونيين دعا أولئك الملوك إلى إظهار تلك الغيرة، ولكن طمعهم وجشعهم وخوفهم من فوات الفرصة جمع شتاتهم، وضم متفرقهم ووفق بينهم على أن يرتكبوا تلك الجريمة الفظيعة، لا ضد العثمانيين فقط بل ضد الإنسانية كلها فى عصر النور والإصلاح والمدنية، وهذه بوادر الطمع أدل على جريمتهم من كل قول وبيان، فإن اليونان الذين صرفوا عشرات السنين فى إثارة كريد وإراقة دماء أهلها شَهَروا الحرب من جانب وولوا وزيرا منهم على كريد من جانب آخر، وقبلوا النواب الكريديين فى مجلسهم وكانوا بالأمس- منذ ثلاثة أشهر- يقسمون للدولة وللدول بأنهم لا يحركون فى مسألة كريد ساكنا، وأنهم يرون كريد باستقلالها الإدارى أسعد أهل الأرض حظا.

ومنذ ثلاثة أشهر أيضا منعوا بالقوة نواب كريد عن دخول مجلسهم. فإذا كان إصلاح حال الشعوب المشتركة معهم بالعنصرية هو قصدهم الأسمى، فلماذا لم يتركوا كريد على سعدها وحظها وهى تحكم نفسها، ولا تتحمل الضرائب، ولا تحمل عبء العسكرية والبحرية الثقيل الذى أبهظ كواهل الأمم الكبيرة الغنية، فكيف بهذه الشعوب الصغيرة الفقيرة الحقيرة؟

فهذه الحرب ليست حرب المدنية ضد الهمجية كما ادعوا كذبا وبهتانا، إنها هى حرب الطمع البلقانى ضد الإصلاح العثمانى، بل هى حرب للسلم، حرب للمدنية، حرب للحضارة، حرب للدستور، حرب للإصلاح؛ لأن الدولة العثمانية، بل الأمة العثمانية كانت قبل اختراق حرمة حدودها وتدنيس أرضها متمسكة بالسلم حتى عبادته، باحثةً عن المدنية الصحيحة لنشرها فى أرضها بين شعوبها. متلمِّسة الحضارة من كل قطر متحضر وأمة حضرية عاشقة للدستور حتى التفانى بحبه، مريدة للإصلاح ولو بيد خصومها وأعدائها،

فجاء البلقانيون يجنون هذه الجناية الفظيعة على الإنسانية ويوقفون المدنية عن أن تنشر ظلها على أمم وشعوب أحلها الله أفضل الأرض من اليابسة، ومنحها أجل القوات والقوى الطبيعية، حتى خرج منها رسله وأنبياؤه وهبط فى أرضها وحيه وإلهامه.

داود بركات



من هم العرب

(١)

سيدى الفاضل رئيس تحرير جريدة الأهرام الغراء

اطلعت فى أهرام أمس على مقالة من قلم حضرتكم فوجدت فيها كلاما فى انتساب مسيحيى سوريا إلى العرب، وامتدحتم فيها أعمال بعضهم ممن ترجم بعض كتب العرب إلى اللغات الإفرنجية- بقولكم إنهم بعملهم ذلك يرفعون شأن أجدادهم ويشرفون الدم العربى الخالص السائر فى عروقهم إلى غير ذلك؛ مما لا يبقى شكا فى أنكم تنسبونهم إلى أصل عربى صميم، فأطلعت أحد أصدقائى السوريين على ما جاء فى مقالتكم هذه فأنكر عليكم ذلك، وقال: إن شكرى غانم والكاتب الآخر الذى ذكرتم اسمه من الموارنة، وأن هذه الطائفة خليط من الأرمنيين واليونانيين والصليبيين، وأنهم كانوا أشد أعداء العرب وهم القوم الذين لم يختلطوا بالعرب على الإطلاق.

وزاد على ذلك قوله: إن العرب المسيحيين فى سوريا لا يتجاوز عددهم بضع أسر غير مارونية مقيمة فى جنوبى لبنان والبقاع وحوران[1]. وذكر لى أن اليازجى الكبير وهو أكبر أئمة النصارى فى العربية أشار إلى نفسه فى قصيدة يمدح بها السيد العمرى بقوله:

هذه البقية من نخائر أعجم تلقى البقية من كرام أعارب

فاعترف صريحا بأنه أعجمى غير عربى، فهل لحضرتكم أن ترشدونى فى أهرامكم الأغر إلى الوجه الصحيح. أدامكم الله موردا للمستفيدين.

الإسكندرية ٥ يناير ١٩١٣.

زكى عبد الله
التاجر بالميدان

١ - فى الأصل (حَوْرن)، والصواب ما ذكرناه.

الجواب

حالَ غيابى عن إدارة الأهرام دون الاطلاع على هذه الرسالة يوم ورودها، ولم تصل إلىَّ إلا اليوم. فأنا أجيب حضرة السائل على سؤاله بأن السُّريان والكلدان والعرب عنصر واحد، ولغاتهم متشابهة كتشابه اللاتينية والفرنساوية والطليانية. والسُّريان تقدموا العرب بالمدنية حتى أنهم وجدوا اللغة السريانية مَرْقومة على جدار الصين.

وأخذ العرب عن إخوانهم السُّريان الحروف المسماة «بالخط الكوفى»، فلا فرق بين هذا الخط والخط السريانى، كما أنهم أخذوا عنهم فلسفة اليونان وشيئا من النحو (كما ورد فى أمالى الأستاذ على عبد الرازق من علماء الأزهر نقلا عن الأستاذ أبو (...)[1] عن (...)[2] يوسف الأبيض).

ولما تقدم العرب ونهضوا وكان السريان قد تقهقروا وسقطوا؛ امتزجت الطائفتان وتكونت منهم فى الجزيرة وديار بكر وحلب... إلخ (حيث يتكلمون السريانية حتى اليوم) طائفة واحدة عربية، ولولا المذاهب الدينية التى حفظت اللغة السريانية فى الكنائس والمعابد إلى جانب العربية لما بقى للسريانية أصل ولا فصل.

والذين بحثوا فى أصل الموارنة أعادوهم إلى السلالة السريانية، كما أعادوا الروم (كاثوليك وأرثوذكس إلى أصل يونانى؛ لأنهم يُصلُّون باليونانية فى كنائسهم) ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا بأن الطائفة الفلانية كلها من أصل يونانى أو سريانى لهذا السبب؛ لأن اتِّباع المذهب لا يوجِد الأصل، والمبحث طويل لا مجال له هنا.

إنما أقول إنه إذا لم يسلم بعضهم بأن مسيحيى سوريا من العرب العاربة لا يستطيع أحد أن ينكر أنهم من العرب المستعربة. وإذا كانوا كذلك فهم

١ - كلمتان مطموستان فى الأصل.
٢ - كلمة مطموسة فى الأصل.



عرب لا يُنازَع فى عربيتهم، أولا لأن العنصر السريانى والكلدانى واحد، وثانيا لأنهم وحدوا جامعتهم باللغة العربية فهى لغتهم ولغة أجدادهم وأجداد أجدادهم. وكفى باندماجهم تعريبا لهم كما كان أسقف وائل عربيا وهو سريانى نصرانى. وبختيشوع عربيا وهو طبيب سريانى وأولاد موسى بن شاكر وغيرهم من علماء عصر الرشيد والأمين والمأمون أعرابا وهم من أصل سريانى؛ فالمسيحيون السوريون على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم هم عرب، سواء كانوا من بقايا الدول العربية المسيحية فى سوريا أو من الطوائف التى استعربت، أو من بقايا جيوش الرومان واليونان والفرس والصليبيين والمصريين الذين دخلوا تلك البلاد ومكثوا فيها وامتزجوا بأهلها وألفوا باللسان العربى جامعة واحدة.

وفى جزيرة العرب قبيلة تسمى «قبيلة الصلبة»، وهذه القبيلة عربية كسائر القبائل ولكنها فى ذمة القبائل كلها فلا يغير عليها أحد، وقد بحث العلامة سليمان أفندى البستانى فعرف أن أصلها من الصليبيين الذين مكثوا فى بلاد العرب، فهل يجوز أن نقول إنها أوروبية غير عربية؟ كلا.

إن فيما تقدم كفاية لحضرة السائل.

داود بركات

من كل نبع قطرة
ومن كل شجرة ثمرة[1]

(١)

إذا نوى المرء السفر أعد عُدَّته من زاد ومال، وكان الرفيق «المؤاتى» بعد تلك العدة أشهى الأمانى ومنتهى الآمال.

وللطريق عثراته وعظاته ومنافعه وأحزانه وأفراحه وتوفيقه وحُبوطه كمدى الحياة من ساعة المولد إلى يوم الموعد لا يخطر واحد منها فى خاطر المسافر. كما أنه لا يخطر واحد منها فى خاطر الحى إذا انفتحت عيناه لهذا الوجود، اللهم إلا الأمل الطيب والحلم باللذة. والأمل واللذة عارضان يَعرضان للمسافر فى طريقه وللحى الكائن فى حياته ككل عارض آخر وما أكثر العوارض فى هذه الحياة حتى يكاد الفرح أو النجاح أو الفوز أو كل ما يتمناه المرء يكون واحدا من مليون– كما يقول الحسابيون.

يهم المسافر بالرحيل عن أرض يعشقها وقوم أحبهم إلى أرضٍ أحبها وقوم هواهم، فهو بين عاملَين يتنازعانه يقعد به الأول ويحثه الثانى. فإذا فارق ما ألف– والمرء أسير ما ألف– تولاه انقباض واشتمله ارتياح وانبساط فيبرح مكانه إلى طيته[2]. وذانك العاملان من نفسه لا يكادان يبقيان فى اللحظة الأولى، أى فى ساعة انسياب القطار به أو إقلاع الباخرة أو دَرْج المركبة فى ثنايا النفس وطيات القلب شيئا من فرح أو حزن، ومن انقباض أو ارتياح إلا إذا رجّح ما يُفارق على ما سيَلْقَى فيحزن. أو ما سيَلْقَى على ما يُفارق فتنبسط نفسه وينشرح صدره. فهل(...)[3] بمثل هذا؟؟

١- الأهرام، ٣٠ تموز/يوليو ١٩١٤م.
٢- الطِّيَّة: الجهة أو الناحية البعيدة. الوسيط. (طوى).
٣- كلمة مطموسة فى الأصل.



فارقت القاهرة إلى سوريا، ففارقت ما أحب ومن أحب إلى ما أحببت ومن أحببت مع صديق كل ما أقوله فيه: ولنعم الرفيق الدكتور سليم أفندى البستانى المحامى.

حتى إذا وصل بنا القطار الطائر على أجنحة البخار إلى ما بين الزنكلون والزقازيق حدث فى المَركبة كفرقعة البارود أو أشد، وسد الغبار منافسنا فحسبنا أن بندقية أطلقت وأصاب رشاش طلقتها رفيقى، فبعد دقيقة تكشف لنا الأمر عن «طوبة» رُشقت بها المركَبة، فتلقاها القطار بقوة اندفاعه فتفتتت وأصابنا منها ما أصابنا ووقانا الله شرها، فدعونا الكوميسيرى الذى عاين محل وقعها وفتاتها الذى ملأ المركبة، وكتب فى ورقة خبرها ليزفه إلى المصلحة، وقال لنا خادم مَرْكَبة الأكل: إن مثل هذا كثير جدا على خط الزقازيق، ولكنه لا يَذكر– وهو طويل العهد فى الخدمة– أنهم عثروا على شخص واحد فعاقبوه ليكون عبرة للآخرين.

ولاشك بأن كثيرين من الأهالى رأوا ذلك الشرير الذى رشق القطار بالطوبة تلذذا بالشر فقط لا لغنم يغتنمه ولا لربح يكسبه، ولكنه لم يزجره زاجر– فى معتقدى ويقينى– ولم يشهد عليه شاهد لأنهم لم يزجروا واحدا فعل فعلته وارتكب جريمته ولم يتقدموا للشهادة عليه. وكتمان الشهادة وإهمال النظام كأنه لا يعنى الشعب ولا الشعب قَيِّم عليه، وهو من احتكار الحكومة وحدها عيب فى أخلاقنا ونقص فى تربيتنا نجم عن استبداد الحكومة فى الماضى، وعن يقين انغرس فى صدر الشعب بأن الحكم شيء لا يعنيه وصون النظام والأمن من كل عبث ليس من شؤونه ومتى حكم الشعب نفسه وصارت الحكومة مظهرا من مظاهره شعر بأنه مسئول عن كل أمر من أموره، والشعوب الراقية التى تحكم نفسها يحس الواحد منها بأن ضبط الأمن وصون النظام من شؤونه فلا يكاد يشهد شاهد زورا،

ولا يفضي[1] أحدهم على قذى ولا يرى سارقا أو لصا أو ضاربا أو عابثا بالنظام إلا ومسك بتلابيبه وجذبه إلى سلطة القانون لتأخذ للمجموع منه وتردعه؛ أما نحن فكل همنا أن يخلص السارق إذا لم يكن قد لَصَّ مالنا، وأن ينجو القاتل إذا لم يكن قاتلا أحدنا، وأن يفلت راشق القطار- مثلا- بالطوب إذا لم تشج الطوبة رأسنا. وكلمة «ماعليهش» تقوم مقام العدل والإنصاف وإقامة القانون وصون النظام، فإذا كانت في الأرض فوضى «فماعليهش» هي الفوضى كلها. وتزيد على الفوضى الأوروبية كثيرا جدا فهي فوضى شرقية معناها «إن كل شر مباح».

وصلنا إلى بورسعيد وحالنا ينشدها «سوريا قصدنا وأنت الطريق» فحدث لنا فيها ما ذكرنا بمذهب الحكيم القائل: «احفظ القانون يصنك» فالخطة تقضي بأن تسافر الباخرة الخديوية عند وصول القطار، ولكن مكتب الشركة قال لنا قبل السفر: إن ذلك هو النظام المقرر ولكن الباخرة لا تسافر قبل الساعة السادسة، فقلنا: أويقات يتسع فيها الوقت للنزهة في بورسعيد. فأرسلنا صناديقنا إلى الباخرة وأخذنا نطوف أرجاء المدينة حتى حلت الساعة الخامسة، فقصدنا الباخرة فإذا بها قد رفعت مراسيها وأطلقت عنان بخارها فصحنا وصاح من معنا وصاح نوتية الزوارق جميعا وخِلْنا أننا بانطلاقنا بزورق سريع يبلغنا الباخرة وما حسبنا لعامل الصحة حسابا لأننا صحيحون سليمون من كل داء وخارجون من بلد سليم من كل مرض. فلا قيام الباخرة ولا صياح النوتية ولا جزعنا على حاجتنا بمانع عامل الصحة من أن يقبض على أيدينا لنمر بمكتبه وندفع الرسم. ولو لم يرزقنا الله صديقا عارفا بعوائدهم وبأن المسألة كلها أخذ رسم عن المسافر لسافرت صناديقنا ومكثنا في بورسعيد، وكل واحد منا مهما كان غنيا يقول: «واصندوقاه!!».

١ - أفضى إلى فلان بالسر: أعلمه به. معجم المعاني، (فضى).



دفع صديقنا ذلك الرسم الذى لا نفهم له سببا ولا عِلة، وجَدَّ النوتية بنا حتى أول البوغاز فَرَقَّ لنا من فى الباخرة من الرفاق فألحوا على القبطان فأوقفها وصعدنا إلى ظهرها، ولشدة ما نال بعض النوتية من الجهد أخذ يصيح ليُفهمنا أنه تعب وأنه يستحق أجرا كبيرا. فسكوته وهو يجد ويكد كان أطيب فى نفوسنا وأشفع لنا عند جيوبنا من ذلك الصياح الذى يشبه المن علينا فأنقص له من أجرته. وأنقص فى نفوسنا من قيمة عمله، وهكذا كل منان يمحو بمنه فضله ويضيع بهذه السيئة تلك الحسنة.

بيروت- داود بركات

من كل نبع قطرة[1]
ومن كل شجرة ثمرة
(٢)

من بورسعيد إلى يافا لم نرَ إلا السماء تظلنا والماءَ تتسحب على ثَبَجه[2] باخرتنا والسفن الحربية الإنكليزية تخطر في البحر إقبالا وإدبارا.

فمن بورسعيد خرجت إحدى النسافات إلى السواحل السورية ونحن نراها كالأفعوان ينساب انسيابا. وفى ميناء يافا رست ثلاث طرادات سريعة قبل وصولنا. وقدر لباخرتنا أن تحمل إلى يافا طائفة من الزوار النصارى وأخرى من الزوار المسلمين وثالثة من الزوار اليهود فنزلوا إلى البر ونزلنا للطواف، فوزع رجال البوليس على الداخلين المدينة تذاكر الإعانة للأسطول. وثمن كل تذكرة بشيكلان، أى: ستة قروش فدفعنا جميعا بارتياح إلا إسكندرى، أبى ثم دفع.

اجتزنا يافا إلى «تل أبيب» فأحسسنا قبل الوصول إليها وهى خارجة من ضواحى يافا بأنا مقبلون على مدينة جديدة غريبة لأنا رأينا المركبات يقودها أناس يلبسون البرانيط وعليها الكتابة بالعبرية فلما وصلنا إلى تل أبيب أخذتنا الدهشة. لأنى عرفت تل أبيب منذ أربع سنين كروما وعريشا، فإذا هى مدينة فسيحة الأرجاء، متسعة الشوارع، حسنة المنازل، كثيرة الحدائق، تشبه فى نظامها مدينة الهليوبوليس فى ضواحى القاهرة، وفيها مدرسة جديدة للإسرائيليين ليس فيها تلميذ واحد من سواهم وكان المعلمون منهمكين فى الامتحان فلم أستطع زيارتها، وإنما عرفت من أحد الأصدقاء الإسرائيليين أن عدد الطلبة يربو على المئات، ولما قلت له:

١ - الأهرام، ٣١ تموز/يوليو ١٩١٤م.
٢ - وسطه. لسان العرب ، (ثبج).



لماذا لا تُدرِّسون العربية فى هذه المدرسة؟ أجابنى مبتسما: ولماذا لا يدرس أبناؤكم العبرية؟

فهمتُ مراده فسكتُّ . .

ووفِّقت إلى مقابلة أحد كبار الوطنيين من أشراف القدس فحدثته فى ذلك، فقال لى: إنى قرأت كثيرا فى موضوع فلسطين واليهود فما راقنى إلا ما نشره الدكتور شبلى الشميل فى الأهرام. فالمسألة ليست مسألة كلام وتزويق عبارات بل هى مسألة أموال وأعمال وعلوم ومعارف. فإذا شئنا أن نجارى هؤلاء الناس بأن نصد تيارهم عنا وجب علينا أن نقابلهم بمثل عدتهم للمجاهدة والمجالدة والتسابق فهم يبتاعون الأرض بمالهم ولا يأخذونها من أصحابها اغتصابا، فلو لم يجد أصحاب الأملاك ربحا من وراء البيع لما باعوا منهم فترا ولا شبرا؛ ففى أرض تل أبيب أنفقوا ٥٠ ألف ليرة وما كانت تساوى ربع هذا الثمن. وها هم الآن يبتاعون الأرض فى ضواحى القدس لبناء مدينة لهم فمن ذا يستطيع منعهم؟

ثم زاد ذلك الوجيه على بيانه بقوله: لو كانوا هؤلاء اليهود وطنيين لما عَمَّروا دارا واحدة ولأخفوا أموالهم ولكنهم أجانب . .

فهمت مراده فسكت . .

ولاشك بأن اليهود يهتمون اهتماما عظيما بإحياء لغتهم؛ لأن أسماء الشوارع والمنازل والدور والمدارس والصيدليات بالعبرية وجميعهم يتكلم العبرية. ورأيت البنائين والنحاتين والنجارين . . إلخ إلخ يشتغلون مئات مئات ولم أرَ بينهم وطنيا سوى جمَّال يقود أربعة جمال تحمل طوبا كالطوب الأبيض الذى بنيت به مصر الجديدة. ولقد كثر صياح أهل فلسطين وعوالمهم حتى عادت الحكومة إلى قانون قديم يمنع اليهودى الغريب من أن يقيم فى فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر، ولكن هل بالإمكان السير على هذا القانون؟

سألت الحُوذىّ[1] الذى ركبت عربته إلى تل أبيب ما رأيك فى اليهود فأجاب فورا: «لو كانوا يختلطون بالنصارى والمسلمين منا لكان الأمر سهلا ولكنهم لا يعرفون أحدا منا ولا يعرفهم منا أحد».

كلمة كبيرة المعنى جليلة المغزى خرجت من فم ذلك الحوذى الساذج قذفتها الطبيعة بلا تصنع، فالناس إذا تعارفوا تحابوا، وإذا تمازجوا اتحدوا ولكن اليهود لا يريدون الامتزاج والاتحاد فهل يريدون أن يعيشوا فيما عَمّروا مستقلين فيغضب الوطنيون. ومسألة حشر اليهود فى فلسطين مسألة خطيرة إذا جاءت فى رسالتى هذه عفوا وعَرَضا فهى لم ترد عمدا.

زرنا بساتين يافا أو بياراتها ودخلنا فى دير الروس أو «المسكوبية»، وصعدنا إلى قبة ذلك الدير فى ٧٧ درجة فأشرفنا من أعلاها على يافا كلها، فلا أظن أن مناظر كثيرة تعرض لعين الرائى فتكون كذلك المنظر فخامة ورواء وجمالا.

الدير على تلٍ عالٍ وحوله الحدائق والبساتين الواسعة تنحدر أرضها انحدارا لينا حتىً تنبسط فى السهل جنوبا وشمالا وشرقا وغربا. ومن وسط الليمون الأزرق تنشأ رؤوس النخل وتبدو شجيرات الرمان والخوخ والبرقوق والتين... إلخ فكأن البرد قال صفحة زرقاء رقمت ترقيما وخطت خطوطا بالأشجار الأخرى. ورهبان الدير يقابلون كل زائر بالهشاشة واللطف. فمن زار يافا متنزها ولم يزر دير الروس «المسكوبية» ولم يصعد إلى قبته فيُلقى نظرة على يافا وحدائقها فقد فاته أن يرى أجمل ما فى فلسطين إن لم أقل أجمل ما فى سوريا. ومن رأى ذلك ولم يدخل الكنيسة فقد فاته أن يرى أجمل الصور مرصعة بالماس والياقوت واللؤلؤ والزمرد والجواهر محبكة خيوطا.

١ - سائق العربة.



وزرنا سارونه القرية الألمانية فى ضواحى يافا فإذا بنا نرى الآلات تشتغل بحرث الأرض وحصد الزرع ودرس الحنطة والعدس. . .إلخ فقلنا ونحن نتنفس الصعداء- أنا ورفاقى خورشيد بك ثاقب ومحمود بك محمد وسليم أفندى البستانى وعطية أفندى محمد. . .إلخ- كيف يستطيع الفلاح العثمانى أن يجارى هؤلاء الألمان أو يسابق أولئك اليهود وعدتهم العلم وهو غارق فى بحر الجهل فهم يحرثون ويحصدون بالآلات الحديثة وهو يحرث بالمحراث ورثه عن أبيه آدم ويحصد بيديه؟

هم يشتغلون نقابات تتساند وهو يشتغل منفردا، وهم يشتغلون وأيدى حكوماتهم ودولهم تسندهم وهو يخاف على محصوله القليل الضئيل من حكومته.

وللحكم الدستورى حسنة كبرى فى إلانة طباع البحرية، فالبوليس يرقبهم ولا يدعهم يُكرهون الركاب على ما لا يريدون ولكن ذلك لم يمنع أحد اللصوص منهم أن يسرق من سيدة صُوان[1] حليها من غرفتها فالإركان إلى البوليس فى أمرهم حسن، ولكن الأحسن الحذر منهم.

بيروت- داود بركات

١ - الصُّوان: ما يصان به أو فيه الكتب والملابس ونحوه الوسيط (صون).

من كل نبع قطرة
ومن كل شجرة ثمرة[1]
(٣)

من يافا إلى حيفا تبدو لعين المسافر قرى جنين وقد عمرها الألمان وبينها الطرقات تخترق الجبال.

ويظنها الرائى من على ظهر الباخرة قدَدا متمعجة [2]بيضاء على صفحة منبسطة سوداء: فإلى جنوبيها خراب ظاهر، وإلى شرقيها جبال جرداء. وقد عرفنا من حديث رفيقنا نوريسوزيك الفاصد أملاك آل سرسق التى استأجرتها الشركة الزراعية الصناعية- أن أجود الأراضى فى تلك البقعة فى يد الألمان، وأن ساحل البحر الخصب فى كل شواطئ سوريا ليس خصبا فى بعض شواطئ فلسطين.

أما حيفا فإنها فى تقدم عظيم، رست فيها باخرتنا فنزل إلى البر عدد كبير من المسافرين وصعد إلى الباخرة من حيفا عدد كبير أيضا، وقال الذين سألناهم من أهل حيفا: إن دولاب الأشغال فى حركة كبيرة، ولكنهم أخذوا يشكون من تزعزع أركان الأمن، وكانت شكواهم إلينا مُرّة جدا.

وقد اتصلت حيفا بعكا بفرع الخط الحجازى، وطلب أهالى بيروت أن يمد هذا الفرع إلى صور فصيدا فبيروت، فأجابت إدارة السكة الحجازية أن المال الآن قليل، وأن المهندسين يشتغلون الآن بتخطيط الفروع الأخرى، فمتى أتموا عملهم قد يجيبون طلب أهل بيروت. وقد صارت حيفا الآن ميناء من أكبر الموانئ السورية، فجميع البواخر ترسو فيها.

١ - الأهرام ، ١ أب/أغسطس ١٩١٤م.
٢ - قطعا متفرقة، (المحرر).



وقد بنت الراهبات الفرنساويات مدرسة كبيرة لم تتم حتى الآن.

وأُخبرنا بأن جمعيات أخرى أوروبية تشيد مدارس للتعليم فى هذه المدينة. وإنى لأعد هذا الخبر بشرى؛ لأن لمدارس الأجانب الفضل الأول فى تهذيب الناشئة السورية. وأخطأ من قال: إن هذه المدارس لا تخرج للسوريين ناشئة سورية بحتة؛ لأنّا لا نعرف متعلما واحدا لا يحب وطنه وعشيرته فوق كل شىء، ولكنا نعرف جميع الجاهلين لا يعرفون أن لهم وطنا ليحبوه. وهل يستوى الذين لا يعلمون والذين يعلمون؟ فقد قيل: «علموهم وكفى». وهذا القول حكمة، فلنتعلم ولنأخذ العلم عن أى إنسان كان، فإذا تعلمنا عرفنا قدر أنفسنا وعرفنا الخير فنعمله والشر فنجتنبه. أما تزاحم البحرية فى حيفا قد فاق تزاحمهم فى يافا وتنازعهم فى بيروت، بل هم فى بيروت الآن ألين عريكة منهم فى كل مكان حتى فى بورسعيد. والظاهر أن تهافت الأجانب على فلسطين كبير عظيم جدا؛ فالإسرائيليون والألمان والروس وغيرهم يبحثون عن أرض يستعمرونها فى فلسطين؛ لأن فلسطين واسعة وأهلها قليلو العدد، ومحصولها كما ظهر من الاختبار جيد. وموانيها قريبة، وأجور الفَعَلة زهيدة.

وكل دولة تؤيد الآن وجودها الاقتصادى على يد رعاياها والمحتمين بها؛ حتى أن قناصل روسيا شديدو الغيرة على اليهود من رعايا القيصر الذين يهجرون روسيا إلى فلسطين، والشاهد الأخير أن حكومة يافا منعت ٥٠ عائلة مهاجرة من كييف عن النزول إلى البر، فركب القنصل الروسى زورقه وأنزلهم من الباخرة وأخذهم تحت حملته. ولم يكن لنا متسع من الوقت لننزل إلى حيفا ونطوف أرجاءها، ولكن رفيقنا سعادة رمضان باشا نزل إلى البر لا ليرى حيفا بل ليرى محطة السكة الحديدية. وسعادته خبير بإدارة المحطات، وهو الذى كان يدير محطة القاهرة بكل مهارة وبراعة، فكأنما الحرفة تحدو بصاحبها إلى الوقوف عليها.

فالحلاق إذا مررت به نظر إلى شعر رأسك، والإسكافى إلى حذائك والصائغ إلى جواهرك، حتى الصحافى ينصت بأذنيه إلى رواياتك وأحاديثك وأخبارك. وقد كان سفرنا من حيفا إلى بيروت ليلا وعلى مَهَل والجو صحو والبحر رهو؛ لأن المسافة قصيرة. وحدثنا عزتلو السيد إسماعيل[1] بك الحسينى رفيقنا بأن الشركة الأمريكية التى ابتاعت منه امتياز منابع البترول فى فلسطين بوساطة عزتلو سليمان بك ناصيف قد باشرت الآن عملها، وأخذت بإنشاء الطريق من المنابع إلى الخط الحديدى وطولها ٧٠ كيلو مترا، ودفع من رأس المال نحو ١٠ آلاف ليرة. والرجل من أكبر الاقتصاديين الآن فى فلسطين، وله الصلات الوثيقة بكثير من الماليين. وعرفنا من أحد أعيان القدس- وقد غاب عنى اسمه- أن المسألة الخطيرة عندهم هى مسألة الأوقاف؛ ففى القدس ٣٥٠ مدرسة ذات أوقاف واسعة لا تعمر بها الآن مدرسة واحدة، فطلب أعيان القدس ريع تلك الأوقاف للمدارس فأحالتهم نظارة الأوقاف فى الأستانة على نظارة المالية، وتقرر مبدئيا تعمير مدرسة واحدة الآن، ولكن هذه المدرسة لم تفتح أبوابها حتى الساعة. وللفلسطينيين حديث طويل عريض فى تجنيد المعين أو عضد العائلة، ولكنهم يعتمدون على بيروت فى الطلب وفى بلوغ القصد أى فى تعديل القانون العسكرى الجديد. وهم يعترفون للبيروتيين بالتفوق عليهم بالحزم والعزم والسعى الحثيث، حتى أنّا سمعنا ونحن فى يافا وفى حيفا أن بيروت أقفلت كلها اعتراضا على هذا القانون. ولما وصلنا إلى بيروت عرفنا أن الآراء كانت متفقة على ذلك، ولكن والى بيروت استدعى ١٠ من المسلمين و١٠ من النصارى فأزال الجفاء من نفوسهم وأسكن هوجاءهم كما سَيَلِى.

بيروت – داود بركات

١- فى الأصل: (إسمعيل).



من كل نبع قطرة
ومن كل شجرة ثمرة[١]
(٤)

أشرفنا على بيروت عند انبثاق الفجر، وبدت لأعيننا المنارة والكلية الأميركية، فاستهوى الناس الكلام فى العلم وفى فضل العلماء وفضل الفرنساويين والأميركان بل الأوروبيين عامة على سوريا؛ لأنهم علموها وهذبوها وربّوها ورقوا شعوبها وطوائفها، حتى باتت الآن أرقى الأقاليم العثمانية بلا نزاع ولا جدال، مع أن أبناءها الذين يتعلمون لا يجدون فيها مُرتزَقا فيهجرها أكثرهم. كما يهجرها الفلاحون والشبان الأقوياء الذين هم دم الحياة فى الأمم، فكيف تعيش أمة ينزف كل يوم دم حياتها. فأبناء سوريا يهجرون سوريا لأنهم لا يجدون أمنيتهم وراحتهم ورزقهم. والأجانب يهجرون بلادهم إلى سوريا ليجدوا فيها ما يتمنون وليلقوا راحتهم ورزقهم وفيرا. ولقد قالت الأهرام كلمتها فى «المهاجرة من سوريا وإليها»، فلا أخطئ إذا أكدت أن أكثر السوريين يذكرون الآن تلك الكلمة ويرددونها؛ لأنها كلمة حق أريد بها الحق.

رست باخرتنا فى الميناء ساعة قيام الأسطول الإنكليزى منه وقوامه ثمانى سفن. وزيارة كل أسطول لمياه موانئ بيروت وسوريا تؤول تأويلا سياسيا. وكل تأويل سياسى يبنى على طمع الدول بنا، فلماذا بتنا نحسب أنفسنا طُعمَة لكل آكل وجَرْعَة سائغة لكل شارب؟ أترانا غنما لا نصلح إلا لأن تُصَرّ ضُروعنا ويُجَزّ صوفنا؟ ولماذا التشاؤم بأنفسنا وبمستقبلنا، فلا يخطر لنا أنا أحياء لا (يدانينا)[٢] الموت ولا ينذرنا الفناء.

١- الأهرام، ٢ آب/أغسطس ١٩١٤م.
٢- غير واضحة فى الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.

ولماذا لا نثق بأنفسنا أنّا شعب كغيرنا، حياتُه بيده لا بيد غيره. إن الشعوب من حولنا وأمامنا تنتزع الآمال لأنفسها من كل آتٍ ومقبل ومستقبل. ونحن لا نستخلص من كل مستقبل وكل منتظر وكلِّ آتٍ غير الفناء؟ قال لى أحد الرصفاء البيروتيين والباحثين السوريين: «إنى بعد أن زرت أوروبا صغُرت أنا فى عين نفسى، وصغرت بلادى فى عينى، وصغر شعبى حتى بتُّ أخال كل ما فى هذا الشرق شرّ: قِنّا[1] نَملا يجارى فيلة، وأرضا تطاول سماء، وموتا يفاخر حياة».

فقلت للرصيف: ذلك إذن فى شعبنا الخطوة الأولى إلى التقدم والحركة الضعيفة إلى النهوض؛ لأن الشعور دليل الحياة، والإحساس بالوهن والداء أول دليل الفناء. فالأمة المغرورة هى الأمة التى ترى كل شيء فيها حسنا، فتهمل أمرها ولا تصلح شأنها.

ولقد رأيت بَحْريّة بيروت ليِّنى العريكة، يعاملون الركاب معاملة حسنة، ولم أسمع شخصا واحدا يشكو. ولما وصلنا إلى البر طلبت منا إعانة الأسطول كما طلبت فى يافا وحيفا وهى بشيكلان، فدفعها كل واحد منا. وسألنا البوليس عن أسمائنا فقيدها واكتفى بذلك عن جواز السفر، ودخلنا قاعة الجمرك فطلب الموظف أن نقول له ما معنا، وقال إن دخول الدخان ممنوع إلا ما كان قليلا لحاجة كل إنسان.

فسررنا جدا بهذه المعاملة ونقلتُ إلى والى بيروت مسرة الركاب منها، فأكد لى أنه ساهر على راحة المصطافين المصريين كل السهر، وأنه يصدر الأوامر تباعا لحاقا حتى لا يشكو راكب ولا يتذمر مسافر ولا يتعب مصطاف. وهذه مأثرة لوالى بيروت أذكرها بملء الارتياح، وأثنى عليه من أجلها، ويثنى عليه معى كل سورى وكل مصرى. ولا شك بأن الوالى رأى بأمٍّ عينه نتيجة حسن المعاملة للمصطافين؛ فإنهم وفدوا فى هذا العام ألوفا

١ - القِنّ هو العبد الذى كان أبوه مملوكا لمواليه. الوسيط، (قنن).



حتى امتلأت بيروت بهم (...) [1]جُل لبنان، وبلغ عدد الذين وفدوا من القاهرة وحدها ٤٥٠٠ مصطاف.

وعند وصولنا من الميناء رأينا الباخرة الفرنساوية القادمة من الأستانة تتقدمنا وعلى ساريها العلم العثماني، فسألنا عن الراكب الذى رفع له ذلك العلم، فقيل لنا إنه الضابط الفرنساوى بوفه (Bouvais) المفتش فى الجندرمة[2] العثمانية، وصل من الأستانة ليتولى تعليم الجندرمة اللبنانية إنفاذا للقرار الذى صدر بالاتفاق بين الدول والباب العالى عند تعيين متصرف جبل لبنان.

وقد قابلت أحد كبار موظفى الإدارة فى جبل لبنان وحدثته عن الجندرمة فأثنى على سعيد بك البستانى قائدها؛ فإنه أصلح كثيرا من شئونها. ولكن العطار لا يصلح ما أفسد الدهر؛ فهى مؤلفة من الشيوخ العاجزين، وهى قليلة العدد، فمن المستحيل أن تقوم بمهمتها.

وإذا زيد هذا العدد غدا لا يعرفون من أين يأتون بالمال إلا إذا قام الباب العالى بوعده وأتم نقص ميزانية لبنان الذى قدر للعام المقبل بمبلغ ٣٢ ألف ليرة. ولما نزلنا إلى البر سألنا بعض الأصحاب عن الأخبار والأحوال فقالوا لنا إن بيروت فى جزع واضطراب من أجل تجنيد المعين، وقد فر نحو ٧٠٠ شاب، وأن الأهالى اختاروا ٢٠ شخصا ليقابلوا الوالى وكان فى عزمهم أن يقفلوا المدينة احتجاجا على هذا القانون ولكن الوالى« لفها » ووعدهم برفع تقرير بهذا الشأن.

وأرسل أهالى بيروت تلغرافات شديدة اللهجة قالوا فيها إنهم يرفضون قبول هذا القانون رفضا باتا، وأرسلوا تلغرافا إلى نوابهم يقولون هم فيه استعفوا لأنكم لم تقوموا بالمهمة الموكولة إليكم.

١- كلمة غير واضحة فى الأصل.
٢- كلمة تركية تعنى الشرطة. (المحرر).

وفى يوم وصولنا كانت الجندرمة اللبنانية قد أصابت السفاح المشهور المسمى خليل مقبل برصاصة فنقلته إلى بيروت فتوفى فى السراى. فأخذ بعضهم يبصق على جثته، والبعض يضرب تلك الجثة.

ووضع البوليس الجثة على عربة القمامة وأرسلها إلى المقبرة ومنع القسيس من قرع الجرس كعادة النصارى، فانتقد الناس ذلك نقدا مرا جدا رغم ارتياحهم إلى الخلاص من هذا الشقى السفاح. ثم حدثونا عن دعوة الوالى ٢٠ وجيها من أهل بيروت للتباحث بأمر البلدية وإصلاح المدينة، فقال لهم الوالى: إن إصلاح المدينة يتطلب نصف مليون ليرة، وإن دَخْل المدينة يمكن أن يصل إلى ٤٠ ألف ليرة، فوكلوا إليه أن يختار لجنة لدرس المشروع، واقترح أحدهم أن يعين القائد المشهور عبوق باشا المقيم الآن فى بيروت رئيسا للبلدية وبعد ١٥ يوما يستأنفون الاجتماع للغرض ذاته. وهذه الرسالة أضيق من أن تسع تفصيلا وبيانا عن سوء حالة بيروت وعن حاجتها إلى الإصلاح.

بيروت- داود بركات



نعمة السلم على مصر[1]

الحرب شر عظيم، ولكنها شر لا مندوحة للإنسانية عنه ما دامت على نظامها، وما دام الناس على ما يسمونه «تنازع البقاء».

وقد خبرت مصر الحرب وذاقت مرارتها، وعرفت بلاياها، وحفظ التاريخ لها منها فى صدره العظة والعبر. فالحروب الداخلية وحرب الحجاز، واليمن، وحروب السودان، والمَوَرة، وحرب الحبشة كانت أقلها وحروب سوريا والأناضول والثورة العرابية كانت أشدها. حتى قال التاريخ والمؤرخون إن مصر فقدت من بنيها فى غزوة سوريا والأناضول ١٥٠ ألفا، ولم يعد إلى مصر من جيوش مصر الجرارة سوى ٢٠ ألفا. وحل بالناس العسر والضيق حتى ماتوا جوعا. وعريت أجسادهم حتى أنهم لم يجدوا ملبسا. وقد كان يبرر بعض تلك الحروب رغبة مصر فى أن تكون حرة وفى أن تكون حرة ومستقلة، أو فى أن تكون دولة مترامية الأطراف تضم بين أجنحتها إفريقيا وآسيا.

أما الحرب العرابية فلم يكن لها فى نظر التاريخ والمؤرخين والباحثين والناقدين مبرر، فعدت جنونا وهوسا وطيشا تملك قلوب فئة من الطامعين، وانغرس فى صدور طائفة من الجاهلين. فأشعل نارها الطمع ونفخ فى تلك النار الجهل، فأفضت إلى ما أفضت مما لم ينس شره الآباء، ووقع عبئه وحِمْله على الأبناء. وصارت حالة مصر بل خيرها ونعيمها وثروتها ونموها وتقدمها واستقلالها ذاته لا يتطلب إلا العيش تحت ظل السلام والتمسك بأهداب الأمن وتوطيد أسبابه؛ لأن السلم هو حياة مصر، والأمن قِوام وجودها، فإذا عاشت كل أمة بنفسها فإن مصر تعيش بسواها، وحياتها الاقتصادية- ولا حياة بلا مال- وقف على غيرها.

١ـ الأهرام، ٢٢ آب/ أغسطس ١٩١٤م.

فقد نشبت الحرب فى أوروبا فأحست مصر بالعسر والضيق الشديدين، وبارت متاجرها ومحصولها وصنائعها، وأقفلت بنوكتها، وقل غذاؤها، وخافت أن يفسد فحمها. فهى فى حرب اقتصادية وإن لم تَخُض غمرات الحرب، وهى تشاطر أوروبا المتحاربة ويلات القتال وإن لم تشترك بالقتال، لأنها لا تعيش من محصولها إلا إذا ابتاعت أوروبا ذلك المحصول، ولا تجد فى أرضها حاجتها بل هى تستورد كل شىء من أوروبا.

وإذا نحن لم نخف على مصر من هذه الحرب والاشتراك فيها، فإن هناك أمرا غير الحرب قد يضر بمصر ولا ينفعها. ومن الجهل وأشد مضار الجهل أن يعمل الفرد أو الجماعة عملا كله ضرر بلا نفع. وكله شر بلا فائدة، وذلك الأمر أن نميل بالعمل واللسان والقلم إلى فئة دون أخرى، وأن نجرد ألسنتنا وأقلامنا لغير تسجيل الحوادث تسجيل مؤرخ يسطر التاريخ كما هو فقط.

فنحن نعيش ونرتع فى نعمة السلم والأمن، وقد جاء فى زبور داود: «من كان فى نعمة ولم يعرفها كان كالبهيم أو هو يشبهه»، فهل يجوز أن يخطر لواحد منا أن يخرج ولو بالكلام عن مراتع النعمة إلى جحيم النقمة؟

***

إن الأمم لا تُحسب عليها أعمالها فقط، بل تعد وتحصى وتحسب عليها أقوالها أيضا، وبتلك الأقوال تعامل؛ لأن أوروبا تحكم على الأمم بآرائها وتعاملها بتلك الآراء، فكلمة فى الشارع وأخرى فى إحدى الصحف وغيرها فى مجالس الأنس والطرب تجمع فى أضابير السياسيين ويعد تآلفها عندهم رأيا عاما للأمة، وجمعها وضم بعضها إلى بعض صورة لهذه الأمة، فلهذا تهتم الحكومات فى الأزمات أن تنظم الآراء والأقوال والعبارات فى صحفها وصحافتها تنظيما تاما، حتى لا تقال كلمة شاذة وحتى لا تنشر عبارة طائشة وحتى لا ينشر رأى لا يتفق مع مصلحة الجمهور.



فإذا نحن لم نصل إلى هذه الدرجة من النظام والتنظيم فى صحافتنا وفى رأينا العام لتفكك روابطنا ولضياع الوحدة التى تجمعنا، فآمالنا فى حكمة الكُتّاب ورزانة قادة الرأى العام مما يبلغنا هذا القصد ويوصلنا إلى هذا الغرض، وهو الوقوف على الحياد التام بآرائنا وأقوالنا وأميالنا، والمحافظة على السلم: سلم اللسان والقلم والقول والفعل حتى تسلم مصالحنا السياسية القومية والاقتصادية، وحتى لا يعد علينا القول يرمى على عواهنه كخطة نخططها أو كمنهج ننهجه أو كفكر أُجيلَ فى الصدر لا نميل عنه ولا نخرج عن دائرته، فإن لم يعد علينا القول اليوم عد علينا فى الغد. ولقد يكون أمرنا فى الغد مخالفا لأمرنا اليوم، ومصلحتنا فى المستقبل غير مصلحتنا فى الحاضر، وأفضل مصلحة لنا الآن أن يقف الرأى العام على الحياد، وأن تظل خاصتنا وعامتنا فى ظل السكون التام والسلام الكامل والأمن الشامل.

ومتى حان وقت الكلام وتطلبت مصلحة مصر ذلك، لا تعدَم أقلامُنا وسيلة ولا ألسنتُنا طريقة نبلغ معها القصد وننال المراد.

داود بركات

اكتشاف الدكتور بحري[1]

نموذج من حياتنا العلمية والأدبية
خطاب للأطباء يسمعه سواهم

أعلن الدكتور بحرى الكيماوى الشهير أنه وُفق إلى اكتشاف دواء يشفى الإسهال والدوسنطاريا، وزعم أنه جرب هذا الدواء واختبره بالمرضى فأسفر اختباره واختبار بعض الأطباء حريفيه[2] عن النجاح التام.

ورأى المجمع العلمى المصرى أن يفتح سَنتَه العلمية بخطاب فى هذا الاكتشاف. فدعا الدكتور بحرى أكثر أطباء القاهرة دعوة خاصة. وأعلن فى الصحف موضوع الخطاب وموعد لقائه. فظن الناس أن قاعة المجمع العلمى ستغصّ بالأطباء، فلا يجد سواهم مقعدا للجلوس أو مكانا خاليا للوقوف، وودوا لو أن الدكتور بحرى دعا إلى هذا الاجتماع فى قاعة أكبر من قاعة المجمع العلمى. فماذا كان بعد ذلك، ومَن الذين لبوا الدعوة؟ لبى الدعوة كثيرون من الأدباء والعظماء. ولم يلبها ولم يجبها سوى العدد القليل «جدا» من الأطباء (...) عن اكتشافه (...) وتمنيهم بأن يكون ٥٠ ألف (...) مصر يموتون فى كل صيف (...) المستعصى العُضال.

ووقفت وراء الجمع الحاشد فى تلك القاعة متسائلا لمَ لم يحضره الأطباء، ولمَ لم يلبوا الدعوة؟ وأى شاغل فى (...)[3] يجوز أن يشغل طبيبا عن اكتشاف دواء يقول مكتشفه أنه يشفى من داء يستأصل عشرات الألوف من أبناء الأمة فى كل حين؟! ولا يَعرف أحد طبيبا فى مصر لا يُدعى لمعالجة عشرات ومئات من الذين يصابون بهذا الداء.

فإذا كان الطبيب المكتشف مخطئا فيما يقول ويزعم، كان على الأطباء

١ ـ الأهرام، ٨ تشرين ثان/نوفمبر ١٩١٦م.
٢ ـ زملائه. الرائد، (حرف).
٣ ـ يوجد تمزق فى الأصل لذا، سقطت بعض الكلمات.



أن يسمعوا قوله وادعاءه وأن يردوه إلى الصواب. وإن كان موفَّقا فى اكتشافه، كان للأطباء وحدهم أن يعينوه ويساعدوه فى ابتداعه. وإذا كان قد وفِّق إلى معرفة قاعدة فى العلاج يجوز الأخذ بها ولكن الدواء لا يزال ناقصا، كان للأطباء وحدهم الأخذ بتلك القاعدة وإتمام النقص فى العلاج.

وأما القعود والجمود فليسا من مزايا الناهضين، وأما السكوت والسكون فليسا من سجايا العاملين. والرجل الناهض يرصد كل جديد ويتخطف كل حديث عله يجد فيه نفعا يرجى أو فائدة تُؤمَل. والرجل العامل لا يتمنى إلا مجالا واسعا لعمله وفتحا مهيعا[1] لهمته وعلمه ونشاطه.

وإنى لمورد هنا حديثا دار فى القاعة ذاتها حين إلقاء الخطاب عن الاكتشاف بين أديبين سأل أحدهما الآخر عن طبيب صديق، فقال: تركته بالقهوة يلعب «برتيته» مع فلان، وسنعود إليه معا قبل أن تنتهى «البرتيتة». فقلت: يا سبحان الله!!! أيفضل الطبيب لعب النرد على معرفته؟! إنها إذا لحِرفة ارتزاق لا حرفة نفع وإفادة. ومتى وصل إهمالها إلى هذا الحد صارت ادعاء أكثر منها علما؛ لأن العلم الصحيح يقضى على العالم بطلب المزيد. ومن أخذ بما تعلم ولم يزد علمَه أضاع النسيان ما خزن فى ذاكرته من العلم، بل جمد فى مكانه بينما العلم يتقدم ويرقى كل يوم بالاكتشاف والاختراع والإبداع. فمن لم يساير علمه فى تقدمه فقد تأخر وتقدمه سواه. فإذا كان الطب للارتزاق فقط. فإن القعود عن الاستزادة منه مفضٍ أيضا إلى انقطاع الرزق عن السبب الذى لا يزيد علمه.

***

أقول هذا ولا يتناول القلم اكتشاف الدكتور بحرى وهو فوق ما أعلم من أمره، ولا أود مدح ذلك الاكتشاف أو ذمه؛ لأن للأطباء المختصين وحدهم أن يذموا أو يمدحوا.

١ - مُبينا. الوسيط (هيع).

ولكن دعوة الدكتور بحرى هى ذريعة لقلم صحفى ليصوّر الهيئة الاجتماعية بنقائصها وصورتنا العلمية الأدبية بمشوهاتها، ومن جَهل النقص فى نفسه تملكه النقص فحال دون الكمال. ومن غفل عن الشَّوْهة فى جمال أضاع الجمال بالشوهات. فكم من مرة هَمّ أطباؤنا بتأليف النقابات الطبية فلم يفلحوا، وكم من مرة دُعوا إلى تأليف جمعية (...)[1] فى عالم الصحافة، فأعرض عنها الأطباء قبل سائر الناس فماتت جنينا، وكم من مبحث طبى مصرى يشغل أطباء العالم كله إلا أطباء مصر!

وإذا كان أطباء مصر لا يحملون راية العلم وهم العلماء ولا يتقدمون سواهم وهم المعلمون، فبمن تُناط هذه المهمة، وممن ننتظر تعليم العامة وتذكية عقول الخاصة والعناية بالصحة والبحث وراء المفيد والحث على تجنب المضر؟

إن لفظة «دكتور» التى أخذناها عن الإفرنج عرَّفها صاحب قاموسهم بقوله: «إن الدكتوراه أعلى لقب تطلقه المدارس العالية على علمائها، وهذا اللقب يخوِّل صاحبه أسمى الحقوق وأعلى الامتيازات وأوسعها، ولا يطلق هذا اللقب الجليل إلا على العلماء فى العلوم والآداب واللاهوت والطب والقوانين».

فإذا كان هذا اللقب الذى تزدان به أسماء أطبائنا هو أسمى الألقاب وأرقاها وقد نالوه بجدارة بالعلم ولم ينالوه هبة ولا إنعاما، حق لنا أن نخاطبهم باسم العلم ليخدموه ويخدموا به الأمة: وحق لنا أن نناديهم باسم هذا العلم ليتموا فى الأمة نوره. ويرسلوا فى ظلام جوها الحالك ضوءه، فلا يكون ذلك العلم وما تعلموا وسيلة للكسب وذريعة للرزق. بل يكون لما هو أرقى وأسمى ولما هو أجل وأكبر، أى خدمة الإنسانية.

١ - سطر مطموس فى الأصل.



وإن لهم فى تلك الطائفة التى تقدمتهم- أى فى أبكار[1] الطب فى هذا القُطْر- خير نموذج ومثال. فقد عملوا عملا صالحا وترك كل واحد منهم أثرا خالد، ووفوا الخدمة حقها على ضيق السبل وغَيض المعين، وبُعْد الشُّقة وكثرة المشقة، والعلم يومئذ فى سن الطفولة لم يترعرع ومناهله بعيدة الغَوْر جَمّة الحوائل.

أما اليوم، فالمنهل شَرْع والمورد عذب، والطريق رَحْب ممهد، والمجال واسع، والنفوس متطلعة إلى كل جديد مفيد، فمن عمل صالحا يلق عونا، ومن أتى حسنة لقى أضعاف مثلها، فعلى أطبائنا الكرام وعلمائنا الأعلام أن ينفضوا عنهم غبار الجمود والإهمال، وأن يُروا الأمة ما تنتظر الأمة منهم وهى تنشدهم «أنتم الناس أيها العلماء».

داود بركات

١ - أوائل، والبكر أول كل شيء. المعاني الجامع، (بكر).

أعراس الحرية فى بتروغراد ومآتم الاستبداد فى برلين[1]

قامت اليوم أعراس الحرية فى بتروغراد عاصمة الروس وطلع فيها غرس الإصلاح الذى لا ينبت فى أرض لا تروى بالدم كما قال جان جاك روسو.

وقامت اليوم مآتم الاستبداد والأثرة والأنانية فى برلين، وأدرك الإمبراطور غليوم أن سَجْنَ الاشتراكى ليبنخت وعَدَّه خائنا وطنه لأنه نعى عليه الأنانية ونعى عليه الأثرة ونعى عليه الاستبداد بالأمة وسوق شبانها إلى الفناء - لا ينقذ عرشه من هزة بيد الشعب ستزلزل قوائمه وترفع سلطة الشعب فوق كل سلطة وتلقى سلطة الأفراد تحت كل سلطة؛ فقد كان القيصر نقولا يقدس حتى العبادة فلم يَحُل تقديسه دون خلعه.

وقد كان هذا القيصر حسن المقاصد طيب العنصر فلم يقوَ حسن مقاصده وطيب عنصره على سوء البطانة، وشر حكم الفرد، وسيئات نظام الاستبداد. فهوى من على عرشه كالذين تقدموه من الملوك والسلاطين والقياصرة والوزراء والأمراء والأسياد.

يطارد بوليس بتروغراد اليوم الوُشاة والجواسيس وبطانة السوء التى اتخذت اسم القيصر فزاعة تخلع بها القلوب، وذلك الاسم شَرَكا[2] تصطاد به الغنم، وذلك الاسم سلاحا تقطع به ما اتصل وتصل ما انقطع، وتضحىِّ فى سبيل مصلحتها (بكل)[3] مُرتَخص وغالٍ. فها هى أمام محكمة الشعب صاحب الجبروت والسلطان تؤدىً حسابًا وتجنى عن الإساءة عقابا وأن الظلم مرتعه وخيم.

لقد كانوا يُنزلون البلاد منزلة المزرعة والناس منزلة العبيد، يسخِّرونهم

١- الأهرام، ١٧ آذار/مارس ١٩١٧م.

٢-فى الأصل (شراكا)، والصواب ما ذكرناه.

٣- فى الأصل (كل)، والصواب ما ذكرناه.



فيما يريدون ولا يسمحون لهم بأنَّة من وَصَب، أو لَهْثة من تعب. فعرفوا الآن أن الناس ولدوا أحرارا فمن الكيد والظلم والجور والباطل أن يُستعبَدوا « دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة ».

تزوِّق بطانات السوء إلى مواليها الباطل وتُلبس الظلم ثوب العدالة والرثاء لباس الصدق والإخلاص والغيرة. فإذا ما هزت عروشهم هزة عنيفة ولت وجوهها عنهم مدبرة؛ لأنها أرادتهم على خير أنفسها لخدمة أنفسها فإذا تطلب بقاء العروش ودعمها أن يضحوا قطرة من دمهم ودرهما من مالهم ضنوا بقطرة الدم ودرهم المال وقالوا:

تعس الذى اتخذ الجرأة خُلَّة وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا[١]

أما الذين تشرَّبت نفوسهم حب الإنسانية وخلاصها من ربقتها وإنقاذها من محنتها. فأولئك قوم لا يبخلون بنفوسهم تَسيل على شِفار السيوف، وقلوبهم تُمزق برصاص البنادق، وأشلائهم تقطَّع بقنابل المدافع إذا طابت قربانا على هيكل الإصلاح أو ضحية فى سبيل الحرية.

تجعل بطانات السوء كلمة « الإخلاص » للموالى أم الفضائل وكل الفضائل، وترمى أفضل الفضلاء والأفاضل بالكفر والزندقة إن لم يتحلوا بها على ما هى تشتهى أن تكون، لا على ما يجب أن تكون. فإذا لج الأمر وتحرَّج الموقف خرجوا منها خروج الشعرة من العجين جرداء ملساء، ويكادون يبرأون إلى الله من أدرانها وظهر المصلحون بنور فضائلهم، والعاقبة للمصلحين.

فإذا لم يكن الآن نصر فى ساحات القتال للحلفاء على أعدائهم فى سبيل إنقاذ الشعوب فإن لبتروغراد اليوم نصرا باهرا زاهيا تبهر به عين الجالس على عرش برلين، ثم يتحول ذلك النور المتلألئ الساطع فى بهائه تحول البرق اللامع إلى رعد قاصف يهدد بالصواعق الصاعقة.

١ـ البيت للمتنبى، وهوفى ديوانه بلفظ:
تَلَفَ الذي اتَّخَذَ الجراءَةَ خُلَّةً   وعَظَ الذي اتَّخَذَ الفِرارَ خليلا

فلقد ينام اليوم القيصر نقولا الثانى مرتاحا فى أحد قصوره ولكن الإمبراطور غليوم يجفو جفنَه الكرى، ويخلص إليه من سجن ليبنخت المكبل بالقيود بل من تلك القيود ذاتها نذير يزعق به فيجعل فراشه الوثير شوكا بالقلب وحرابا بالضمير.

فأهلا بالحرية للإنسانية نابتة من مصارع فتيانها ومراق دمائهم. وأهلا بالاشتراكية القائمة على العدالة والحرية والإخاء والمساواة.

وأهلا بسيادتها فى إنكلترا بزعيمها لويد جورج وهندرسون، وفى فرنسا ببريان وتوما، وفى إيطاليا ببيسوليتى، وفى روسيا بأقطاب الثورة.

بل أهلا بها مجاهدة مكافحة فى سبيل إنقاذ الإنسانية كلها تطلق اليوم لسان هوفمان فى ألمانيا لينذر الإمبراطور، وتخلع قلب ذلك الإمبراطور الذى كان أكبر أعدائها فيشير على مستشاره بأن يتلافى الضربة التى دب فى قلبه دبيبها بوعد الشعب بأن يلقى إليه أزِمَّة[1] الحكم- راجع تلغرافات روتر- وما شَهَر الإمبراطور غليوم الحرب على الأمم إلا ليُحَوِّل بها عنه تيار الاشتراكية (المتقدم)[2] نحو عرشه، فكانت الحرب نصرا لها على الاستبداد بل انتصارا عليه وكفى بذلك للإنسانية غنما وربحا.

داود بركات

١- جمع زمام، أى مقاليد الحكم. الغنى، (زمم).
٢- فى الأصل (المتقاعد)، وما ذكرنا هو الأنسب للمعنى.



حديث مع سعد باشا زغلول
رئيس الوفد المصرى[1]

منهج سعد باشا

إذا كان زعيم من زعماء الأمم قد اشتهر بمصارحته أمته والعالم بما يجول فى خاطره وبما ينهج من المناهج لبلوغ غرضه، وبما يرى بين حين وحين من إعلان تطور الأحوال والظروف تطورا يدعو إلى تطور الخطط وطرق السير، فإن سعد باشا زعيم هذه الأمة لأشهر مَن توخّى هذه المصارحة، فلا يكلف الخطباء فى المحافل ولا الأفراد فى المجالس عناء التلميح والإيماء، ولا هو يكلف نفسه الإلماع والإشارة، بل يسير إلى غرضه مباشرة سير المقدام الذى لا يتردد بين أربع طرق- كما يقول الإفرنج فى أمثالهم- ويُفصح عما يجول فى صدره، ويقرن شرح كل حادثة بما تحتاج إليه من حُجة وبرهان إما للإثبات وإما للدحض، وإذا ما سألته فى أمر فلا يكلفك العناء فى السؤال الطويل، فكأنه يستشف ما فى ضميرك من فاتحة الحديث، فيجيبك عما تريد، وإذا أجاب أجاب بكلام وافٍ وبيان شافٍ.

هذا هو منهج معالى رئيس الوفد سعد باشا فى أحاديثه وخطبه وأقواله، وهذه سجيته حملتنى على أن أقصده لسؤاله «باسم الأهرام» عما هو الآن حديث الأمة كلها فى نهارها وليلها: أعنى به مفاوضة الوفد والحكومة وشروط الوفد ليدخل فى المفاوضة الرسمية.

كلام مرسل

فتفضل معاليه علىَّ بالمقابلة، والزوار فى منزله يزدحمون، وهم بين جالس يحادثه وآخر ينتظره.

١- الأهرام، ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٢١م.

فاختلس من وقته الثمين خلسة لمحادثتى قدرتها قدرَها، وقرنت تحيتى لمعاليه بالشكر، فتفضل بكلمة التنشيط أردفها بمسرته وارتياحه إلى مصارحة كل إنسان فيما ينويه، وأثنى على الأهرام التى يعرف معاليه خدماتها الكبيرة للقضية المصرية؛ تلك القضية المقدسة التى هجر الوفد فى سبيلها الديار، وعمل وجاهد وكافح على ما هو معروف مشهور إلى أن انتهى الأمر بالخطة التى قررها الوفد بعد مقابلة اللورد ملنر الأخيرة، وهو أن يمتنع عن كل مفاوضة رسمية تكون قواعدها ما جاء بمذكرة اللورد ملنر إذا لم تعدل تلك القواعد بالتحفظات، وإذا كانت التحفظات للأمة فإن الخطة للوفد.

والخطة التى قررها الوفد هى أنه لا يدخل فى المفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله، وهو متمسك بهذه الخطة إلى الآن، ولا يريد أن يغيّر منها شيئا، ولكن الذى تغير هو شرط المفاوضة، فقد أصبحت المفاوضة لا على أساس مشروع ملنر حتى تطلب تعديله بل على غير أساس أصلا. ولقد صرح الوفد للورد ملنر فى ٢٥ أكتوبر الماضى بأنه مستعد لأن يتفاوض على غير أساس؛ لأنه حينئذ لا يكون مرتبطا بشىء، أما على أساس المشروع فلا يمكنه قبول المفاوضة قبل التعديل بتلك التحفظات.

إن الدعوة الصادرة من الحكومة الإنجليزية صريحة فى أن الغرض منها تبادل الرأى فى مشروع ملنر. ولا يخفى أن تبادل الرأى فى أمر ليس عبارة عن قبول ذلك الأمر كأساس للمفاوضة، بل هو عبارة عن تعيين ما نتبادل الآراء فيه، مع كون تلك الآراء حرة فيما يختص بهذا الموضوع قبولا أو رفضا أو تعديلا، أما المفاوضة على أساس ما فهى تقتضى الارتباط بهذا الأساس، أى اعتبار الطرفين قابلين له بحيث لا يَسُوغ لأحد ما أثناء المفاوضة أن يمسه بحذف أو تبديل، بل يكون مسلّما به من الطرفين، والحكومة المصرية



تكون فى حِل أيضا من قبول هذه المقترحات أو رفضها.

وبناء على ما تقدم لا يعتبر الدخول فى المفاوضة الرسمية قبولا بهذه المقترحات، ولا مانع يمنع المفاوض المصرى أن يتمسك بتعديلها بالتحفظات وبغيرها من التعديلات التى يراها.

نحن نحب استشارة الأمة والأخذ بآرائها الصائبة، ولكن هل يمكن استشارة الأمة فيما يختص بالوسائل والإجراءات، إن هذا يشبه أن يكون مستحيلا؛ إذ لا يمكن إن يؤخذ رأى أمة بتمامها [في][1] كل خطوة من خطوات السعى المكلف الوفد بها ولا يمكن الاكتفاء بأخذ آراء البعض دون البعض الآخر؛ لأن الكل فى الوطنية سواء، لا فرق بين حاضر وبادٍ ولا بين قارئ وأمى، ولا بين فلاح وتاجر وصانع وموظف وصحفى وكاتب؛ إذ الكل فى الحقوق سواء. وبناء عليه لا سبيل إلى استشارة الأمة فى الوسائل، بل العقل والحكمة يقضيان بأن يكون الأمر فى هذا موكولا لمن وثقت الأمة بهم وانتخبتهم نوابا عنها، وهم يتمونه تحت مسئوليتهم وهى تحكم على نتائج أعمالهم بما تراه.

شروط الوفد على الوزارة

بعد هذا الكلام المرسل رأيت أن معاليه لامس الموضوع الهام الذى قصدته لأجله، فقلت:

س- وهل اتفق الوفد مع الوزارة؟

قال: لم يتم حتى الآن أى اتفاق بين الوفد والوزارة.

قلت: وهل يمكننى أن أعرف شيئا عن الشروط التى اشترطتموها؟

قال: أنا لا أرى الآن بأسا من التكلم على تلك الشروط. لقد اشترطنا أن تعيَّن مهمة المفوضين الرسميين وتحدد بمرسوم سلطانى تحديدا يتفق مع مطلب الأمة ومبادئ الوفد.

١- إضافة من المحرر ليستقيم السياق.

أما هذه المهمة مهمة المفوضين فيجب أن تكون:

أولا- الوصول إلى إلغاء الحماية إلغاء تاما صريحا، أى إلغاء الحماية التى وضعت على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ والتى وردت فى معاهدة فرساى ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها.

ثانيا- الاعتراف باستقلال مصر استقلالا دوليا عاما سواء كان فى الداخل أو الخارج مع مراعاة إرادة الأمة التى أيدتها بالتحفظات المدخلة على مشروع اللورد ملنر عندما عُرض عليها قبل الدخول فى المفاوضات.

ثالثا- إلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحافية قبل الدخول فى المفاوضات.

رابعا- أن تكون غالبية المفوَّضين الرسميين للوفد، وأن تكون رئاسة الهيئة المفاوضة من الوفد.

هذه هى الشروط التى قرر الوفد اشتراطها للاشتراك فى المفاوضات، وقد بلِّغت للوزارة.

س- هل قرر شىء بشأنها حتى الآن؟

ج- للآن لم يتقرر شىء فيها جميعا، والقول أن الوزارة قبلتها ما عدا الشرط الأخير لهو قول فى غير محله؛ لأنا لم نتفق مع الوزارة على شىء منها.

أهمية رئاسة الوفد المفاوض

س: وهل يرى الوفد أهمية كبرى لرئاسة المفاوضين؟

ج: نعم، لأن الوفد هو المسئول أمام الأمة عن المفاوضات ونتيجتها، فيجب حتما أن يكون بيده إدارتها حتى يتصرف فيها بإبداء كل ما يراه صالحا ويوصلها ويقطَعْها على حسب الأحوال، ولا يمكنه أن يتمكن من



ذلك إذا كانت الرئاسة بيد غيره.

قلنا: ولكن هذا ليس منطبقا على التقاليد المرعية.

قال: أى التقاليد تريدون؟

إن لكل بلد تقاليده الخاصة به، ولم يقع لمصر حادث كالحادث الذى نحن فى صدده حتى تكون لنا فيه تقاليد سابقة يُرجع إليها ويقال بالتمسك بها.

إن حادثتنا نادرة فى بابها، ولصاحب السلطان أن يَجرى فيها طبقا لما تقتضيه المصلحة، وما دامت سلطة المفَوضين تُمنح من السلطان والأمة، فما هو المانع الذى يمنع عظمة السلطان من أن يعهد بهذه الرئاسة لمن كَمُلت ثقة الأمة به.

فإذا منحها عظمة السلطان للوفد، فمن ذا الذى يتضرر من ذلك وينتقده؟

أهم الإنكليز؟ وليس لهم فى ذلك من شأن كما صرحوا.

أهى الأمة المصرية، وهى تود بل تحتم أن تكون الرئاسة فى الوفد نائبها ومحل ثقتها؟ فمن يكون له بعد ذلك الحق فى الشكوى؟

ضرر وفائدة الدخول بالمفاوضة

س- هل الدخول فى المفاوضة والقضية على ما هى الآن لا يكون مُضرا بمصر؟

ج- إنى لا أرى منه ضررا، ولا أخشى الضرر إلا من جهة واحدة، وهى حدوث انشقاق فى الوفد الذى يعيَّن للمفاوضة، ونحن نأمن هذا الانشقاق بأن يكون المفوّضون من مبدأ واحد ومن الذين يرمون إلى غاية واحدة، هى غاية الأمة.

إذا توافر ذلك لا يكون من وراء المفاوضة أدنى ضرر؛ لأن المفاوضة بعد تحديد غايتها بالأمر السلطانى إن لم تفد فلا تضر.

إننى لم أسعَ ولن أسعى فى أن أكون مفاوضا، ولكن الحكومة رأت ضرورة اشتراك الوفد فى المفاوضات، فرأى أنه لا يمكنه قبول الاشتراك بدون تلك الشروط.

كما أنى لا أستطيع أن أؤيد أى مصرى يدخل فى هذه المفاوضة إذا لم تحدد مهمته بالمرسوم السلطانى على الوجه الذى تقدم حتى أكون واثقا بأن الغاية التى يسعى إليها هى غاية الأمة، وأنا أقول فوق كل ما تقدم: إن الوقت قد حان لتعلن الوزارة رأيها إما بقبول هذه الشروط وإما بردها؛ لأن الأمة قلقة والوفد أيضا قلق.

فى حالة عدم اشتراك الوفد

س- إذا لم تقبل هذه الشروط، ماذا يكون موقف الوفد؟

ج- يكون موقف الوفد إن لم تقبل شروطه المحافظة على حقوق الأمة وإرشادها إلى ما فيه مصلحتها.

س- وإذا انفردت الوزارة بتولى المفاوضات، ماذا يكون مسلك الوفد معها؟

ج- إذا فاوضت الوزارة على غير شريطة الوفد، أى بغير مرسوم سلطانى تتميز فيه هويتها (...)[1] لا يؤيدها، بل لا يمكنه تأييدها أيضا إذا عين للمفاوضة من لا يكون حائزا لثقة الأمة حيازة تامة.

***

إلى هنا رأيت أن القراء يجدون كل ما هم فى حاجة إلى معرفته من رأى الوفد ومعالى الرئيس الجليل، فاكتفيت وشكرت معاليه ورأيت فضلا

١ - سطر مطموس فى الأصل.



عما تقدم أنى أخذت لقراء الأهرام جميعا من أوقات معاليه وآرائه نصيبا فوق نصيب سواهم، فشكرته باسمهم شكرا كبيرا واستأذنته فى نشر حديثه فسمح لى بذلك بقوله: «إنا نعمل جميع أعمالنا على ضوء النهار الساطع. لأنا نعمل للأمة وباسمها فلا نضن عليها بشيء من عملنا أو آرائنا، وإذا كان همنا منذ الساعة الأولى أن يزداد اتحاد الأمة وتآزر هيآتها؛ لأن هذا الاتحاد مصدر القوة، أفلا ترون أن إجابتنا دعوة الوزارة إلى العمل على الشروط التى تضمن الوحدة والنجاح هى أيضا من دواعى الاتحاد حتى نتضامن جميعا ونتآزر فى مهمة محددة تحديدا يتفق مع إرادة الأمة ومصلحتها، فتشعر الهيئة الحاكمة أنها مترابطة مع وفد الأمة والأمة كلها بتلك الروابط، فنذهب إذا ذهبنا لغاية واحدة ونرجع إذا رجعنا لسبب واحد سواء كان باتفاق أبرمناه على ما تهوى الأمة وتريد أو بغير اتفاق؛ لأنّا لم نجد جميعا مطلب الأمة متوافرا. ولا أعرف ضررا يضر بنا كضرر التفريق والانشطار ما دام لنا جميعا مقصد واحد وغرض واحد نرمى إليه ولا نحيد عنه. وقد أدت الصحافة خدمة جليلة فى هذا السبيل، وآمل أن تواصل عملها فى ذلك؛ لأنها اللسان الناطق، والله يوفقنا جميعا إلى ما فيه الخير».

عند هذا الحد حييت معاليه شاكرا داعيا لأنقل إلى قراء الأهرام بيان معاليه الصريح، ولعلى أديت لهم أمانة فى عنقى، وسلامى عليهم.

داود بركات

حديث مع عدلى باشا رئيس مجلس الوزراء فى موضوع المفاوضات[1]

كلمة تمهيد

أظنني رميت عن قوس عقيدة الجمهور بالحديث الذى وفِّقت إلى تناوله من معالى الرئيس الجليل سعد باشا، ويقيني أن الجمهور ارتاح إلى ذلك بما تناولتُه من الكتب والتلغرافات بهذا الشأن؛ لأن الجمهور يَعُد حقا من حقوقه المقدسة الاطلاعَ على كل شيء، والاشتراك فى إبداء الرأى بكل شيء فى هذه الآونة؛ آونة تقرير المصير.

ولقد أحسست منذ تلقيت حديث معالى الرئيس الجليل سعد باشا بأن هناك عاملا آخر لا مندوحة عن الوصول إليه حتى تنجلى الحالة انجلاء تاما كاملا بحديث أو بيان من جانب الحكومة، فلا تبقى فى الحالة التى وصفها الإفرنج بمثلهم القائل:

«من معه ناقوس واحد سمع صوتا واحدا».

فلم يكن إذن بد من الإقدام على مقابلة حضرة صاحب الدولة عدلى يكن باشا رغم كثرة مشاغله الآن؛ لأن مسألة المفاوضات الرسمية هى شغل الأمة الشاغل.

ولم يكن حضرة صاحب الدولة عدلى باشا بأقل استماعا لطلبى من حضرة صاحب المعالى سعد باشا؛ وكلاهما يعمل للقضية المقدسة، وكلاهما يستند إلى الرأى العام، وكلاهما ينزل على إرادة الأمة.

عدلى باشا رئيس الوزارة حُلِّى بالرصانة وسكون النفس؛ إذا حدثته أحسست بأن بين شفتيك وقلبه تيارا لا ينقطع، وبأن سمعه وبصره يلتقط

١ - الأهرام ٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٢١م.



ألفاظك التقاطا دقيقا، فإذا انبرى للجواب أحسست بأنه نَصَب من الرزانة والحكمة ميزانا يزن به ألفاظه وعباراته، فتأتى على مقدار محكم. فهو يتكلم هادئا ساكنا كأنما أعصابه لا تشترك بما يمليه ذهنه على عقله، فمهما كان الحديث مدعاة للانفعال فإنه لا يصيب منه إلا غديرا هادئا يفىء[1] ولا يضطرب.

أدرك عند اللحظة الأولى أن المراد سؤاله عما تفضل حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا بإجابتى عليه، وعرف أن أول واجباتنا الصحفية أن نتبين رأى الوزارة فى شروط معالى رئيس الوفد ليستريح الجمهور إلى ما وصلت إليه قضيتهم العامة اليوم.

فلما كشفت له عن مهمتى لم يتردد بالإجابة على ما وجهت إليه من الأسئلة بالصراحة التامة.

فبعد التحية والإعراب لدولته عن أمل الشعب بأن يصل إلى أمانيه بالاستقلال التام وعن عقيدته بوطنية الوزارة العدلية وأمله باتحاد القوات الوطنية كلها قلنا لدولته.

حديث المفاوضات

س- لا بد أن تكون دولتكم قد اطلعتم على حديث معالى سعد باشا فى «الأهرام»، وقد أعلن فيه معاليه شروطه لدخول الوفد فى المفاوضة الرسمية، فهل تسمحون دولتكم بالإبانة عن رأى الحكومة فى تلك الشروط؟

ج- إنى إذا أجبتكم إلى ما طلبتم فليس ذلك رغبته فى إثارة مناقشة صحفية، بل لأبين للرأى العام خطة الحكومة فيما يتعلق بالمفاوضات المقبلة.

تعلمون أنى أنا دُعيت لتأليف هذه الوزارة للقيام بمهمة المفاوضات الرسمية،

١- فى الأصل (يملئ)، ولعل ما ذكرناه هو الصواب.

وقد قبلت هذه المهمة بعد أن قررت أنا وزملائى المبدأ والخطة اللذين نسير عليهما، وأعلنا ذلك للأمة فى برنامجنا السياسى، وتذكرون مبلغ ما أظهرته الأمة بجميع طبقاتها وهيئاتها النيابية من السرور والاغتباط وما أعربَت عنه من تمام الثقة والتأييد.

(وعلى)[1] أثر ذلك حضر معالى سعد باشا، وتحادثنا معه فى أمر اشتراك الوفد معنا فى المفاوضات الرسمية تنفيذا لذلك البرنامج، وقد كان مدار الحديث بيننا على النقط الأربع التى ذكرها فى حديثه معكم.

الأولى- الوصول إلى إلغاء الحماية إلغاء تاما صريحا، أى إلغاء الحماية التى وضعت على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ والتى وردت فى معاهدة فرساى ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها.

الثانية- الاعتراف باستقلال مصر استقلالا دوليا عاما، سواء كان فى الداخل أو الخارج مع مراعاة إرادة الأمة التى أبدتها بالتحفظات المدخلة على مشروع اللورد ملنر عندما عُرض عليها قبل الدخول فى المفاوضات.

الثالثة- إلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحفية قبل الدخول فى المفاوضات.

الرابعة- أن تكون غالبية المفوضين الرسميين للوفد، وأن تكون رئاسة الهيئة المفاوضة من الوفد.

فكان جوابى له على النقطتين الأولى والثانية:

«إن ما يطلبه خاصا بهاتين النقطتين داخل فى برنامج الوزارة»؛ إذ إن إلغاء الحماية الذى[2] ورد فى هذا البرنامج لا يحتمل أن يكون له معنى آخر غير معنى الإلغاء التام الصريح، ليس فقط بين مصر وإنجلترا، بل إزاء الدول

١- كلمة مطموسة فى الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.

٢- فى الأصل (الذين)، والصواب ما ذكرناه.



الأخرى أيضا، كما أنه لا يمكن أن يكون هناك استقلال لا شك فيه إلا إذا كان متحققا فى الداخل والخارج.

أما التحفظات التى قدمها الوفد للجنة ملنر، فإننا لم نغفلها فى برنامجنا بل أعربنا عن عزمنا الأكيد على تحقيقها، وذلك بقولنا فى برنامجنا: «إننا سنعمل فى أداء مهامنا مسترشدين بما رسمته إرادة الأمة».

على أننى أظهرت لسعد باشا استعدادى لأن أبين الأغراض التى ذكرها بهاتين النقطتين فى التقرير الذى سأرفعه إلى عظمة السلطان بطلب تعيين المفوضينَ الرسميينَ، ولأن أصرح فيه بأن الوزارة متفقة مع الوفد على أن تلك الأغراض هى التى يجب على المفوضين العمل لتحقيقها، ثم أوضحت بأن هذا التقرير ينشر فى الجريدة الرسمية مع المرسوم الذى يصدر بتأليف هيئة المفوضين.

أما ما يطلبه سعد باشا من أن يكون تعيين مهمة المفوضينَ الرسميينَ بمرسوم سلطانى فإن هذا يتنافر تنافرا كليا مع التقاليد الدستورية؛ لأن مسئولية الخطط السياسية يجب أن تتحملها الوزارة وحدها.

أما عن النقطة الثالثة، وهى الخاصة بإلغاء الأحكام العرفية والرقابة، فإن الوزارة قد صرحت فى برنامجها بأن ذلك من أعز أمانيها. وهى قد مضت فى تحقيق هذه الأمنية ومهدت السبيل للرجوع إلى القوانين العامة فيما يتعلق بحفظ النظام. ولا شىء أدعى إلى تحقيق هذه الغاية من المحافظة على الهدوء والسكينة واحترام حرية الآراء.

أما فيما يتعلق بجعل أكثرية المفوضينَ الرسميينَ من أعضاء الوفد فقد قلت: إن المسألة ليست مسألة تحقيق أغلبية لجانب على آخر؛ فإننا لا نمضى لمفاوضة إنكلترا فى تقرير مستقبل مصر أحزابا وشيَعا، بل يجب أن نمضى متفقين على خطة واحدة متشبعين بمبدأ واحدا، وما دام الأمر كذلك فإنه

يكون من السهل جدا الاتفاق على الأشخاص الذين تتألف منهم هيئة المفوضين.

أما النقطة الرابعة وهى طلب الرئاسة، فقد أبنت عنها لسعد باشا: إن التقاليد السياسية فى جميع البلاد لا تسمح بحال من الأحوال أن يدخل رئيس حكومة فى مفاوضة سياسية، ولا [أن][1] يكون رئيس الهيئة الرسمية التى تتولاها من قبل بلاده.

على أننى مع تمسكى بهذا البلد لا أقول بما قال به سعد باشا ولا أذهب إلى الحد الذى ذهب إليه من أن لرئيس المفوضين إدارة المفاوضات «حتى يتصرف فيها بإبداء كل ما يراه صالحا ويصلها ويقطعها على حسب الأحوال».

فإن التصرف بالمفاوضات ووصلها وقطعها لهو بالبداهة من حق الهيئة لا حق الرئيس بمفرده، فإذا كان طلب سعد باشا الرئاسة هو لتمكينه من هذا الحق فلا معنى إذن لاشتراك أحد معه فى المفاوضات.

هذا رأى الحكومة فى الموضوع الذى تسألنى عنه، والحكومة لا تزال تأمل أن يشترك الوفد معها فى المفاوضات.

على أننا قد عقدنا النية طوعا لما عاهدنا عليه الضمير والوطن على العمل لتحقيق الغرض الأسمى الذى تصبو إليه البلاد.

***

هذا بيانٌ وافٍ وشرح مستفيض لا زيادة معه لمستزيد يود أن يعرف رأى الحكومة، فبعد الوصول إلى ذلك شكرت دولته وانصرفت وكلى أمل يكاد يلامس الثقة بأن رجالنا الكرام العاملين واصلون إلى الاتفاق الذى توده البلاد بكل جوارحها لتمثُلَ مصر كلها فى الغداة أمام إنكلترا ورجالها

١ - إضافة من المحرر ليستقيم السياق.



العظماء كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، ما دام برنامج العمل واحدا والغاية واحدة. وهنا أظننى قد أتممت مهمتى المحتمة على قراء الأهرام خاصة، وعلى الأهرام للشعب كله عامة.

داود بركات

حديث مع حمد الباسل باشا[1]

حمد باشا الباسل من الرجال الذين عملوا للقضية المصرية منذ الساعة الأولى، وفى منزله عقدت الاجتماعات، وفى حديقة ذلك المنزل أعلن معالى سعد باشا الدعوة ونادى بسقوط الحماية، وأن صلة أربع وعشرين سنة به تُمَلِّكنى من اليقين بوطنيته ورزانته وهمته ما لا زيادة معه لمستزيد، كما تجعل لصاحبها دالة على صاحبه. فبحق ذلك اليقين بسجاياه وتلك الدالة عليه قصدته لأعرف آراءه فى الأزمة المشتدة الآن، فرد على أسئلتى بفصاحته المشهودة وبلغته المعروفة، ولو أنى تابعت الصحفيين الإفرنج فى وصفهم محدثيهم لما أهملت مجلسه كمجلس شيوخ القبائل والعشائر تحوطهم الهيبة والوقار وجلال السكون تحت الطربوش الواسع والحِرام الفضفاض.

ولكنهم إذا وصفوا أنفسهم فإنا نحن نكتفى بإعلان غرضنا من هذه المقابلة بعد البيان الذى نشره الخمسة أمس وكان اسم سعادته بين أسمائهم.

قلت: لقد قضت الأمة ليلة أمس فى انزعاج لمّا وَقَفَت على خبر اشتداد الخلاف فى الوفد وانشقاقه، وبات الناس يتساءلون عن المصير بعد ذلك، وهل أصبح بالإمكان تلافى هذه الحال السيئة ودعوتنا إلى الاتحاد الذى هو رأس مالنا وسلاحنا فى النضال عن أمانينا؟

ج- ليس هذا بأول خلاف ثار فى مناقشات الوفد مذ كان فى ديار الغربة، ولقد كانت أسباب الخلاف تنتهى دائما إلى اتفاق بفضل التفاهم، وعندى أن الخلاف فى هذه المرة وإن كان شبيها بما سبقه إلا أن ظهوره بالمظهر العنيف الذى وقفت عليه الأمة كان سببه أنه قد دخلت فى المسألة

١- الأهرام، ٣٠نيسان/أبريل ١٩٢١م.



من غير الوفد عناصر غير مسئولة عملت على إحراجه على هذه الصورة التى أزعجت البلاد.

أما الدعوى بأن لهذا الخلاف أثرا فى مصير القضية فإنى لا أذهب إلى مثل هذا الحد؛ لأننا لو ألقينا نظرة هادئة إلى أسباب هذا النزاع لرأيناها كلها تنحصر فى مغالاة كل طرف فى التشدد من ناحيته فيما يراه لمصلحة القضية، فالفريق الذى يرى عدم دخول الوفد فى المفاوضة إنما بنى رأيه على وجوب إقامة الوفد مقام المهيمن على المفاوضات الرسمية، الواقف بالمرصاد للمتفاوضين لا يأذن (باعتباره دارسا للمسألة فى جميع أطوارها) لدقيقة ولا جليلة من الأمر تمرّ دون أن يقلّبها على جميع وجوه النظر؛ فالوفد إنما هو عينها التى بها ترى، وأذنها التى بها تسمع، ويدها التى بها تعمل، ولا محل لقول من يذهب إلى أن الوفد لا عمل له بعد إتمام الاتفاق بين طرفى المفاوضات؛ لأن الوفد ما زال ولن يزال وكيل الأمة وممثلها، والوزارة نفسها تقول بأنها إنما تعمل مسترشدة برأى الأمة، والإنجليز أنفسهم يعلمون أنه لا سبيل للاتفاق مع الأمة إلا برضاء الوفد، فليس أنجح للعمل ولا أحوط لمصلحة الأمة من أن يبتعد الوفد عن التورط فى العمل نفسه، ويبقى فى مكمن الناقد النافذ الكلمة فى كل ما تتكيف به المفاوضات.

فللوفد دور عظيم قبل أن يصير المشروع إلى الجمعية الوطنية، وبهذا لا يستطيع الإنجليز أن يجدوا منفذا يسلكونه إلى تسوية اتفاق لا يحقق كل أمانى البلاد.

أما الفريق الذى يرى دخول الوفد من الآن فى المفاوضة فهو إنما يرمى بذلك إلى أنه أولى من سواه بمعالجة القضية فى دورها الرسمى؛ لأنه إنما يثق بنفسه قبل علمه بالثقة بغيره، وهذا حين نذهب إلى أفضل مذاهب التأويل لا يُفسّر أيضا إلا بضرب من المغالاة فى الحرص على مصلحة القضية.

على أنه لا يخفى أنه لا بد للوفد من اتخاذ أداة صالحة للوصول إلى غاية الأمة لتباشر على طريقته ومبادئه ما لا ينبغى أن يتولاه بنفسه، ولا شك أن خير أداة لهذا الغرض هو وزارة صديقة مخلصة لمبادئ الوفد، وتلك هى من خطط الوفد الموضوعة من قبل الآن، فعلى أهل الرأى الأخير ألا تفوتهم هذه النقطة كذلك.

فالأمة وهى قلقة على مصيرها لا بد لأهل الرأى والعقل فيها من البحث فى أفضل الرأيين والنصح للمخالف باتباع جادَّة الصوب، ولا غضاضة على من ينزل على رأى الأمة فى أمورها[1] الجسام.

س- نرى سعادتكم قد صرفتم وجه الخلاف بكل بساطة إلى إخلاص الجميع وقد رأيتم على صفحات الجرائد أن بعض المستقيلين من الوفد قد عللوا خروجهم بما رأوا من عدم الإخلاص فى العمل.

ج- أستغفر الله من أن ينسب إلى وفد الأمة (...)[2] آمالها مثل هذا القول الذى لا أوافق على أنه منطبق على حقيقة الواقع.

س- أشيع ليلة أمس أن معالى رئيس الوفد قرر فصل طائفة كبيرة من أعضائه، فهل بلغكم شىء من ذلك؟

ج- لم يبلغنى شىء من هذا إلا منك، على أنه إن كان سعد باشا قد فكر فى شىء من ذلك، فهو يعرف النتائج التى تترتب على مثل هذا التصرف، مع العلم بأن للوفد قانونا لم يفرِّط فى بيان الواجب فى هذا الباب.

على أننى أرى أن خدمة القضية المصرية إنما هى واجب فى عنق كل مصرى، فليس من حق رجل أن يمنع عنها آخر، وإننى بالذات أقدِّر ما تنطوى عليه نفسى من التصميم على التضحية فى الجهاد الذى أرصدت نفسى له

١- فى الأصل (أمرها).
٢- كلمة مطموسة فى الأصل.



وما أملك أكثر من عام، (وإلا فلا)[1] سعد باشا ولا سواه يستطيع أن ينكر على مثلي إخلاصه للعمل الذى جاهدنا جميعا فى سبيله، على أن هيئة الوفد أجلّ وأعلى من أن يكون خروج العضو منها أو دخوله فيها بإرادة فرد أو أفراد.

س- قلتم فى خطابكم إن سعد باشا خالف الأغلبية التى انعقد عليها قرار الوفد، ولكن سكرتيرية الوفد أعلنت أن الأغلبية قررت عدم تعضيد الوزارة، فما قولكم فى ذلك؟

ج- لقد انعقدت جلسة الوفد فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس ٢٨ إبريل الحاضر، والذى طُرح عليها للمناقشة إنما هو مسألة واحدة: هى الإقرار على ما قاله سعد باشا فى حفلة شبرا من إعلان عدم الثقة بالوزارة، فلم توافق الأغلبية على ما طُلب منها من إبداء عدم الثقة التى لم يكن بجانبها من الموجودين إلا ثلاثة، أما الذين لم يوافقوه على ذلك فقد أصبحوا معروفين بما ظهر من قرارهم على صفحات الجرائد.

أما مسألة تعضيد الوزارة، التى لم تكن قط موضع أخذ الرأى فى تلك الجلسة، فإن كان المراد بالتعضيد هو قبول كل ما تأتى به الوزارة فنحن جميعا والأمة معنا لا نمنح مثل هذا التعضيد، أما إذا كان المفهوم منه هو تشجيعها على الوصول إلى الغاية التى عاهدت الأمة عليها، فهذا نعده واجبا وطنيا على الأمة كلها، ومثل هذا يقال فى إعلان الثقة بها أيضا، على أن الفرق بين الاثنين هو أن إعلان عدم الثقة يذهب إلى أقبح المعانى، وهذا يعوزُنا عليه الدليل ويأنف كل ضمير حى من التدنى إليه.

س- هل تظن أنه أصبح من الممكن اشتراك الوفد مع الوزارة فى المفاوضات؟

ج- جوابى على هذا يستوجب أن أعيد أولا بلسان من يسلِّم بأصل

١ - كلمتان مطموستان، ولعل الصواب ما ذكرناه.

الاشتراك، ولو عبرت بهذا اللسان أيضا لقلت إنه قد أصبح هذا الاشتراك غير منتج لأية ثمرة بعد هذا التنافر الذى جرح الأفئدة وتمادى فيه القول إلى الحد الذى لا يستريح معه اثنان للمشاركة فى عمل عام أولُ شروطه استحكام أسباب المودة والألفة بين العاملين، وذلك هو التنافر الشخصى الذى أشرنا إليه فى مطالب الأمس. وهذه الحالة أصبحت ضرورة لعدول الذاهبين إلى اشتراك الوفد مع الوزارة عن رأيهم وأخذهم برأى القائلين من أول الأمر بعدم الدخول فى المفاوضة.

س- أشرتم سعادتكم فى صدر حديثكم إلى عناصر خارجة عن الوفد قلتم إنها هى السبب فى تصويرنا (...)[1] هذا المظهر المزعج للبلاد، فما هى تلك العناصر؟

ج- لا بد وأنت صحفى ولك اطلاع على كثير من دخائل الأمور أن تكون قد فطنت لما أشرت إليه، وغاية ما أوضحه من هذه الناحية أن تلك العناصر ترجع إلى قسمين: قسم على بساطته ينتصر بحكم المودة والعلاقات الشخصية إلى آراء معينة لا يعنيه إلا مصدرها، وقد يلتزم ترويجها والدفاع عنها بأساليب قد تكون إلى (...)[2] أشبه منها (...)[3]، وفريق آخر يرى له مصلحة فى تكدير الصفو، فيتوسل إلى هذا بأن يلبس ثوب الصداقة والنصح، وسياسته هى (كسر البيض بالبيض) كما يقول المثل العامى ليخلو له الجو فيتبوأ (...)[4] وحده، ووصوله إلى غرضه أشهى إليه من وصول الأمة إلى غرضها».

عند هذا الحد وقف الكلام، فشكرت سعادته على بيانه.

داود بركات

١- بياض فى الأصل.
٢- كلمة مطموسة فى الأصل.
٣- كلمة مطموسة فى الأصل.
٤- كلمة مطموسة فى الأصل.



سعد[1]

تودع مصر اليوم رجلها- وقلّ من يستحق فى الأمم هذا الوصف- تودع سعدا وقد حل سعد منها بين القلب والشغاف. وارتقى سعد فيها متن الذروة العليا تتقطع الأعناق دون التطلع إليها. وصعد بجهده وجده وباتّقاد[2] ذكائه وعلوِّ همته وبصدق إيمانه وصحة معتقده بحق نفسه وبحق وطنه عليه- سلَّم الحياة درجة درجة حتى القُنَّة التى لا يطاوله إليها متطاول، ولم يتقدمه إليها متقدم ولم يلحق به لاحق. واستفاضت من ذلك المكان السامى الذى تبوأه ومن تلك المكانة العالية التى وصل إليها شهرةٌ طارت إلى جوانب الكون كله.

فإذا فاخرت أمة من الأمم برجل من رجالها فاخرت مصر بسعد. وإذا ذكروا فى أمة من الأمم الرجال العظام قالوا: إن رجل مصر سعد. وما كان سعد برجل مصر وحدها؛ وقد عظُم وكبر فى عيون الشرق كله. فكان مثالا للزعماء فى كيف يكافحون فى سبيل عقيدتهم الوطنية، وفى كيف يجمعون النفوس المتفرقة والطوائف المتنابذة والأهواء المتنازعة، وفى كيف يمزقون التقاليد البالية لتحل محلها الروح الشريفة الجديدة، فتجعل من الأمة كتلة واحدة تتجه بآمالها وأمانيها فى مُتّجهٍ واحد إلى غرض سامٍ واحد وغاية جليٍّ واحدة.

خرج سعد من صلب الأمة كما يخرج جميع الأفذاذ النوابغ. فإذا ذُكر واشنطون، ولنكولن، ونابوليون، وغاريبالدي، وبروموبل، وكلُّ نابغة فى الأمم ذكر بعد اليوم معهم سعد. وقديما قالوا: إن بناة الأمم والشعوب هم الذين يخرجون من صلبها ويَرقَون سلم الحياة فيها درجة درجة إلى الذروة والقُنَّة.

١- الأهرام، ٢٤ آب/ أغسطس ١٩٢٧م.

٢- فى الأصل (بايقاد) ولعل ما ذكرناه هو الصواب.

وهكذا كان سعد الذى تبكيه اليوم الأقلام والعيون ويخفق لفقده قلب مصر وتخفق معها قلوب الشرق وتهتز قلوب الغرب بجملته.

فهو ابن القرية الصغيرة المصرية؛ إتيانه من أعمال مركز فوَّة فى مديرية الغربية. ما انفتحت عيناه للنور وما انطلق لسانه للكلام حتى دخل مكتب القرية، حيث تعلم القراءة والكتابة، وكان ذلك الخطوة الأولى يخطوها الطفل سعد إلى العزة التى لم يصل إليها أحد فى وطنه، وإلى المجد الذى لم يرقَ إليه إنسان فى أمته حتى سهّل على المفترين الذين تعمدوا تشويه مكانته العليا ومقامه السامى من أمته: تارة بأنه رجل شيوعى جمهوري، وطورا بأنه يطمع بالعرش، وكان كل رده أنى لا أطمع بغير استقلال بلدى وفك الأغلال عنه.

وتلت هذه الخطوة الأولى الخطوة الثانية وهو ابن سبع سنين، بانتقاله فى طلب العلم إلى الجامع الدسوقي، حيث جوّد القرآن الكريم فانطبع لسانه الزلق بطابع البلاغة والفصاحة التى كان يتدفق بها لسانه إذا خطب أو خاطب فيخلُب الألباب ويسحر العقول. ثم صعد فى سلم الحياة الدرجة الثالثة بانتقاله إلى الأزهر الشريف، حيث صرف خمس سنين يتلقى العلوم على كبار الشيوخ فى ذلك العهد، ويشبع نفسه الكبيرة الطموحة من الاختلاط بالكبراء والعظماء. وكل بيئة صالحة وكل فئة عاملة وكل فئة عاملة.

والوطنية المصرية يومئذ فى إبان نهضتها، والدعوة إليها فى أشد رواجها، فوجدت نفس سعد الكبيرة المجال واسعا للعمل والميدان فسيحا للمجدِّين، فكان مُعلِّما بما يكتب وينشر فى صحافة ذلك العهد كمصر والمحروسة والبرهان والتجارة... إلخ إلخ، وكان متعلما بما يتلقاه عن نابغة الشرق وفريد عصره السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ حسن الطويل



وسواهما. ووجد إلى جانبه الرفاق الأوفياء العاملين المجدِّين كالشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وإبراهيم بك اللقانى، وشفيق بك منصور، وعلى بك فخرى، والبارودى وغيرهم من تلك الطائفة الصالحة العاملة التى جعلت شعارها منذ سنة ١٨٦٦ «مصر للمصريين».

فثابروا جميعا على الوصول إلى علم ما لا يعلمون، وثاروا[١] جميعا على «...»[٢] مما يكرهون وتنبذه روح العصر والحرية والرقى والحضارة أى الاستبداد. فكان سعد من ذاك اليوم وليد الثورة على الاستبداد ووليد الثورة على الاستعباد. وليد الثورة على القديم الذى لا يصلح للعصر الحديث، وربيب البلاغة العصرية حتى عيّن محررا فى القسم الأدبى من الوقائع المصرية فى سنة ١٨٨١، ورئيسه فيها رفيقه وصديقه الشيخ محمد عبده.

وامتاز سعد بانطباعه وقتئذ على حب العدل والإنصاف، فكان (كبير)[٣] همه أن ينتقد أعمال المجالس الملقاة التى اشتهرت بالأحكام الجائرة إلى أن حلت المحاكم الأهلية محلها فكان من أركانها. وهكذا كان سعد القاضى العادل قبل أن يخطر له أنه سيتولى القضاء، وأنه سيكون فيه المنارة (التى يستضاء بها، أو أنه)[٤] سيتولى وزارة العدل بعد القضاء، وقد وصف فيها يومئذ بأنه «أكبر ضمانة للعدالة».

وإذا نحن عدنا إلى كتابة سعد الفتى فى ذاك العهد وجدنا أنه كان يؤيد حكم الشورى والدستور، وينقم على حكم الفرد والحكم المطلق. يذم الاستعباد ويدعو إلى الحرية، ويمتدح حُسن الأخلاق وينادى بإصلاح الفاسد.

١ - فى الأصل (ونارروا)، والصواب ما ذكرناه.
٢ - كلمات مطموسة فى الأصل.
٣ - فى الأصل (بير)، والصواب ما ذكرناه.
٤ - الكلمات غير واضحة فى الأصل، ولعل ما ذكرناه هو الصواب.

كما كان منذ صغره متمردا على قيود الوظيفة لا يتقيد بها ولا يراعى إلا يقينه ومعتقده، فيكتب ما يوحى إليه ضميره، ويكتبه فى جريدة رسمية على غير معتقد الحكومة فى ذاك العهد. وقوة العقيدة وصحة اليقين تصلان بالمرء إلى ما يريد؛ حتى جاء فى الآية الإنجيلية: «إذا صح يقينكم وقلتم لهذا الجبل انتقِل انتقَل»[1]. وصحة هذا اليقين وافقت سعدا من صغره إلى الكبر. وقديما قالوا: إن الفضيلة المغروسة فى الإنسان تكبر بكبره وتنمو مع نموه، فسعد الفتى ابنا بسعد الشيخ. وسعد الشيخ أكبرَ سعدا الفتى «وألفه»[2] مع الزمن.

كان ذلك إيمان سعد ويقينه حتى اتجهت إليه أنظار عباد الفرد. والحكم المطلق اتجاه الناقمين. فلما عُيِّن فى سنة ١٨٨٢ معاونا فى الداخلية فناظرا لقلم قضايا الجيزة لم يَدَعوه يستقر فى وظيفته سوى أسابيع قليلة. والفضائل تُضطهد، ولكن الفوز مضمون لها. وجاءت الثورة العرابية التى هبَّت يومئذ فاتُّهم سعد– الذى كان ينادى بالحرية ويطلب الاستقلال ويقول بحكم الشورى– بأنه ألَّف جمعية سياسية باسم جمعية الانتقام. وهكذا المخْلص متهم بإخلاصه، والمنافق المارق يدير ريحه لكل قَلْع ويسير على كل شهوة، وما كان ذلك من خُلُق سعد فظهرت براءته.

اشتغل بالمحاماة الشرعية ولما انتظمت المحاكم الأهلية فى سنة ١٨٨٤ دخل فى فئة المحامين. وكان المحامى الذى يشار إليه بالبنان حتى اختاروه من بين المحامين للقضاء، وأكبروا يومئذ اختياره، فأقيمت له حفلة تكريمية كبرى برياسة رئيس محكمة الاستئناف، وعدوا ذلك عملا خارقا للعادة فى رجل خارج عن المستوى المألوف.

رأى سعد على تقدمه فى العمر وعلى كِبَر سنه أن قوانين هذه الأمة

١ - إنجيل متى: ١٧ بتصرف.
٢ - غير واضحة فى الأصل، ولعل ما ذكرناه هو الصواب.



مستمدة من القوانين الفرنسوية، فأقبل على تعلم اللغة الفرنسوية، وعلى درس القانون بهذه اللغة وعلى الامتحان أمام اللجنة العليا بباريس، فنال الشهادة. وفى سنة ١٨٩٢ عين مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية. وهكذا القوة وقوة الشباب طول حياته حتى درس بعد ذلك الألمانية والإنكليزية.

ولكنه ظل على سيرته الأولى من الاشتغال بأمور البلد السياسية، فاتفق مع جماعة من إخوانه رجال العلم والفضل فى الأمة على أن يؤسسوا الجامعة المصرية؛ لأن المحتلين قصروا التعليم على صَوْغ آلات للدواوين، وحوَّلوا همهم إلى إنشاء الكتاتيب ليُبقوا هذه الأمة للفلاحة والزراعة فقط. فقال رجال الأمة وفى مقدمتهم سعد: يجب إذا أن تؤسس الأمة لنفسها المدارس وتنشر العلم وترقِّى مدارك أبنائها دون اعتماد على الحكومة. ولما رأى الإنجليز ذلك وعرفوا ما فى سعد ورفاق سعد من صدق العزيمة طلبوه ليكون وزيرا للمعارف، فتولى تلك الوزارة فى سنة ١٩٠٧ وأخذ فى إصلاح برنامج التعليم والتحول بها شيئا فشيئا من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، وأنشأ لهذا الغرض قلما للترجمة والنشر. وكلمة اللورد كرومر عنه فى ذلك الحين مشهورة، فقد قال فى خطبة الوداع التى ألقاها فى الأوبرا الخديوية يومئذ ما نصه:

«وإنى لأذكر أيها السادة اسم رجل لم أشتغل معه إلا من عهد قريب، لكن معاشرتى القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه احتراما عظيما، وإذا أصاب ظنى ولم أخطئ يكون أمام ناظر المعارف الجديد سعد زغلول باشا مستقبل عظيم فى سبيل خدمة هذه البلاد ومنفعتها؛ لأنه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده؛ فهو رجل صادق كفء مستقيم مقتدر، بل وهو رجل شجاع فيما هو مقتنع به.

وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين دونه فضلا بمراحل من أبناء وطنه: وهذه صفات سامية لا شك بأن صاحبها يتقدم كثيرا».

وما كذب ظن اللورد كرومر وما أخطأ، فإن قوله: «إن سعدا صادق مستقيم كفء مقتدر» لهو قول حق لا ريبة فيه ولا شك. وإن قوله: «إن سعدا شجاع فيما هو مقتنع به قد (...)[1] حياة سعد كلها عليه من أولها إلى آخرها؛ وأية شجاعة أكبر من شجاعة فتى يواجه الحكام المستبدين؛ فثلث المقالات التى كان يدبِّجها فى ذم الاستبداد منذ ٥٠ سنة. وأية شجاعة فوق شجاعته وهو يرى البلاد تعج بالجيوش الإنجليزية الظافرة من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٣ فلا يفتأ يطالبها بالاستقلال والجلاء عن هذه البلاد. وأية شجاعة فوق شجاعته فى معتقده ويقينه وهو يُنفَى إلى مالطة وإلى سيشل وإلى جبل طارق فلا يتحول عن مطلبه ولا يلين فى طلب استقلال بلده، والشيخوخة قد أخذت منه، والمرض قد استولى عليه، والوعيد يتوالى والنذير يتلو النذير، والوعد يأتى بعد ذلك فلا يعبأ بهذا ولا يأبه لذاك!

تولَّى وزارة الحقانية بعد المعارف، فكان له أكبر أثر وأعظم عمل؛ لأنه كان الوزير المصرى الوحيد الذى يعمل لوزارته مستقلا ويصلح ما وَقَفَ عليه من الأخطاء وهو محام. ويعتبر المستشار الإنجليزى مستشارا فقط، فكان يُحافظ على حقه وسُلطةً الوزير كل المحافظة: حتى دهشوا لعمله مرة مع الخديوى عباس حلمى الثانى؛ إذ أراد طى أحد مشروعاته (الإصلاحية)[2] فى جلسة من مجلس الوزراء، فلم يطق صبرا على ذلك وقرع الطاولة بكلتا يديه، وقال: «أنا الوزير المسؤول، فلا بد من إقرار مشروعى»!!

أجعِل الوزراء لهذا العمل لأنهم ألفوا الخنوع والخضوع إما لهذه السلطة

١- كلمة مطموسة فى الأصل.
٢- فى الأصل (الاصطلاحية)، ولعل الصواب ما ذكرناه.



أو لتلك[1]؟ أما سعد فلم يألف هذا الخضوع ولا الخنوع لا لهذا ولا لذاك لما طبع عليه من علو النفس وصدق الإيمان بحقه، فلم يكن يعرف فى هذا الحق مواربة ولا مُجاملة، حتى وصفهُ اللورد كرومر كما قُلنا بأنه شُجاع فيما هو مقتنع به. كذلك قل عن موقفه فى جمعية الاقتصاد والتشريع، وقد أعد السير برونيات مشروعا لتعديل قانون العقوبات ودعا كبار الأساتذة والمحامين للبحث فيه فقال لهم: «مَن وكّلكم عن الأمة المصرية لتسنوا لها القوانين، ومن حقها وحدها سَن القوانين لنفسها؟».

***

طَلّقَ سعد باشا الوزارة فى سنة ١٩١٣، وكانوا قد وضعوا مشروعا للجمعية التشريعية التى تحل محل مجلس الشورى والجمعية العمومية فانتقد سعد باشا ذلك المشروع على صفحات الأهرام انتقادا لم يوقّعه باسمه، فادعاه كثيرون من رجال الشرع والقانون مفاخرةً. كان فيه من الآيات البينات التى أجفلت الإنجليز ذاتهم، وأجفلت اللورد كتشنر الذى ظن أن الأمة تكون راضية عن مشروعه، فكان جوابه يومئذ على انتقاده المر بل انتقاده الحق الصادق: إنه مشروع عدل مع الزمن والتقاليد، وإذا لم تكن الوزارة مسؤولة أمام الجمعية التشريعية فإن الوزارة مضطرة أن تجيب الجمعية على كل سؤال تلقيه عليها، وأن تبرر عملها أمام تلك الجمعية.

فتحت الجمعية التشريعية وسعد متمسك بحقوق الأمة وغير راضٍ عن ذلك المشروع الذى لا يوصل الأمة إلى الدستور، فلما جاء دور انتخاب وكيلى الجمعية التشريعية ورياسة المجلس عند غياب الرئيس تمسك سعد بأن يكون الوكيل المنتخب هو المقدم على الوكيل المعين؛ لأن إرادة الأمة مقدمة على إرادة الحكومة، وسلطة الأمة فوق سلطة الحكومة.

١- غير واضحة فى الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.

ومن أقواله المأثورة: «إذا كانت الحكومة تريد أن تكون الجمعية التشريعية مكتب تسجيل لقوانين الحكومة وأوامرها فأنا بصفتى مصريا محبا لبلادى أفضِّل ألا يكون لمثل هذه الجمعية أثر فى الوجود». «وكل تقييد للحرية لا بد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلما، وكلما كان الشيء واضحا كان البحث فيه داعيا إلى غموضه». و«إذا أردت أن تحدد معنى الضوء والظلام انتهى بنا الأمر ألا نعرف معناهما».

***

وقعت الحروب فى سنة ١٩١٤ ووزارة رشدى باشا قائمة بالأمر، فارتبكت البلاد وارتبكت الحكومة. وكان رأى سعد ألا تجاهر الأمة الحلفاء بالعداء لئلا يتألبوا عليها، وأن تحتفظ بحقوقها إلى أن ينجلى الغبار. وكان يبحث مع إخوانه ورفاقه وأصحابه فى الطرق التى يتَّبعونها للوصول إلى تحرير البلد بعد أن تضع الحرب أوزارها. ولقد يكون هناك من الأسرار ما لم يحن الوقت حتى الآن لإعلانه، ولكن الأمر المعلن المعروف أن الهدنة وقعت فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٨، فكان سعد باشا ورفاقه الثلاثة (على شعراوى باشا رحمه الله) و(عبدالعزيز فهمى باشا) فى دار الحماية يطلبون استقلال البلد، وأن تقرر مصيرها على النحو الذى نادى به الحلفاء منذ الساعة الأولى، وهكذا رأس سعد الأمة ومثّل أمانيَّها وآمالها ومطالبها.

يومئذ بدأ الخصام بين الأمة والإنجليز، فكثرت الاجتماعات وتوالت الاحتجاجات على الإنجليز الذين لم يسمحوا لسعد ورفاقه بالسفر إلى أوروبا لمطالبة الحلفاء- لا سيما الإنجليز- بحقوق هذه البلاد. فظن الإنجليز أنهم بنفيهم سعدا وأصحابه إلى مالطة يخمدون الجذوة ويعطلون المسير لتلك الحركة الوطنية، فقبضوا عليه وهو فى عقر داره فى ٨ مارس ١٩١٩ وأرسلوهم إلى مالطة، فاهتزت البلاد وارتعدت من أقصاها إلى أقصاها.



وقامت الثورة فى كل مكان، وقدّم المصريون أنفسهم وأرواحهم فدية لزعمائهم بل فدية لوطنهم، وانقطعت المواصلات (...)[1] فى داخل البلاد الهيئات أو الحكومات لإدارتها، فاضطر الإنجليز إلى الإفراج عن سعد وصحبه فى ٧ أبريل ١٩١٩، فسافروا من مالطة إلى باريس؛ حيث وجدوا أن السياسة الإنجليزية قد أقفلت فى وجوههم جميع الأبواب، ولكن ذلك لم يفُت فى عضد سعد وأصحابه ولم يقلل من عزيمتهم، فواصلوا جهادهم وواصلت البلاد حركتها الاستقلالية. وظن الإنجليز أنهم يتجاوزون عن سعد ورفاقه وهم فى أوروبا إلى مخاطبة الأمة المصرية مباشرة، فأرسلوا لجنة اللورد ملنر للتحقيق، فقاطعتها الأمة مقاطعة تامة. فعاد اللورد ومن معه إلى لندن مضطرين لمفاوضة سعد والاتفاق معه، فدَعَوه إلى لندن واحتفوا به وطلبوا منه أن يقدم لهم مشروعا ففعل، وقدم اللورد له مشروعه المشهور فرفضه عملا بإرادة الأمة. وعاد سعد إلى البلاد فى إبريل سنة ١٩٢٠ فاستقبلته استقبالا لم يعرفه زعيم من زعماء الأمم، ولم تقم به أمة من الأمم لزعيم من زعمائها. وهكذا الأمم أجسام تحتاج إلى الرؤوس لتعمل، وعلى مقدار قوة ذلك الرأس تكون قوة عمل الجسم.

أراد الإنجليز بعد ذلك أن يتجاوزوا عن سعد وأصحاب سعد، وأن يتفقوا مع وزارة تقوم فى البلد ولا يكون على رأسها سعد، فتألفت الوزارة العدلية التى وعدوها بأن يُنيلوا الأمة مطالبها على يدها، وبأن يَعدلوا عن مشروع اللورد ملنر الذى رفضته الأمة أو يعدِّلوه، فلم يثق سعد بعملهم ولم يثق بقولهم، ورفض أن يُولِى الوزارة لفتة. وهنا يجدر بنا أن نورد للقراء حديث سعد باشا مع محرر هذه الكلمة. فقد سألته رحمه الله يومئذ (٣ مايو ١٩٢١): هل يمكننا أن نعرف الشروط التى اشترطموها على الوفد الرسمى بشأن المفاوضات مع الإنكليز حتى تولوا ذلك الوفد ثقتكم؟

١- كلمة مطموسة فى الأصل.

فأجاب: «لقد اشترطنا أن تُعيَّن مهمة المفوَّضين الرسميين، وتحدد بمرسوم سلطانى تحديدا يتفق مع مطلب الأمة ومبادئ الوفد. أما مهمة المفوضين فيجب أن تكون: ١- الوصول إلى إلغاء الحماية إلغاء تاما صريحا، أى: إلغاء الحماية التى وضعت على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ والتى وردت فى معاهدة فرساى ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها. ٢- الاعتراف باستقلال مصر استقلالا دوليا عاما سواء كان فى الداخل أو فى الخارج، مع مراعاة إرادة الأمة التى أيدتها بالتحفظات المدخلة على مشروع اللورد ملنر عندما عرض عليها قبل الدخول فى المفاوضات. ٣- إلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحفية قبل الدخول فى المفاوضات. ٤- أن تكون غالبية المفوضين الرسميين للوفد، وأن تكون رئاسة الهيئة المفاوضة مع الوفد.

ويرى الوفد أهمية كبرى لرئاسة المفوَّضين؛ لأن الوفد هو المسئول أمام الأمة عن المفاوضات ونتيجتها، فيجب حتما أن تكون بيده إدارتها؛ حتى يتصرف فيها بإبداء كل ما يراه صالحا ويقطعها على حسب الأحوال. ولا يمكنه أن يتمكن من ذلك إذا كانت الرئاسة بيد غيره. إنى لم أسعَ ولن أسعى لأن أكون مفاوضا، ولكن الحكومة رأت ضرورة اشتراك الوفد فى المفاوضات، فرأى الوفد أنه لا يستطيع قبول الاشتراك بدون تلك الشروط. كما أننى لا أستطيع أن أؤيد أى مصرى يدخل فى المفاوضة إذا لم يحدد مهمته بالمرسوم السلطانى على الوجه الذى تقدم حتى أكون واثقا بأن الغاية التى يسعى إليها هى غاية الأمة. فإذا فاوضت الوزارة على غير شريعة الوفد فإن الوفد لا يؤيدها».

ذلك كان حديث دولته بل ذلك كان مذهبه، وأساس السياسة التى اتبعها سعد حتى النهاية. ولما حَبِطت المفاوضات الرسمية تبين صدق نظر سعد، وظهر أن الإنكليز كانوا يلعبون بالبلاد لعبا فقط، وأنهم لا يتحولون



عن مشروع ملنر الذى قدمه لسعد فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٠، ولكنهم أرادوا إيقاع الانقسام، فظلت الأمة فى جانب سعد وكان الوفد الرسمى على رأيه فى المطالب.

قامت البلاد وقعدت بعد ذلك وعلى رأسها سعد، فاضطر اللورد اللنبى أن يرسل إلى عظمة السلطان بيانا عن مذكرة اللورد كرزون التى جاءت بعد قطع المفاوضات مع الوفد الرسمى.

ثم فهم الإنكليز حينئذ أن الحماية لا يمكن قبولها، فقرروا إلغاءها واستبدالها باسم أسموه العلاقة الجديدة التى ترجموا عنها بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وأرادوا استقلالا بالداخل وحماية بالخارج.

وقبل أن يقدموا ذلك التصريح وينفذوه نظروا إلى العقبة الكبرى وهى سعد، فأرسلوا قواتهم العسكرية ودباباتهم المسلحة إلى منزل ذلك الشيخ الهادئ الساكن إلا فى محبة وطنه، والذى لا يحمل سلاحا إلا سلاح الحق فى يده، فأبعدوه من البلاد إلى جزيرة سيشل. وبعد إبعاده تألفت الوزارة الثروتية التى قبلت التصريح. وقال ثروت باشا فى حديثه مع كاتب الكلمة:

أنا قبلت التصريح لا لأنه يحقق أمانينا، بل لأنه خطوة فقط نحو تلك الأمانى.

ثم وضع بناء الدستور وسعد غائب فى منفاه، واستقالت الوزارة الثروتية التى قبلت تصريح ٢٨ فبراير لأنها أبت قبول العهد بل الذى طلبه الإنكليز فى شأن السودان والتعديلات الأخرى التى طلبت منها.

ولما تمت الانتخابات بعد عودة سعد من جبل طارق- وكانت الغالبية للوفد- لم يكن بد- بحكم الدستور- من أن يتولى سعد رئاسة الوزارة، فكانت وزارة سعد الوزارية الدستورية الأولى.

وقال فى برنامجها الذى وجهه إلى جلالة الملك: «وأن الانتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة على تمسكها بمبادئ الوفد التى ترمى إلى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعى بالاستقلال الحقيقى لمصر والسودان، مع احترام المصالح الأجنبية التى لا تتعارض مع هذا الاستقلال».

وهكذا ظل سعد على مذهبه الأول بالاستقلال وطلبه وحقوق الأمة فيه. ولكن الإنكليز الذين لا يروق لهم مثل هذا الكلام باتوا يتربصون به الدوائر. فجرى ماكدويلد معه على منهج كرزون وملنر، وظنوا أنهم يحوِّلون سعدا والأمة المصرية عن السودان بذلك الإنذار الذى وجهوه إلى وزارة سعد بعد مقتل السردار. ثم ظهر أنهم كانوا قد أعدوه لمثل هذا الغرض، وأخذوا يتحينون الفرص إلى أن كان مقتل السردار الفرصة التى سنحت لهم فاقتنصوها. وما فضح المصريون هذا السر بل فضحه محرر التيمس فى رسالته التى وجهها إلى مجلة العالم الإسلامى فى باريس، وفضحه اللورد اللنبى ذاته فى حديثه مع المسيو بيرو الفرنسوى بقوله: «إن الانذار كان عند مقتل السردار معدا فى مكتبى لأقدمه عند سنوح الفرصة».

عطلوا بعد ذلك الدستور علهم يحوِّلون الأمة عن سعد أو يحولونها عن سياسة سعد أو يحولون سعدا عن سياسته، فلم يفدهم ذلك شيئا، بل جاء الأمر على الضد، وشعرت جميع أحزاب الأمة وطوائفها أن هنالك خطرا على الجميع، فاتفقت الأحزاب وكادت الحركة المصرية التى قامت فى سنة ١٩١٩ تعود إلى سيرتها الأولى فى سنة ١٩٣٥، فانصاع الإنكليز لإرادة الأمة وأمروا الوزارة (...)[١] بتنفيذ قانون الانتخابات كما وضعه البرلمان فى سنة ١٩٢٤.

١ - كلمة مطموسة فى الأصل.



وظلت الأمة بالانتخابات الثانية كما كانت فى الانتخابات الأولى على سياسة سعد ومذهب سعد. وظل سعد على سياسته ومذهبه متمسكا باستقلال البلد وحقوقه تاركا للإنكليز الوقت ليعودوا إلى سياسة حسن التفاهم التى اختطها منذ الساعة أى منذ ١٣ نوفمبر ١٩١٩ وهو يطلب الإذن من « ونجت باشا » ليُسهل له السفر إلى لندن لهذه الغاية. هكذا كان سعد زعيم الأمة لأنه كان لسان الأمة الصادق.

***

فاليوم انطفأ ذلك النور الوهاج الذى كان يفيض على البلاد كلها، ولكن أثره لا يمحى من النفوس وفعله لا يزول من الصدور. واليوم انهدَّ ذلك الركن الركين الذى كانت تستند إليه الأمة بآمالها وأمانيِّها وتوليه ثقتها التى لا حد لها. واليوم يخفق قلب مصر حزنا وأسفا لم يحكه خَفْقٌ له فى يوم من الأيام إلا يوم عودة سعد من منفاه مرفوع الرأس موفور الكرامة. واليوم تبكى كل عين مصرية رجلا ضحك له بالأمس كل ثَغْر مصرى. واليوم تعاهد الأمة هذ الرجل العظيم على قبره أنها على مبدئه حتى النهاية.

واليوم على سيرة سعد، على كل مصرى أن الرجل العظيم هو الذى يكوِّن نفسه بصعوده سلم الرقى درجة فدرجة حتى الذروة العليا بقوة اليقين وصحة الاعتقاد وصدق العزيمة التى لا تفل. فقد كان سعد- رحمة الله عليه- رجلا ولكنه كان فوق الرجال يتمسك بالحق وحبه للعدل والصراحة والإخلاص. يكره الذبذبة والنفاق واللين حيث تجب الشدة والصلابة، وينأى عن الصلابة والشدة حيث يجب اللين والهوادة. فلا نفقد سعدا إذا ظلت حيّة فينا روحُ سعد ومطالبه وأمانيه بل فضائله ومميزاته.

فقد أدى ما عليه لأمته إلى اللحظة الأخيرة من حياته، فسجل بعمله اسمه مع الخالدين وخدم وطنه وأمته الخدمة الباقية الخالدة إلى أبد الآبدين.

وقطع فى إحدى خطبه فى سنة ١٩٢٢ عهدا على نفسه بربه وهو قوله: «أعاهدكم عهدا لا أحيد عنه، وهو أن أموت فى السعى لاستقلالكم، فإن فزت فذلك، وإلا (...)[١] لكم إمام[٢] ما بدأت به».

داود بركات

١ - الكلمة مطموسة فى الأصل، ولعلها (أنرت).
٢ - الطريق. الوسيط. (أ م م).



فاتحة عصر جديد للتاريخ بالعربية
أو عصر المأمون(*)[1]

وصل الإفرنج معلمونا فى العصر الحديث إلى تمحيص علم التاريخ. والتاريخ علم وفن كسائر العلوم والفنون. فقالوا إنه يؤلف من شقين: الأول– النكات التاريخية، وهى الحوادث تسرد مع ذكر أصحابها. والثانى– الفلسفة التاريخية، وهى درس أسباب تلك الحوادث وتبيان وجوه ترابطها وتسلسلها واستخلاص العظات منها.

فهو من هذا الوجه علم النواميس التى تتحكم بالحوادث ومجراها، وبالتالى علم الاستدلال الذى يمكن صاحبه من دَرْس الشؤون بالنظر إلى جوهرها من وجهة عامة مع المقابلة والمشابهة من وجهة خاصة، لذلك قالوا من الوجهة العلمية: إن علم التاريخ هو علم البحث عن الحقيقة وقالوا من الوجهة الاجتماعية: من لا يدرس التاريخ ويقف على أسراره لا يستطيع حكم الناس ولا يستحق هذا الحكم.

وكان تيرس الفرنساوى يقول: كانوا قبل اليوم يكتبون التاريخ لخدمة الملوك والأمراء لأنهم منفردون بالحكم. أما اليوم فإنهم يكتبون التاريخ للشعب لأن الرأى العام هو الحاكم. وفى أقوال تاسيت: أليس التاريخ هو الذى يعلمنا الأعمال الصالحة بنتائجها الصالحة والأعمال الممقوتة بنتائجها المكروهة.

---

*- أنجزت مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة طبع كتاب عصر المأمون تأليف الدكتور أحمد فريد رفاعى المفتش بوزارة الداخلية، والكتاب فى مجلدين ضخمين. ففى الكتاب الأول عصر بنى أمية وتطور المدنية الإسلامية والجهاد بين الخلافة والملك وسياسة معاوية والحياة الأدبية والعلمية للعصر الأموى وفى الكتاب الثانى عشر بنى العباس الوجهة السياسة والشيعة العلوية والعصبية والموالى والدعوة العباسية... إلخ والحياة الأدبية فى صدر حكم بنى العباس. وفى الكتاب الثالث عصر المأمون ومحمد الأمين ونشأته والمأمون والنزاع بينه وبين الأمين وخلافة الأمين والنزاع وخلافة المأمون وعصره وأطواره وتطوراته... إلخ إلخ. ثمن الكتاب ٥٠ قرشا.

---

١ - الأهرام، ٤ أيلول/سبتمبر ١٩٢٧م.

إذا نحن عرفنا ذلك عرفنا معه أن سرد الحوادث فقط لا يعد تاريخا، وأن تحليل تلك الحوادث وبيان أسبابها ونتائجها هو التاريخ. وقد قال العلماء والباحثون فى تواريخ الأمم: إن تاريخ اليونان كان شعرا، وتاريخ الرومان كان رموزا وصورا، وتاريخ المصريين درسا وفنا وتعليما؛ أما تاريخ العرب فلم يُجد الروايات أى سرد الحوادث والنكات التاريخية، وأهم أساس فيه الأنساب وربما تقدم العرب اليونان فى أن جعلوا تاريخهم قَصيدا. فإن هذه السُّنة كانت سُنتهم إلى اليوم، فلكل عشيرة منهم شاعرها ينظم فى قصيدة حوادثها وينشد الجميع ذلك القصيد ويتناقلونه، فلو أنك ذهبت إلى صعيد مصر وتحريت قصيدهم لعرفت أنه يتضمن كثيرا من الحوادث ولو أنك ذهبت إلى حَوْران لاستخرجت من قصيدهم حروب إبراهيم باشا المصرى هناك ولو أنك ذهبت إلى لبنان لعرفت جميع الحوادث جليلها وصغيرها من قصائدهم، كذلك قل فى أهل البادية جميعا.

هذه النكات التاريخية أو الحوادث التى خلفها لنا المؤلفون العرب قد تصدى كثير من علماء الإفرنج المستشرقين لاستنباط الحقائق منها، ولوَصْل أسبابها وعللها بنتائجها حتى يصلوا من وراء ذلك إلى العلم الذى يجمع بين النكات التاريخية وفلسفة التاريخ.

ولا نعرف أحدا من الشرقيين نحا هذا النحو عمدا. فإذا وُجد من جمع بين سرد الحوادث وفلسفتها فذلك ما لم يقصده ولكن الغريزة أهدته إليه. إلا صاحب «عصر المأمون» الدكتور فريد رفاعى فإنه نحا منحى علماء فن التاريخ، فحق علينا أن نقول بعد مطالعة كتابه الذى يدل على الجهد الكبير والبحث الطويل الدقيق «إنه فاتحة عصر جديد للتاريخ أو لتدوين الحوادث وأسبابها ونتائجها وترابطها».

أقول هذا إنصافا له فى جده وكدحه ونَصَبه وأقوله تنشيطا للباحثين



والمؤرخين ولا أقوله إنكارا لشيء من فضل المتقدمين، وقد قيل فى وصف التاريخ إنه صورة، فكما أن الصورة هى رسم الشخص كذلك التاريخ هو رسم العصور فهو يتغير بتغيرها. وكل سلالة لاحقة تكون إذا فقهت أقدر على الحكم الصحيح من السلالة السابقة، فالمرآة إذا وضعتها على عينيك لا ترى شيئا، فإذا أبعدتها أدركت بها حقيقة المرئيات.

***

أراد المؤلف أن يدرس عصر المأمون الخليفة العباسى درسا دقيقا، فعرف أن هذا العصر حلقة من سلسلة تبتدئ مع الإسلام، فعاد إلى عصر الخلفاء الراشدين والفتح فى سبيل الدعوة الدينية، وما تبع هذا الفتح من العناصر المادية والاجتماعية والسياسية. فبعد أن كان عمر بن الخطاب يَدْهش لقول أبى هريرة الذى حمل إليه من البحرين ٥٠ ألف درهم، فيصعد المنبر وهو يقول: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كِلْنا لكم كيلا وإن شئتم عَدَدْنا لكم عدا»، وبعد أن مات أبو بكر ولم يجدوا عنده دينارا واحدا.

بلغت غَلَّة خالد القمبرى أمير العراق على عهد بنى أمية ١٣ ألف درهم، وأهدى خالد طارقا خليفته بالكوفة يوم ختان ولده ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب. وهكذا أثبت لنا المؤرخ أن السلم ذهب بهم صعودا حتى كان الخليفة الأمين ينفق الربوات[1] على المغنين. وهذا الخليفة عثمان نقم عليه المسلمون الذين كانوا فى صدر الإسلام يرجعون كل شيء إلى الله فلا مال ولا بنين... إلخ، إنما كانت نقمتهم عليه لأنه آثر ذوى قرباه وأصحابه حتى غضبت عائشة أم المؤمنين وهو يخطب فقالت: «يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يَبْلَ وقد أبلى عثمان سنته».

١- جمع رِبْوة و رُبْوة بكسر الراء أو فتحها تعنى عشرة آلاف .الرائد. (ربو).

وبعد مقتل عثمان لهذا السبب، تطورت الحال فكبرت المطامع التى أبَى عليٌّ بن أبى طالب، إرضاءها لشدة تدينه «فثقل على الأكثرين فعله وكرهوا مكانه». وهذا سر فوز معاوية فضلا عن دهاء معاوية السياسى، وقد تبسط فيه المؤلف تبسطا طويلا لا سيما فى اختيار العقل وبذل المال ونشر الدعاية. وقد علل أحد بنى أمية سبب زوال ملكهم بقوله: «قلة اليقظة وشُغلنا بلذاتنا عن التفرغ لمهماتنا، ووثْقنا بكفاءاتنا فآثروا مواقفهم علينا، وظلم عمالنا رعيتنا ففسدت نياتهم لنا، وحمل على أهل خراجنا فقل دخلنا، وبطل عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فعاونوهم علينا وقصد بإمائنا فعجزنا عن دفعهم لقلة أنصارنا. وكان أول زوال ملكه استتار الأخبار عنا فزال ملكنا عنا بتا».

وإذا كان المؤلف لم يقل قول مؤرخى الإفرنج بأن معاوية وطَّد ملك الإسلام فإن إلمامه (بسياسة)[1] معاوية يؤدى إلى هذا الحكم وبين المؤلف خطر تعدى ولاة العهد من عهد مروان بن الحكم الذى جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك، ثم من بعد هذا لابنه عبد العزيز؛ فاتباع هذا النظام كان شرا كبيرا، وهو الذى أحدث القتال بين الإخوة والآل، وهو الذى أفسد ما بين الأمين والمأمون من الخلفاء العباسيين، وهو هو الذى أحدث من الشرور ما أحدث فى تركيا حتى أن أحد سلاطينهم قتل جميع الذكور من أسرته تخلصا من ولاية العهد، ولم يفلت سوى واحد لجأ إلى رومه.

ولا ينحصر فضل بنى أمية فى السياسة، ولكن فضلهم بتدوين الدواوين وكانت (بالرومية) وبنقل العلوم حتى قال المؤلف: «ونحن نجد من هذا وغيره أن اللغة العربية أخذت تجرى أشواطا فى حلبة العلوم فى هذا العصر»، ثم بسط حال الكتابة والخطابة والشعر وضروبها.

١- فى الأصل (سياسة) والصواب ما ذكرناه.



ولما مات معاوية سنة ٦٠ هـ، بدأت الدعوة العلوية والدعوة العباسية إلى أن ألف السفاح ملك العباسيين وفتك فى سنة ١٣٢هـ بالأمويين فتكا ذريعا. وهكذا يؤلف الملك ويؤسَّس، ألم نر محمد على بمصر يفتك بالمماليك ليؤسس ملكه؟ وهل كان بالإمكان أن يستتب الأمر بغير الصرامة والشدة؟ وسرد المؤلف تاريخ أبى جعفر المنصور وحزمه وحسن سياسته، ثم المهدى الذى وصفه المؤلف بأنه كان شهما فطِنا كريما شديد البأس فى تعقب الملحدين عادلا.

وقال فى الهادى: إنه كان متيقظا غيورا كريما شديد البطش ولا يرى المؤلف جواز الإسراف بمدحه؛ لأنه مر بالخلافة مرور الطيف. ولما وصل إلى هارون الرشيد بعد أخيه الهادى سنة ١٧٠ للهجرة قال: «فكان أضخم الخلفاء اسما وأبعدهم صوتا وأشدهم فى الخيال تأثيرا» وكان لآل برمك من الفرس الفضل فى توليته، فلما أوقع بهم تباينت آراء المؤرخين فى الأسباب. ولمؤلفنا رأى خاص أو هو يميل إلى تأييد هذا الرأى أكثر من ميله إلى الآراء الأخرى، وعلى عهد هارون الرشيد تألفت دولة الأدارسة العلويين فى المغرب، ودولة الأغالبة فى إفريقيا إلا أن صاحبها كان يخطب للرشيد.

ويرى المؤلف أن هارون الرشيد ارتكب الخطأ الذى ارتكبه الأمويون بجعل ولاية العهد مستوية للأمين؛ لأنه من أم هاشمية وللمأمون بعده لأنه من أم فارسية. والسبب فى ذلك فى نظره تأثر القصر العباسى بسنن الملك الفارسى وتأثره بسلطان النساء. ولكن الرشيد أخذ على أولاده العهود بأن يفى بعضهم للبعض، فتحكمت مصلحة كل واحد منهما فى نفسه فنمى عهده، فالأمين جعل ولاية العهد بعده لابنه وكانت لأخيه المأمون وعزل أخاه القاسم من الحكم، والمأمون اتخذ خراسان وخؤولته الإيرانية وسيلة لبث الدعوة ضد أخيه الأمين فوصلا إلى الحرب والتطاحن، فقتل الأمين وصار المأمون خليفة فى بغداد.

هكذا يرقى بنا المؤلف من سذاجة[1] الدعوة الدينية فى بدء الفتح، إلى الخلافة، إلى الملك وولاية العهد، إلى أن ورث العرب الرومان والفرس والكلدان بالمدنية والحضارة والعلم. ولعلنا نلمح من المؤلف فى بعض المواطن تبرئة نفسه من الخوض فى بعض المباحث، فهل منشأ هذه التبرئة – كحكمه مثلا على خلافة عثمان – التفادى عن مصادمة الإجماع أو ما قام فى بعض الأذهان من تقديس التاريخ لاتصاله بأشخاص يُقَدَّسون؟ فقد يكون هذا وقد يكون سواه؛ لأن المؤلف لم يجعله موضوع بحثه، كما أنه مر بأخذ العرب المدنية عمن تقدمهم من الأمم مرور الطيف، كذلك كلامه عن الخلافة والملك من يوم حصر معاوية الإرث لولده، وحذا العباسيون حذوه وبقيت للناس البيعة مختارين أو مُكرَهين دون اختيار الخليفة اختيارا بعد الخلفاء الراشدين. وتعليل ذلك وتصويبه من الوجهة الشرعية محفوظ للفقهاء الذين تبسطوا فيه تبسطا كبيرا وعللوه للناس تعليلا طويلا إبقاء لاسم الخلافة والخليفة عند الأكثرية. والذى يُحمَد للمؤلف فوق ما بيَّنا أنه سار بمؤلفه مع القارئ من الأساس إلى القُنَّة[2] أى من بدء الإسلام حتى الذروة العليا من الحضارة العربية على عهد المأمون، حتى إذا ما وصل إلى تلك الذروة تبسط تبسطا مستفيضا. وهكذا يعرف القارئ أن لكل عصر من عصور التاريخ صلة بما تقدمه من جهة من جهاته، فعصر المأمون وليد ما تقدمه.

دامت خلافة المأمون ٢٠ سنة من ٢٥ محرم ١٩٨ إلى ١٩ رجب ٢١٨ هـ[3]وأقام فى خراسان قبل الانتقال إلى بغداد ٦ سنين وَوَقَعَ المأمون فى أول حكمه بين أن يرضى الفرس الذين أعانوه وعلى رأسهم الفضل بن سهل أو يرضى العرب وعلى رأسهم طاهر بن الحسين القائد الذى يرجع

١ - بساطة. الرائد، (سذج).
٢ - الذروة، و قنة كل شئ أعلاه. الرائد، (قنن).
٣- إضافة من المحرر.



إليه الفضل فى الانتصار على جيش الأمين، فمال إلى إرضاء الفرس اتقاء غضبهم ومجاملة العرب إبقاء لرضاهم.

ويعد المؤلف فوز المأمون على الأمين فوزا للفرس على العرب. ويدافع عن الأمين من تلك السخافات التى نسبت إليه ولا يقبلها العقل ولم تكن إلا اختلاق الدعاية ضده، وهذا حكم صادق ألا ترى أصحاب القصص يعزون إلى الخليفة الأمين شعرا منه

نحن بنو العباس نجلس على الكراسى.

كذلك فَنَّدَ المؤلف قولهم: إنه أتاه خبر تمزق جيشه وهو يصطاد السمك فلم يلتفت للخبر ولا اهتم، وسأل كم سمكة اصطاد وكم سمكة اصطاد رفيقه.

والناس من يلقى خيرا قائلون له ... ما يشتهى المعدم الهبل[1]

إن سياسة المأمون وتفضيله الفرس على العرب أثارت الفتن فى بلاده ولكنه تغلب عليها وساعده ضعف إبراهيم بن المهدى وإقصائه الفرس وقتل الفضل وزيره وانتقاله بعد ذلك إلى بغداد، وطرح علم العلويين وهو أخضر ورجع إلى علم العباسيين وهو أسود. وكانت سياسة المأمون أن يضرب بيد ويتقى[2] بالأخرى، كقتله الفضل ابن سهل وتوليته أخيه الحسن، كذلك تولية طلحة بعد وفاة أبيه طاهر القائد الذى كسر جيش الأمين وذلك مثال فقط.

أما الفتن فكانت تشب فى كل جهة وكان لمصر منها نصيب كبير إلى أن أخمدها عبد الله بن طاهر، وتبعتها فتن أخرى جاء المأمون مصر لإخمادها، وأقام المأمون بمصر ٤٠ يوما من ٥ محرم ٢١٧ إلى ١٨ صفر وأصلح فى مقياس

---

١ - البيت للقطامي، وأصله:

والناس من يلق خيرا قائلون له ... ما يشتهى ولِأمّ المخطىء الهَبَلُ

٢- فى الأصل (ويتلقى)، والصواب ما ذكرناه.

النيل، ثم ظهور الإباحية فى جهات فارس. والذى يؤخذ على المؤلف تفاديه فى باب النِّحَل والمذاهب عن ذكر تلك المذاهب الفلسفية التى ظهرت بعد اختلاط الشرق بالغرب، وكقوله: إن الكثير من هذه المذاهب لا يزال إلى اليوم غامضا مع أن وجودها دليل على قوة التفكير، وقوة التفكير وحرية الرأى من مفاخر عصر المأمون.

ومن كان فى جد المؤلف وعلمه وبحثه لا يعز عليه الوصول إلى تلك النحل والمذاهب، فهل تفادى عنها تفاديه عن سواها للسبب الذى ذكرناه.

وعالج المؤلف سياسة المأمون الخارجية، فقسمها إلى سياسته مع الدول الإسلامية المستقلة وسياسته مع الدول غير الإسلامية، فسياسته مع الدول الإسلامية عدم الاعتراف باستقلالها لاعتقاد الخلافة العباسية بأنه يجب على جميع المسلمين الخضوع لها. وهذا ما ورثه الخلفاء الترك حتى آخر عهد عبد الحميد. أما مع غير المسلمين فكانت فى المنطقة الشرقية اعتبارَها منطقة نفوذ، وفى المنطقة الغربية منطقة قتال وَفتْح وكان أكبر الجهاد مع قياصرة القسطنطينية.

واستفاض المؤلف بالبحث فى وزارات المأمون ورجال دولته والجند وديوان القضاء والمظالم والحسبة والثروة والدخل والأدب والعلم والدين واحترامه. وهناك فصل قيِّم للحياة العلمية على عهد المأمون، وهذه الحياة هى الحياة الوحيدة الخالدة لدولة العباسيين وأخصهم المأمون.

وجملة القول إن درس كتاب «كعصر المأمون» صرف مؤلفه ١٣ سنة فى تأليفه ورجع إلى المئات من أمهات الكتب، والتأليف يتطلب أكثر من هذه النبذة والتحقيق التاريخى يتطلب مجهودا عظيما كالمجهود الذى بذله المؤلف الذى تابع برودهوم القائل: «إن تاريخ المدنية هو بسرد الإصلاحات المختلفة»، وتابع برتو القائل: «التاريخ هو البحث عن الحقيقة على مصباح



الذكاء الوهاج».

كان الصينيون يولون قوما من العلماء كتابة تاريخ ملوكهم، فكان كل واحد يصون ما يكتبه فى صندوق مقفل فإذا مات الملك والكتاب فتحت تلك الصناديق وقوبل ما فيها بعضه للبعض حتى تستخلص الحقيقة، فهل يعد عمل المؤلف من هذا الطراز، وقد رجع إلى جميع المصادر واستخلص زبدة ما فيها فأوصلنا إلى حقائق كانت غامضة وإلى الأسباب والعلل ونتائجها، ودلنا بمجهوده على أنه عَمِل كل قوى عقله فكانت الرواية ثمرة الذاكرة والتحليل ثمرة العقل؟؟

لقد أهدى المؤلف كتابه إلى صاحب الدولة ثروت باشا ونحن نعده هدية للعلماء والأدباء والمتأدبين بل مدرسة جديدة للمؤرخين ليتبعوا الطريقة التى تجمع بين سرد الحوادث والحِكمة التى تستخلص منها، وهذا ما نهنئه عليه كل التهنئة ونعده فاتحة عصر جديد لطريقة التدوين واستنباط الحقائق الغامضة.

داود بركات

مصر قائدة نهضات الشرق[1]

في خطاب الأستاذ داود بركات بك رئيس تحرير الأهرام فى حفلة التكريم التى أقيمت له فى بيروت: «كانت مصر ولا تزال رافعة منارة الشرق وقائدة نهضاته ومعلمة شعوبه، ولا بد أن تتحول الوحدة الأدبية فى المستقبل إلى وحدة قومية وفاقا لسُنة الارتقاء التى ظهر تأثيرها فى مختلف الشعوب الأوروبية من قبل».

وحفلة تكريم الأستاذ داود بك والخطب التى ألقيت فيها تنطوى على معنى كبير. ذلك فى الصلات الأدبية القائمة بين مصر وجاراتها والتى أصبحت مصر واسطة عقد مجتمعها وآلفة ناديها. وهى صلات قديمة ترجع إلى عهد الفراعنة ثم عصر الإسكندر والبطاركة والرومان والعرب. وكثير من الأسرات المصرية إذا تقصيت سلسلة أنسابها وأحسابها بلغتْ حلقة الاتصال بينها وبين أسرات قائمة فى سوريا ولبنان، ولو امتدت السلسلة مئات السنين عددا. وقد أدرك محمد على باشا الكبير العلاقات المتينة القائمة بين مصر وسوريا، فأرسل إبراهيم باشا فى جيش مصرى احتلها وضمها إلى مصر. كما فتح الأبواب وأفسح المجال لنفر من أدباء لبنان وسوريا شغلوا مناصب التحرير والترجمة فى دواوين الحكومة. ووفد آخرون اشتغلوا بالأدب وأدخلوا فن التمثيل العربى فى مصر وتبعهم آخرون اشتغلوا بالتجارة. فكان هؤلاء جميعا رسل إخاء بين مصر، وجاراتها وعملوا فى مصر كما يعمل المصرى الأصيل لوطنه وعاشوا فيها مواطنين أعزاء تعرف لهم مصر جهودهم وصادق خدماتهم. كما كان الجامع الأزهر واسطة أخرى بين مصر والبلاد الإسلامية، وكان مشرق أنوار الدين الإسلامى. ولهذا السبب كان أوضح مهمة للأزهر

[1] - الأهرام، ٣ آذار/ مارس ١٩٢٧م.



يجب أن ترعاها اللجنة التى أُلِّفت أخيرا لإصلاحه- هى قيامه بوظيفة عقد الصلات القوية مع البلاد العربية وتخريج أساتذة يصلحون لتولى نهضتها بالعلماء المجددين؛ لأن تلك البلاد لم تزل ترعى فى نهضاتها العامل الدينى . ولاتزال تنظر إلى مصر بسبب وجود الجامع الأزهر بها نظر التلميذ إلى أستاذه .

***

وفى الحقيقة إنه مما تسرُّ له مصر ومما يجب أن تغتبط به كل الاغتباط أن تجد نفسها دون سعى ودون دعاية ودون جهد- زعيمة للبلاد العربية تُحتذَى مُثُلها فى الوطنية ومطلب الاستقلال التام وتقفو أثر نهضاتها التعليمية والأدبية، وتنحو منحاها فى النظم النيابية ومشروعات التجديد . ولكتاب مصر وشعرائها وزعمائها مقام فى تلك البلاد يعظم أحيانا على مقامهم فى مصر .

لقد اهتمت فرنسا ثم أمريكا بأن تبسط كلٌّ منهما نفوذها الأدبى فى سوريا ولبنان . فأنشأت المدارس والجامعات والمستشفيات وأنفقت الأموال على البعثات . وقد أصابت غير قليل من النفوذ والتقدير وعلو المقام .

ولقد عنيت إنجلترا ببسط نفوذها السياسى على البلاد العربية، واتخذت لذلك وسائل شتى بعضها تجارى . وقد كان من نتائج سياسة الاستعمار عند الحكومة الإيطالية أن ولت وجهها شطر البلاد العربية أيضا، فعقدت المعاهدة المشهورة الأخيرة مع اليمن .

والناظر إلى مساعى فرنسا وأميركا وإنجلترا وإيطاليا لبسط النفوذ الأدبى أو السياسى أو الاقتصادى فى البلاد العربية يدرك الجهود الكبيرة التى قامت بها تلك الدول والأموال والتضحيات التى اقتضاها ذلك .

ولكن مصر ليست فى حاجة إلى بذل مجهودات كبيرة أو تضحيات؛ فنفوذها الأدبى مبسوط، والقلوب بها متعلقة وامقة،[1] والمتعلق بها قائم تام. وإنما هى فى حاجة إلى استغلال هذه العلاقات الأدبية القائمة والاستفادة من زعامتها فى الشرق العربى. وذلك بالمعاهدات الجمركية، بعقد المؤتمرات الشرقية بتغذية البلاد العربية بالفنيين والإداريين والمشرِّعين بالاشتراك فى الاستقلال الاقتصادى.

وعندنا الآن مشروع إنشاء مجمع لغوى. والقراء يذكرون أنه عند حضور وفود أدباء البلاد العربية لتكريم سعادة أمير الشعراء أبدت تلك الوفود رغبتها فى عقد مؤتمرات أدبية سنوية تشترك فيها مصر والبلاد العربية فى سبيل النهوض بلغة العرب وتوحيد أساليب الكتابة والاستفادة من الجهود الفردية المبعثرة الآن. فحبذا لو أفسح للأكفاء فى جاراتنا سبيل الاشتراك فيه والانضمام إليه كأعضاء مراسلين على الأقل لهذا الأثر كل الأثر. ويسرنا أن تفطن الجامعة المصرية إلى أهمية العلاقات الأدبية بين مصر والبلاد الشرقية، فتُقدم على تسهيل السبيل على طلاب العلم فى تلك البلاد للالتحاق بالجامعة. ونحمد لجاراتنا انتهازها الفرص والمناسبات لتوثيق عُرَى الإخاء بيننا وبينها. ومشاركتها لنا فى شعورنا وآلامنا وأمانينا. ونستحث جميع العاملين عندنا للعمل على الاستفادة من العطف والتقدير اللذين يبديهما إخواننا فى البلاد الشرقية، وأن يكون من وراء ذلك الخير كله للشرق العظيم.

(نائب)

١- مُحبَّة. الوسيط بتصرف. (ومق).



فى لبنان وعاصمته[1]

(١)

إذا دخلت اليوم بيروت عاصمة لبنان– وقد عرفتها قبل الحرب وبعد الهدنة– تَنَكَّر عليك من أمرها ما عرفت .. وغُمَّ ما عهدت لولا جنباتها الباقية، ولهجة سكانها بالإمالة، ونبرات أصواتهم اللاذعة. وقد عجزت مدارسها وهى مدينة العلم عن التغيير فى ذلك أو تبديله. فليس بَحَريُّها أو نُوتيُّها اليوم ذلك الشرس الذى يقبض عليك وعلى أمتعتك قبض المالك على مُلكه والقوى الجبار على الصعلوك الضعيف. ولا هو ذلك الجلاد الذى يوزِّع حينا لكماته وضرباته على من شاء أو استضعف– وكل قوى ضعيف تجاه جبروته وسلطانه– وأحيانا طعنات مَديته على من يأبى دفع الإتاوة التى يريد بين سمع البوليس وبصره. والبوليس هو الذى ملَّكه رقاب العباد. بل إن ذلك البحرى أو النوتى هو الآن العامل الأمين النشيط بل الرجل المهذب يخدمك بإخلاص ويسعدك بتؤدة ولين ويرشدك بأمانة، حتى أنك تفضله على بحرية جميع موانئ البحر المتوسط فى إفريقيا وآسيا وأوروبا إذا أنت عرفتهم وخَبَرتهم.

كذلك قل عن عمال الجمارك؛ فإنك لا تكاد تحس أو تشعر برقابتهم وشهد بذلك ثمانية آلاف و٢٠٠ مصرى اصطافوا فى هذا العام فى جبال لبنان.

وعرفوا أن الحكومة كانت قبل اليوم تجعل من أولئك البحرية والنوتية وعمال الجمارك حتى الحوذية ذئابا خاطفة، وتبيح لهم راحة الناس وعرضهم ومالهم حتى تمتلئ جيوب البوليس ومن هم فوقه رتبة وقوة وسلطانا من ثمار تلك المعاملة الوحشية، والحكومة كما يقولون مِلح الأرض فإذا فسد الملح– يقول الانجيل– فبماذا يُملَّح.

[1] ١- الأهرام، ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٧م.

دع عنك نظام الحكم ومسلك الحكام وانظر إلى روح الجماعة. فحسبك أن تكون مصريا أو مقبلا عليهم من مصر حتى تلقى صدورا رحبة، ونفوسا طيبة، وحُبا لا تخامره الريبة، وإخلاصا لا يساوره الشك.

ذلك مقام المصرى اليوم من نفس الشعب اللبنانى والسورى العربى على وجه عام. ولذلك أسبابه وعلله فهى فى لبنان حب متوارث من عهد محمد على والأمير بشير وقد كانا خليفتين أفضى تحالفهما السياسى إلى تحالف شعبيهما الأدبى والعلمى ورابطة العلم والأدب فوق رابطة القرابة والنسب، فقد ظل ٢٥ طالبا لبنانيا يتلقون العلم فى مصر مجانا من عهد محمد على حتى عهد الاحتلال الإنكليزى، وظل العلماء اللبنانيون يخدمون مصر حتى توافر لمصر علماؤها من أبنائها. وهوى بلاد العرب كلها تطور وتحول، فبعد أن كانت نفس مصر ذاتها ونفوس الشعوب العربية الأخرى تهوى إلى الأستانة لأن تركيا هى الدولة الشرقية الوحيدة القوية تحولت تلك النفوس إلى مصر بعد نهضتها الأخيرة، وبعد أن نفض الترك يدهم من الشرق والشرقيين وأرادوا أن يلحقوا بالغرب وأن يكونوا غربيين بتقاليدهم وأزيائهم وشرائعهم ونواميسهم وكل شيء عندهم.

فمصر اليوم هى الأم وهى مناط الأمل وهى مرمى الأنظار وهى موضع الإعجاب، فيكفى أن تقول إنك مصرى حتى تلقى الترحاب وحتى تجد الحب وحتى يؤدَّى لك الإكرام، والذين تجولوا فى عاصمة لبنان وطافوا أوديتها رأوا رسوم زعماء مصر وأمرائها وعلمائها وأدبائها فى كل مكان، وإذا كان أحد علماء الاجتماع قد قال: «اقرأ ميول الأمم على جدران بيوتها وما تخطه الأيدى على تلك الجدران». فإنك لا تعدم على كثير من جدران بيروت كلمة (فليحيى سعد!)، وهى أفصح بيانا وأبلغ تبيانا من كل قول وبيان.



إذا دخلت اليوم بيروت- وقد عرفتها قبل الحرب وبعد الهدنة- تنكر عليك من أمرها ما عرفت وغم ما عهدت. فشوارع واسعة مرصوصة وبناءات شاهقة مزخرفة، وحركة بالذهاب والإياب تهتز لها أرضها، ومخازن فخمة ودور كأنها القصور، ومدارس ومعاهد ومكاتب ومتاحف، كل ذلك قام مقام الأكواخ والحارات والأزقة والزواريب والتعاريج، فإذا التقيت بأحد رجال البلدية أو رجال الحكم كان السؤال الأول الذى يوجهه إليك بعد التحية «كيف تجد مدينتنا»؟ وتلمح فى عين السائل ولهجته هزة الإدلال والإعجاب التى لا تخلو من المفاخرة، وإذا أنت سألته كم كان عدد سكان مدينتكم عند عقد الهدنة وكم هو الآن، وكم كان دخل بلديتكم وكم هو الآن قال لكم: إن عدد سكانها كان ٧٠ ألفا وهو الآن ٢٢٠ ألفا، وكان الدخل غير معروف لأنه كان يذهب إلى إستانبول وجيوب عمال إستانبول. وهو اليوم ١٢٠ ألفا ينفق على المدينة فلا تتمالك وأنت تسمع هذا القول عن أن يخطر بخاطرك قول علماء الاجتماع: «المدن مقابر الأمم والشعوب ولكنها مقابر مزينة». وإذا ألقيت بعد ذلك نظرة على الجبل والسهل والساحل والصرد الآن وجدت أهلها يتسربون إلى بيروت الجميلة كما يتسرب الماء من رءوس الجبال إلى الهضاب، فيخامر إعجابُك ببيروت الحديثة إشفاقَك من أن تصح كلمة العلماء فى ذلك الشعب الصغير، وإذا أردت أن تُبين سبب هذا التسرب إلى بيروت من القرى والدساكر فابدأ بنظام الحكم، تجد كل شيء قد تركز فى بيروت، فبيروت هى الآن كل شيء وبيروت قد ضمت كل شيء، وبيروت قد تستنفد غدا كل شيء إذا هى ظلت مركز كل شيء. فهل تستطيع بيروت أن تقوم مقام البلاد المحيطة بها؟ وهل يفكر أولو الشأن وولاة الأمور إذا هم رأوا هذا التضخم وقد بدا ظاهرا للعيان فى اتخاذ خطة اللامركزية فيوزعون المصالح والدواوين والمدارس والمعامل... إلخ على الأنحاء الأخرى حتى تظل حية.

لا أريد بهذه الكلمة أن أنقل أحاديث بعض الكبراء الذين سمعت رأيهم بهذا الصدد، ولكنى أنقل عنهم أنهم لا ينوون إسكان الأرمن جميعا فى مدينة بيروت- وهم فى أنحاء جبل لبنان ٥٠ ألفا- بل قررت الحكومة إرسال أربعة آلاف منهم إلى ناحية راشيا التى اجتاحها الثوار وأنهكتها الثورة. وخصت الحكومة بتعميرها وتعمير القرى الأخرى ٢٠ مليون فرنك، وعمرت حتى الآن مما تهدم ٦٠٠ منزل.

وعلى ذكر الأرمن فى لبنان وسوريا أستطرد إلى كلمة قالها لى أحد زعمائهم الكبار وهى أن ١٢٠ ألف أرمنى هبطوا بلاد اليونان فاستنفدتهم وكادوا يصيرون يونانيين أما الخمسة والثمانون ألفا الذين لجأوا إلى سوريا ولبنان فإن جمعياتهم الضخمة الغنية فى أنحاء العالم كله تبذل كل ما بوسعها لإبقائهم «أرمن» لا يستنفدهم الشعب السورى والشعب اللبنانى، ولهم فى ذلك أساليب وطرق عديدة عمادها المال، ولا تعرف شعبا يجود أغنياؤه بالمال لأبناء طائفته كأغنياء الشعب اللبنانى.

وقال لى بثقة من رجال حكومة لبنان: إن الأجانب قد ازداد فى هذه البلاد عددهم ازديادا كبيرا جدا. وهذا القول يثبته لك حين مرورك بأحد شوارع بيروت سماع الرومية والطليانية والإنكليزية والفرنساوية والألمانية فتلتفت متسائلا هل تكون بيروت غدا كالإسكندرية وبورسعيد اليوم؟ ويرد الأهالى على هذا السؤال بأن الأجانب لا يلقون مساعدة من الحكومة ولا يستطيعون مسابقة الوطنيين فهل هذا القول صحيح؟ أما أنهم لم يستطيعوا المسابقة والمزاحمة فى الماضى فليس ذلك دليلا على عجزهم اليوم أو على عجزهم فى المستقبل، فالاستنامة لهذا الوهم والخيال قد تتكشف غدا عن خيبة الآمال.

إذا دخلت بيروت- وقد عرفتها قبل الحرب وبعد الهدنة- تسمع الشكوى



من الأزمة المالية والتجارية والصناعية، وتسمع هذه الشكوى من كل لسان ولكنك إذا أرسلت بنظرك إلى الدُور تُشاد، وإلى القصور تنبت من الأرض نبات عشب الربيع، وإلى القرى المهدمة يعود إليها العمران رويدا ثم عرفت أنه ليس هناك بنوك عقارية ولا بنوك للرهن، وكل ما يُشيَّد ويُعمَّر ويصلح إنما هو يشيد ويعمر ويصلح بمال الأهالى وأذرعهم. تساءلت ومن أين أتى المال للقيام بمثل هذه الأعمال خلافا لما فى فلسطين، فإن الأهالى باعوا من اليهود الأراضى وشيدوا بأثمانها الدور. ويقول بعض الماليين: إن المال المتوافر للأفراد فى بيروت وسوريا هنا هو المال المخزون من أيام الحرب ومن وراء إسراف الترك والألمان. وإذا نظرت إلى العامة بعد الخاصة وجدتهم فى عيشة راضية ومرح وفرح وتألق بالملبس والمأكل، سواء فى ذلك القروى والحضرى والجبلى والمدنى، وسبب ذلك غلاء أجور العمال غلاء يصح أن يوصف بأنه فاحش. فبعد هذا كله لا يبقى عندك شك ولا ريب بأن للناس مطامع واسعة، وبأن كل واحد منهم لا يرضى أن يكون دون سواه، وأن الرضا بالكفاف أو بالكفاية ليس من فضائل اللبنانى الذى يطلب من كل نعمة مزيدا، فهو فى سبيل هذا المطلب يود لو تناول الشمس بيديه وألصق القمر بكفيه فإذا شكا من الأزمة فشكواه صحيحة. والناموس الطبيعى يملى علينا أن الإنسان يطلب لنفسه أجلّ مغنم بأقل عناء. وسواء صح قولهم أو لم يصح فإنك إذا دخلت بيروت اليوم وجدتها طروبة وإذا طفتها وجدتها على هذه الحال وإذا تفحصت أمرها وجدتها جديدة، فبيروت اليوم هى بالإجمال غير بيروت بالأمس.

داود بركات

فى لبنان وعاصمته[1]

(٢)

كل دولة حديثة وكل حكومة جديدة تفخر بكل حديث وجديد عندها كما يفخر البستانى بزهرة استنبتها وغرسة غرسها فأنماها، فحكومة لبنان فخورة ببيروت الجديدة، كما قلت فى الكلمة الأولى. ومصدر فخرها المقابلة بين الماضى القريب والحاضر الحديث. وهى فخورة أيضا بدار الكتب، وبالمتحف الأثرى، وبدار الصناعة ومدرستها. ولا يسوغ لأحد أن ينكر عليها هذا التفاخر والازدهاء، فمن العدم أبرزت إلى الوجود هذه الدور الثلاث التى زرتها واطلعت على ما فيها.

وإذا كانت الحكومة اللبنانية قد وفِّقت فى هذا العمل فلا شك عندى ولا ريب بأنها قد وفِّقت أيضا برجلين مخلصين وعاملين ذكيين توليا أمر تلك الدور الثلاث: فألفونس أيوب مدير الاقتصاد الذى تولى تنظيم دار الصناعة وإدارتها رجل يجمع بين العلم والنشاط والنزاهة ورقة الطباع والخلق الكريم. استلم دار الصناعة جدرانا مهدمة من ميراث الترك فى أجمل بقعة من بقاع بيروت فتوصَّل على قلة المال وضعف اهتمام رجال السياسة إلى جعلها جنة فى بقعة من الرمال قفراء، ونظم فيها علم الحدادة والصب والسبك والنجارة والنسيج والكهرباء... إلخ على أحدث الطرق والأساليب، ودَخَلها الطلبة من الأسر الراقية بأجور زهيدة أو بلا أجر، لأنه يشترط لقبول الطالب أن يكون مُلما بالفرنساوية والعربية والحساب. والطالب لا يتعلم الصناعة فقط، بل يتعلم العلم أيضا حتى يقرنه بالعمل. ومدة التعلم أربع سنين ولضعف الميزانية لا يزيد عدد الطلبة على ٩٥ ولا يزيد عدد الذين يقبلون فى كل سنة على ٣٥. ولقد حدثنى هو وحدثنى أساتذة المدرسة عن كثرة الإقبال

١ ـ الأهرام، ١٠ كانون الأول ديسمبر ١٩٢٧م.



على هذا المعهد حديثا تطيب له النفس، ورأيت من دقة الصناعة وجد الطلبة وانكبابهم على العلم والعمل معا ما يبشر لبنان بمستقبل للصناعة باهر ودار الصناعة لا تعلم الصناعة الأوروبية فقط بل تجمع بين الصناعتين الأوروبية والشرقية. وقد رأيت معلمى النسيج وقد جىء بهم من مدينة ليون يزورون المناسج الوطنية ويعجبون بكثير من أفانينها، ويعدون أنفسهم لصيانتها فى مدرستهم وتعليمها لتلامذتهم وقرنها بصناعة بلادهم. أما الأكل والنوم والنظافة والرياضة وغير ذلك مما تعنى به المدارس الراقية فلا أظنه فى مدرسة من هذه المدارس أفضل منه فى تلك الدار الجميلة وناظرها سويسرى ومعلموها ومساعدوهم من الفرنساويين والوطنيين.

فهل تقف الحكومة اللبنانية عند هذه المدرسة الوحيدة أم هى جادة فى إتمامها وفى إنشاء سواها فى جهات أخرى؟ ولقد كانوا يطرحون علىَّ السؤال الآتى، هل تعادل مدرستنا إحدى المدارس المصرية؟ ومغزى هذا السؤال إن مصر حازت فى الشرق المثال الذى يُنسج على منواله.

وفقت الحكومة بالفونس أيوب مدير الاقتصاد وبالكونت فيليب طرازى الذى أنشأ دار الكتب وجمع فيها حتى الآن ٧٠ ألف مجلد فى سائر العلوم والفنون، فهو رجل وقف حياته على ذلك منذ حداثة سنه. فمع قلة الأموال والأعوان والمنشطين والمشجعين لا يكل ولا يمل بل يعمل ويجد ويبحث وينقب ويستعطى ويستجدى ليجعل دار الكتب اللبنانية كسائر الدور الشرقية الراقية، ولو أنه وجد من أغنياء بيروت ولبنان ومن اللبنانيين المهاجرين المساعدة والعون كما يلقى أمثاله لأتم عمله وصارت دار الكتب اللبنانية على ما أراد وانتوى، ولكن الفقراء الذين يعرفون نتيجة عمله أعجز من أن يعينوه، وإذا هم أعانوه فبالقليل الذى قد يصل إلى الكثير لو أنه كان من الكثيرين، ولكنه قليل من القليلين فهو لا يكفى. أما الأغنياء-

بعض أغنياء بيروت فلا حساب لهم حتى الآن فى الأعمال العامة وإن كانت لهم الحسابات الضخمة فى البنوك والخزانات؛ لأنهم قوم- ولا أريد التحامل عليهم أو الطعن فيهم- ما ذاقوا لذة العلم ليخدموه بالتبرع أو بالتأييد، ولم أسمع عن غنى واحد من هؤلاء جمع مكتبة فى داره أو حوت خزانته غير دفاتر الحساب لدخل العقار أو المال.

حدثنى صديق كان فى باريز أن جماعة الأرمن فيها أنشأوا لطائفتهم مكتبة كبرى، فابتاع بوغوص باشا نوبار لتلك المكتبة دارا بمبلغ ٣٥٠ ألف فرنك وأهدى إليها فوق ذلك ثلاثة آلاف كتاب، وحذا حذوه كل غنى أرمنى. أما فى لبنان فإنك لا تسمع مثل هذه الرواية عن غنى من الأغنياء بل تسمع الضد، وترى فاصلا عتيا يقوم بين عامة الشعب ومصالحه وبين أصحاب الثراء الذين يكادون يعدون أنفسهم منفصلين عنه إلا بتمنيهم على الحكام أن يقضوا مصالحهم وعلى الناس أن يجلوهم ويحترموهم. وقد ضيق بعض هؤلاء دائرة الانتساب ذاتها على نفوسهم، فإذا هم انتسبوا فإلى بيوتهم أو (...)[1] فقط وإذا وسعوا الدائرة بعد ذلك فإلى مدينتهم حتى يصعب أو يعز عليهم أن تقول لأحدهم أنت لبنانى أو سورى أو عربى أو شرقى فكيف لك بعد ذلك أن تقول له أنت «وطنى». فتطالبه بحق الوطن عليه أو بحقوق الوطنية أو القومية، أو كيف يجد من نفسه دافعا فى هذه السبيل ووازعا يَزَعه عن الضلالة إلى الهدى..

على أن من الأغنياء السراة من يقومون بأعمال البر والإحسان ويندمجون بالشعب، ويقدمون وطنهم على أنفسهم، ويفخرون بكل وطنى نابغ، ويشجعون كل عمل نافع وهؤلاء تصح فيهم كلمة (التوراة) «لو لم يكن فى أورشليم صالح لخربت». وقد شجعت الحكومة الفرنساوية دار الكتب، فأهدت إليها على يد الكونت طرازى آلافا من الكتب النفيسة

١- كلمة مطموسة فى الأصل.



فى كل علم وفن وجمع لبناء هذه الدار مبلغا من المال، فإذا جَدّت الحكومة وحزمت فى الأمر، وإذا سمع اللبنانيون الدعوة وتبرعوا لهذه الدار بالكتب والمؤلفات والمخطوطات فإن هذه الدار تصبح بعد قليل دارا غنية نافعة، يجد فيها علماء لبنان وأدباؤه حاجتهم. والحكومة التى تفخر بهذه الدار على حداثة عهدها والتى خصت مبلغا من المال لإنشاء معهد علمى تلقى فيه المحاضرات العلمية والأدبية، لا تستطيع أن تقف فى منتصف الطريق. واللبنانيون الذين يمضغون كلمة (الوطنية والوطن) لا يسوغ لهم إهمالها دون التبرع لها ومساعدتها. والوطنية الصادقة هى التى تعمل كثيرا وتتكلم قليلا أو هى التى تجعل العمل أفصح لسانا من كل لسان.

***

أما المتحف الذى جمعوا فيه ما وصلوا إليه من آثار جبيل وبيروت فإنه يعد نواة صالحة طيبة، فهو فوق دلالته على صلة مصر بلبنان منذ آلاف السنين قد حوى ناموسا نقشت عليه أقدم كتابة فينيقية أو أقدم كتابة فى العالم ،وهذه الكتابة وأمثالها تصحح كثيرا من التاريخ القديم وتوضح كثيرا من غوامض ذلك التاريخ. فإذا كان الموجود فى المتحف قليلا حتى الآن فإنه فى ذاته وجوهره ودلائله كبير الأهمية جليل الشأن، وسيظهر شأنه العظيم بعد شأن الآثار المصرية يوم يتم حل الرموز جميعا ويوم ينتهى العلماء من الدرس، ويوم تتوصل مصلحة الآثار إلى الكشف عن خبايا الأرض فى جبيل وصيدا أقدم المدن البحرية اللبنانية وبعلبك وسواها من المدن فى الداخل، وقد رأيت فى المتحف آثارا جىء بها من ساحل الفرات، و(هى)[1] من الوجهة العلمية ذات قيمة كبيرة وستنشأ للمتحف دار فى حرج بيروت وحينئذ فقط تستطيع عاصمة لبنان أن تقول إن عندها متحفا؛ لأن كثيرا من الآثار وكثيرا من الكتب لا يزال مكدسا فى الصناديق لضيق دار الكتب ولضيق دار الآثار.

١- إضافة من المحرر ليستقيم السياق.

وهنا يخطر لى أيضا ضرر المركزية التى تكلمت عنها فى كلمتى الأولى، فإذا كانت دوائر الحكم والعلم قد ركزت كل شيء فى بيروت، وإذا كان الأهالى يتسحبون من أجل ذلك رويدا رويدا إلى بيروت فإنى ممن يخشون أن تصير بيروت غدا لبنان، وأن يظل لبنان للاصطياف فقط. وإذا كان الحكام ورجال الحكم يريدون خدمة أنفسهم وتوفير ملذاتهم بالإقامة بمدينة كبيرة فهل تضحّى البلاد فى سبيل راحتهم ولذاتهم؟

ولو أنى أردت التعرض للسياسة فى هذه الكلمة لقلت: إن دار المفوض السامى تفخر بإنشاء هذه المعاهد كما تفخر الحكومة الوطنية فهل هما يتجاذبان (مُلاءة)[١] الفخر، أم أن المفوضية أمرت فأطاعت الحكومة اللبنانية على نحو ما يعتقد اللبنانيون، أو أن المفوضية أشارت والحكومة اتبعت الإشارة على نحو ما يقول رجال الحكومة. أما نحن الذين يسجلون الأعمال فإن همهم أن تكون للبنان حكومة مستقلة بالرأى أو ذات رأى حر مستقل، وحكومة تفكر بالصالح فتتوخاه، وحكومة تسمع القول فتتبع أحسنه، وتنفر كل النفور من أقلام فى أيدٍ وطنية تحركها أيدٍ أخرى بلا بحث ولا درس ومن أسوأ الأمور وشرها مغبّة أن يقوم فى ذهن الشعب أن حكومته لا تحكم أو لا تعرف كيف تحكم على أنه يهمنا عمل الصالح النافع أيا كان العامل إذا لم يستطع الوطنى أن يعمل، لذلك كان مطلب الرأى العام اللبنانى والسورى أن ترسل فرنسا إلى بلادهم الإخصائيين الذين يرشدون سوريا ولبنان إلى ما لا تعرفان لا الموظفين الذين غضت سوريا ولبنان بهم قبل الانتداب فكيف يجوز أن يأتيهم الانتداب بمن ينطبق معهم المثل القائل «ضِغْثٌ على إبّالَةٍ»[٢].

داود بركات

١ - فى الأصل (ملأة)، والصواب ما ذكرناه.

٢- مثل يراد به اجتماع البلايا. والإبالة: الحُزمة من الحطب. والضغث: قبضة مختلطة من حشيش رطب ويابس. مجمع الأمثال للميدانى (بتصرف).



فى لبنان وعاصمته[1]
(٣)

تجدُّ حكومة لبنان ويجدُّ اللبنانيون فى أن يجعلوا جبلهم الجميل مصيفا يضارع أشهر مصايف الغرب، ففى هذا وحده قد يكون الاتفاق تاما كاملا بين الرأى العام اللبنانى وجميع الذين يتولون حكم لبنان أو يتحكمون فيه. فالفنادق تزاد فى كل عام إتقانا، والمتنزهات تُنشأ فى كل جهة، والأهالى يبذلون فى سبيل ذلك عن سعة ولا يضنون.

وإذا كان المشهور عن الفئتين الحاكمة والمحكومة هناك استشارة الميزان الحساس فى كل عمل من الأعمال لمعرفة الربح والخسارة. فإنهما فى هذا الموضوع يندفعان فى تيار واحد بلا تردد ولا تلكؤ.

فالذى يُعد البناء للاصطياف ينفق عليه آخر قرش دون أن يتساءل عما يكون الدخل. والذى يُعد الفندق يفعل مثل ذلك، والقرية التى تمهد الطريق للمصطافين لا يسأل أهلها عن مصير مالهم الذى ينفقون، وكل ما يقوله الجميع وقد جعلوه شعارهم أن الاصطياف مورد رزق طيب، فليكن مقام المصطافين بيننا طيبا بجميع الطرق والوسائل. وكل ما يقوله الجميع ويعتقدونه أن لبنان لم يستكمل معدات الاصطياف وأن الجهات المعدة لنزول المصطافين لهى على جمالها وطيب هوائها ليست كسواها من الجهات التى يصعب الوصول إليها الآن بجمال المناظر وطيب المُناخ وعذوبة الماء وجودة الهواء.

ووضعت الحكومة الرقابة على الفنادق والقهوات والمشارب والمتنزهات والأوتومبيلات حتى لا نخرج فى معاملة المصطافين عن الحد المشروع .

١ - الأهرام، ١٢ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٧م.

وأعدت الجوائز للفنادق المتقنة، وأعدت الدفاتر والسجلات لتسجيل شكوى المصطافين، وأصدرت الأوامر الشديدة إلى الجمارك بتسهيل دخولهم البلاد حتى لا يشعر المصطاف الغريب أنه قادم من بلد غريب إلى بلد غريب.

ولا شك بأنها نجحت في ذلك كله نجاحا كبيرا. والذين ألفوا الاصطياف في ذلك الجبل يعرفون التقدم العظيم في هذا السبيل، ويعرفون أنهم يجدون في كل صيف فتحا جديدا في الإتقان والتقدم من كل وجه، ومنطقة جديدة قد فتحت للاصطياف والنزهة، ويعرفون أن الطرقات الجديدة تُصلَح وتمهَّد للراحة، وأن الطرقات القديمة تغير وتبدل بأحسن منها.

فهناك الآن جد ظاهر واجتهاد عظيم وبذل في هذا السبيل مهما كبر لا يمكن أن يعد بحال من الأحوال إسرافا، بل يظل يعد ضَنًّا لكثرة ما يطلبه العمل من الإتقان، ولكثرة ما هو باق أمام الحكومة والأهالي من المجال الواسع الشاق. وإذا كانوا قد قالوا إن المزاحمة هي روح المتاجرة فإن هناك بلا شك ولا ريب مزاحمة قوية منزهة عن الاحتكار الذي بليت فيه الفنادق والمشاتي المصرية بلاء شديدا. فاستبد المحتكرون بالسياح وطلاب الإشتاء في مصر، فقل عددهم وكثرت شكواهم لغلو الأجور، فانصرفوا عن مصر إلى سواحل البحر الأبيض، وقد راعى اللبنانيون ذلك، والواجب عليهم أن يستمروا ويدأبوا على هذه المراعاة، لأن الربح القليل الذي يحصل من الكثير لأكبر من الربح الكبير الذي يؤخذ من القليل. وإذا كانت هناك مزاحمة بين لبنان وسواه فإن هذه المزاحمة في الأسعار أكثر منها في الهواء والماء وجمال الطبيعة ووحدة اللغة والعادات التي لا يجد معها لبنان مزاحما له قط.

***



المصطافون فى لبنان ثلاث فئات: المصريون، وسكان المدن اللبنانية وسواحلها. وهناك فئة رابعة من جماعة الأوروبيين ليست كبيرة حتى تعد إلى جانب الفئات الثلاث الكبرى. وقد أربى عدد العراقيين المصطافين فى لبنان فى هذا العام على الألفين، وأربى عدد المصريين أى الذين وفدوا من مصر على لبنان على الثمانية آلاف. ولم تصطف هذه الألوف فى الفنادق فحسب، ولكن الأكثرية تفرقت فى القرى الكبيرة والصغيرة حتى إنك لتجد منهم حيث لا تقدِّر أنهم موجودون لاختلاف أمزجتهم ومطالبهم ومقدرتهم المالية وحالتهم العائلية وصلاتهم بفريق من أهل تلك البلاد.

ولا أظن أن فريقا منهم أو فئة من فئاتهم لقيت غير الترحاب ووجدت غير رحابة الصدر ولمحت فى عيون الأهالى أو معاملتهم غير الحب والولاء والمودة، لا لأنهم مصطافون فقط ولا لأنهم ضيوف – وإكرام الضيف سجية مطبوعة على نفوس اللبنانيين والسوريين لم تغيرها حتى الآن ونأمل ألا تغيرها الروح المادية التى عمت أوروبا – بل لأن نفوس أهل الشرق القريب أو البلاد العربية كلها تهوى الآن إلى مصر بعد أن تحولت نفس مصر ونفس البلاد العربية عن الأستانة فصارت مصر هى الأم بل صارت مناط الأمل وهى المثال الأعلى الذى يُحذَى حذوه وتطوقه الأمانى والآمال.

يُخيل إلى المصرى الذى لم يألف السفر إلى تلك البلاد ولم يألف الاصطياف فيها أن هناك سفرا، وأن السفر– على حد المثل القديم الذى ينطبق على العصر القديم عصر الجمل والفرس– قطعة من العذاب. أما الذين سافروا إليها واصطافوا فيها واكتسبوا الصحة والراحة والهناء، فيعرفون أن الحدود التى أقامتها السياسة بين مصر وسوريا ولبنان إنما هى حدود مصطنعة لا تغلب الطبيعة وحكمها. فالمسافر لا يحس أقل

إحساس أنه انتقل من بلد إلى آخر لا يقطع المسافة. والمسافة قصيرة جدا لا تزيد على ٢٠ ساعة، إما بالسكك الحديدية والأوتوموبيل وإما بالبحر ولا بتغيير الوجوه والألسن والعادات والتقاليد. والشعب واحد ولغته واحدة وعاداته وتقاليده واحدة. وقد يُعنى اللبنانى بالمصرى فى جبله أكثر من عناية المصرى بالمصرى فى وطنه؛ لأنه أخ وافد وضيف محبوب.
وهذه المسافة القصيرة تقطَعُ مراحلَ، يلقى المسافر فى كل مرحلة راحته، فالمسافر بطريق البر يغادر القاهرة فى الساعة السادسة مساء وينزل للراحة فى القنطرة على مجرى القناة، ثم يركب القطار فإذا هو عند الفجر فى غزة، ويرتاح نصف ساعة فى اللِّد. ويجد فى القطار الفراش للنوم والأكل والشرب إذا أراد. ويبلغ حيفا فى نحو الساعة التاسعة أو العاشرة، ومنها يركب الأوتوموبيل ويتناول الغداء فى بيروت أو فى محل اصطيافه إذا هو شاء، فاجتياز المسافة من الأقصر إلى القاهرة أشد وأتعب من اجتيازها من القاهرة إلى بيروت ولبنان. وهناك شركات الاصطياف التى لا تكلف المسافر عناءً بنقل أمتعته وبإعداد محلات ركوبه أو غير ذلك مما يطلبه، بل هى تُعدّ له جميع ذلك إذا هو شاء دون أقل زيادة فى الأجرة، لأن ربحها وأجرتها من العمولة التى تتناولها من السكك الحديدية أو سواها.
كذلك قل عن السفر بالبواخر من الإسكندرية وبورسعيد. أما الجمارك فقَلّ أن تُفتَح فيها حقيبة المصطاف سواء كان فى ذهابه أو إيابه. وإذا لم يكن عارفا المصاريف وأسعارها فإنه يجد على الميناء ويجد فى دور الحكومة ويجد فى الفنادق كلها من يرشده ويهديه، ويجد فى شركات الاصطياف من يجد له المنزل إذا أراد منزلا وبالسعر الذى يريد، والفندق إذا أراد فندقا بالسعر الذى يتفق مع ماليته.

ولا شك بأن الحكومة اللبنانية تُشكر على عنايتها بالمصطافين سواء



كان فى الجمارك أو فى الفنادق أو سواها . ولقد سألت الرجل النشيط النزيه الفونس أفندى أيوب مدير الاقتصاد الموكولة إليه الرقابة عما يلقى من الشكاوى فأخبرنى بأنه لم يتلق سوى شكويَين اثنتين فقط عن سائق أوتوموبيل فعاقبه، وفى ذلك أكبر دليل على اتفاق الجميع على حسن معاملة المصطافين.

أما الأمن والراحة فلا نظن أن بلدا من بلاد الله يتمتع بالراحة والأمن والأمانة كجبل لبنان، ففى لبنان يصطاف عشرون ألفا من أهالى المدن والسواحل والأجانب، فلا يذكر واحد منهم أنه فقد قرشا واحدا أو أنه ائتمن شخصا أو خادما على شيء تافه أو ثمين فخانه. وقد وقع يوما لخادمة أن وجدت فى غرفة أحد المصطافين محفظة كبيرة، فارتاعت وخافت وبكت أمام المصطافين مخافة أن يكون صاحب المحفظة قد أنفق منها شيئا ونسيه . وبعد يومين اثنين عاد صاحب المحفظة فدفعتها إليه فعد ما فيها وهو ٣٦٠ جنيها، فلما أراد مكافأتها أبت ونفرت . وإذا كنت بهذا أثبتُ واقعة وأرسمُ صورة فلا أود أن يفهم الذين يقرأون هذه الكلمة من أصحاب الفنادق وخدمهم وأصحاب الأوتوموبيلات وسواهم أنى أكيل لهم المدح جزافا وأنهم منزهون عن العيوب، فإن لهم عيوبا كثيرة وإن فى الدُور والفنادق نقصانا لا يزال بيِّنا، فعليهم أن يتموا هذا النقص، وعليهم أن يجدّوا ويتباروا، وعليهم أن يتعلموا، وعلى الحكومة أن تزيد من الرقابة لا سيما رقابة الأوتوموبيلات وأجورها، وأن تطبع بالأسعار بيانات يستطيع أن يطّلع عليها المصطاف ليحاسب بها ويعتمد عليها ويمنع الفوضى .

والواجب أيضا على الحكومة أن تقضى على سائق كل أوتوموبيل أن يلبى دعوة الراكب إذا كان خلوا من العمل بالأجر المقرر دون أقل زيادة .

وخلاصة القول، يجب أن نواصل الإصلاح فى كل وجه من الوجوه لا الاكتفاء بما هو موجود، فإن الموجود لا يكفى.

داود بركات



في لبنان وعاصمته[1]

(٤)

كنت تدخل قبل اليوم عاصمة لبنان- بيروت- وتطوف لبنان من جنوبه إلى شماله ومن شرقه إلى غربيِّه فترى الرجال بسراويلهم الفضفاضة. وطرابيشهم أو عممهم المستديرة وقنابيزهم[٢] الزاهية. والنساء بالفساتين الديما، وكنت تسمع أطفالهم إذا التقيت بهم على جوانب الطرق يحيونك بكلمة (صباح الخير) أو (مساء الخير)، ونرى فوق ذلك مخازن الكتب مبثوثة هنا وهناك... إلخ إلخ.

أما الآن فلا تكاد عينك تقع على سروال فضفاض، ولا على قنباز زاهٍ، ولا على زنّار[٣] لامع ولا على كوفية مستديرة فوق الرأس ولا على فستان من الديما ولا على طربوش مستدير. بل ترى البانطلون والبرنيطة، والطربوش النمساوى والإستامبولي، والفستان المهلل من قماش ليون أو برلين أو لندن أو تورينو. ولا تكاد تعثر على مخزن للكتب إلا إذا كان مخزنا إفرنجيا لكتب إفرنجية أو لأدوات كتابية. وإذا التقيت بالأطفال على جوانب الطرق يلعبون يحيونك كعادتهم والبرنيطة على رءوسهم بكلمة «بونجور» لا «صباح الخير». وإذا ركبت القطار سمعت كلمة «الترين» وهم يريدون القطار، و«إستاسيون» وهم يريدون المحطة، و«الواغون» وهم يريدون المركبة أو العربة... إلخ. وإذا ركبت الأوتوموبيل سمعت في وصفه جميع الألفاظ الإفرنجية. وهكذا يقوم لك البرهان على زوال الأزياء الإغريقية، وعلى تضاؤل الأزياء العربية حتى الزوال.

---

١ - الأهرام، ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٧م.

٢ - القنباز والقمباز ثوب فضفاض يرتدية الشاميون، وهو عبارة عن قطعة من القماش تشبه العباءة إلا أنه مفتوح من الأمام. للمزيد طالع ويكى مساق (قمباز).

٣ - ما يلبسه الذمي يشده على وسطه. اللسان، (زن ر).

وعلى امتزاج الإفرنجية بالعربية فى الأحاديث والأسماء والمسميات، فتقف متسائلا بعد ذلك: وهل باستطاعة تلك الحضارة الشرقية القديمة أن تثبت أمام تيار هذه الحضارة الغربية المتدفق: وهل باستطاعة اللغة العربية أن تقاوم اللغات الإفرنجية أو أن تعيش معها جنبا إلى جنب على مدى الأجيال المقبلة والعصور الآتية إذا ظلت قوة الغرب قوة العلم وقوة المال وقوة الصناعة والتجارة، وقوة (العدة)[1] وقوة العدد وقوة الوحدة العنصرية وقوة الاتحاد تهاجم المدنية الشرقية فى منابتها؟

إنك لتتساءل هذا التساؤل فنعرف أن كل شيء فى هذا الكون خاضع لحكم القوة التى صيرت هذه البلاد الشرقية كلها عربية يوم كانت القوة بل القوات فى جانب العرب، فلم يبق فى مصر- مثلا- من لغة الفرعون سوى أسماء الأماكن والقرى والدساكر. ولم يبق فى لبنان من لغة السُّريان والكلدان سوى أسماء القرى والمدن. وأسماء قرى لبنان كلها كلدانية إلا الحديث منها.

ولقد شهدتُ إحدى جلسات مجلس النواب اللبنانى وهو يبحث فى نظام تعليم الجَندُرمة وقد اختير لتعليمها تسعة من الضباط الفرنساويين، فسمعتهم ينصون فى النظام على أن يكون التعليم باللغة الفرنساوية، وسمعت أحد النواب يقول: هل تريدون منا أن نتنازل عن اللغة العربية؟! إن هذا محال.

فناجيت نفسى متساءلا هل المسألة مسألة تنازل أو عدم تنازل؟! وهل هؤلاء الصبية الذين يحيونك إذا مررت بهم «ببونجور» عوضا عن «صباح الخير» قد خطر لهم التنازل أو عُرض عليهم؟ وهل تنازلت المرأة عن الديما إلى الشيت، وهل تنازل المتكلمون عن المحطة إلى «الستاسيون». أنا لم استحسن فى تلك الجلسة قول أحد النواب: إن اللغة العربية لا تصلح لتعليم الجنود؛ فإن مصدر هذا القول الجهل- وقد رد عليه زملاؤه بأن

١- فى الأصل (العدد)، والصواب ما ذكرناه.



الجنود يعلِّمون بالعربية فى مصر والعراق.

ولكنى أتذكر أن الجندرمة اللبنانية والجنود العرب جميعا كانوا بالأمس القريب حتى فى مصر يُعلَّمون بالتركية، واليوم يعلمون الجنود بفلسطين بالإنكليزية؛ لأن ضباطهم المعلمين من الإنكليز. ويعلمون الجنود فى سوريا بالفرنساوية؛ لأن ضباطهم المعلمين من الفرنساويين، والجمهور ذاته يمزج لغة الدولة المسيطرة بلغة بلاده، ولغة الأمة القوية بلغة الأمة الضعيفة. وإلا فمن أين جاءت المصريين كلمة «باستونا» يسمون بها العصا، والطاولة يسمون بها المكتب، والخوان والترابيزا والبانكونا وأمثال هذه الكلمات إلا من الطليان الذين تقدموا الأمم الغربية فى دخول هذه البلاد المصرية.

وإذا بحثنا فى التنازل عن مميزاتنا وتساءلنا هل هو تنازل بالواقع؟ ثم ألقينا نظرة على مجالس بيروت وسَمَر الناس فيها، أى الناس المتعلمين المتأدبين، وجدنا أن الفرنساوية حلت محل العربية بحكم التربية والتعليم الذين لم يكن للحكومة الحاضرة ولا للحكومة السابقة يد فيها، وإذا كانت العربية قد حفظت رُواءها وبهجتها وقوتها فى المجامع المصرية، فالفضل فى ذلك لنظام التعليم فى مصر على اختلاف ضروبه وأشكاله وأنواعه، فللتعليم هنا نظامه وامتحانه وشهاداته وليس للتعليم فى سوريا ولبنان نظام واحد متبع، ولا امتحان ولا شهادات من الحكومة.

وكلما توغلت هناك بداخل البلاد وجدت الناس أكثر محافظة على تقاليدهم وعاداتهم وتراث آبائهم؛ لأنهم أبعد عن الاختلاط بالغرباء الوافدين عليهم وبالأقوياء المتسلطين عليهم، فبالأمس كانت اللغة التركية تنهب اللغة العربية انتهابا فى المدن والسواحل وتسطو على هذه اللغة فى الصحافة والألسن والأحاديث، واليوم حلت محلها اللغة الفرنساوية فى سوريا، واللغة الإنكليزية فى فلسطين.

كذلك عادات أهالى تلك البلاد وتقاليدهم وأغانيهم فى أفراحهم وأحزانهم ومجامعهم وفى كل طور من أطوار حياتهم. إنها عادات وتقاليد موروثة عن الأقوياء الذين تسلطوا على تلك البلاد. فَجَلْوَة العروسة قبل زفافها رومانية بحتة كما هو محفور على صخور رومه. ورقصة الدبكة هى الكواردبل الرومانى. وأغنية التراويد هى نشية ترواده الإغريقية. والهوبرة هى الدعاء الرومانى المشهور الذى يدعوه الإنكليز والألمان والطليان حتى الآن فى أفراحهم وحفلاتهم. وقد طالعت مباحث كثيرة لعلماء الغرب عن أصل هذه اللفظة فلم يزد واحد منهم على أنها لفظة دعاء عند الرومان.

واللبنانيون يختمون بها أنشودتهم، أو بالأحرى أنشودة الدعاء على نحو ما يفعل الإنكليز مع بعض تحريف باللفظ.

ولست بُمحص ما عند اللبنانيين والسوريين من ذاك التراث القديم الذى يتوارثونه عن الّذين حكموا بلادهم أو مروا بها أو سيطروا عليها. ولقد سمعتُ فيما سمعت من أفواههم كلمة «بوش» يصفون بها كل شخص لا نفع منه ولا فائدةُ فتذكرت تلقيب الحلفاء للألمان أعدائهم تحقيرا لهم. ثم قرأت لعلمائهم بحثا فى ذلك فقالوا: إنه لفظ رومانى، وقالوا: إن الرومان كانوا يفهمون منه ما يفهم منه أهل لبنان الآن. وعندهم فى أناشيدهم الحدو نقلا عن العرب، وهو نشيد السير يوقع إنشاده على وقع أقدام السائرين ولا ينشدونه إلا وهم سائرون. ثم نشيد الحَوْرَبَة أى الحرب، وكله حماسى وتهديد للعدو ودعاء على الخصم.

فأنت ترى من كل ما تقدم أن الأمة لا تتنازل عن مميزاتها وتقاليدها مختارة أو مأمورة ولكنها تقتبس عن سواها ما يقوم بحاجاتها حسب تغير تلك الحاجات وتطورها مع الزمن. فالأمة التى تريد المحافظة على مميزاتها يجب عليها أن توافر ما عندها لكل حاجة يحتاج إليها أبناؤها، سواء كان بالمآكل،



أو المشرب، أو الملبس، أو اللغة، أو الصناعة، أو غير ذلك ما يُعدّ منه ولا يعد.

أما الجمود فمغاير للطبيعة، وأما الفراغ فإن الطبيعة لا تقبله. والذين يريدون الأمة على الجمود فى حال من حالاتها يقاومون الناموس الطبيعى، فهم محكوم عليهم بالفشل. والذين يحضون الأمة على الرضا بالفراغ يخالفون الطبيعة، والطبيعة تزيد الملء ومَن غَالبَ الطبيعة غُلب.

والذين يريدون أن نكون مساوين للأوروبيين يخطئون الغرض ويمضغون الألفاظ فقط إذا لم يعملوا على أن تكون هذه المساواة على سَنَن الجِد والعمل البارز. وكيف التساوى بين الزاحف زحفا على ظهر الغبراء والطائر سَبْحا فى الفضاء، وكيف التساوى بين الهابط إلى بطن الأرض وجوف البحر لاستخراج الكنوز، وبين الذى يجهل التقاطها وهى على مرمى عينيه وتتعثر بها رجلاه؟!

يقولون إنه العلم، فما هو هذا العلم الذى تعلمون؛ فقد أظهر الإحصاء فى جبل لبنان أن ٨٥٪ يعرفون القراءة والكتابة، وأن المتعلمين لا يكادون يجدون عملا. فهم بين هجر بلادهم وتلمُّس الزرق الضيق فى البلد الضيق من باب الخدمة والوظيفة الضيقتين. أفما آنَ للعلم بل للتعلم أن يتحول عن مجراه النظرى إلى مجراه العملى؟ أما آن لكل متعلم أن يتحول عن أن يكون شاعرا يطير مع الخيال إلى استخدام العلم لإنجاح العمل؟

إن الذين يتولون التعليم ليصوغوا أنفس الناشئة بقالب مدنيتهم وآدابهم وحضارتهم يقومون بمهمتهم، فهل تقوم غدا حكومة تلك البلاد بمهمتها فتجعل للتعليم غرضا عمليا.

إن هذا الداء الذى أصيب به لبنان وهو داء حسبان العلم منافيا للعمل اليدوى والصناعى ليس محصورا فى ذلك البلد، بل هو عامٌّ شامل فى بلاد الشرق.

وهو على أشد حالاته فى مصر، حيث يقولون: إن ألفى متخرج من خريجى المدارس العليا لا يجدون الآن عملا!

وإذا كانوا قد قالوا: «علِّمهم وكفى»، فهل الحاجة اليوم تفتق الحيلة غدا بأيدى المتعلمين المحتاجين للعمل.

لقد قلدنا الأوروبيين فى مظاهر الحياة من أدناها إلى أرقاها، وقلدناهم فى كل شىء حتى مضغ الكلام، فهلا قلدناهم لجعل العلم أداة لإنجاح العمل، وبحسبان كل عمل صالحا فى ذاته ما دام يدر الرزق على صاحبه.

لقد كان سرورى كبيرا يوم زُرت دار الصناعة ببيروت، ورأيت تلامذتها الخمسة والتسعين من أبناء الأسر الكبيرة ومن خريجى المدارس، فلو أن حكومة لبنان حزمت فى الأمر لأكثرت من دور الصناعة فى جميع أنحاء لبنان، ولأكثرت من مدارس الزراعة أيضا. وهى لا تمتلك مدرسة من هذا الطراز حتى ينادى المفكرون بعد ذلك ويهيبوا بالناشئة بكلمة الكونت دى مون لأهل فرنسا: «عودوا عودوا إلى أمكم الأرض»؛ فإن فى لبنان وسوريا من الأراضى ما يستنفد مجهودات جميع الأيدى إذا وجد المال ووجد العلم ووجدت الحكومة التى أظن أنها بدأت تحس بهذه الحاجة فقررت أن تكلف بنك سوريا ولبنان بأن يعقد القروض بمعاونتها وباسمها لفنادق الاصطياف وليست مدارس الزراعة بأقل نفعا ولا بأصغر فائدة.

داود بركات



فى لبنان وعاصمته[1]

(٥)

يسألوننى عن السياسة فى لبنان، فإذا فهم الناس بكلمة «السياسة» معالجة الأمور الخارجية أو فى الخارج، فأنا أستطيع أن أؤكد كل التأكيد أنه ليست فى لبنان سياسة على الإطلاق؛ لأن رجال لبنان حصروا سياستهم فى لبنان أو بالأحرى فى دار المفوضية الفرنساوية، ويأبون أن يتجهوا إلى باريز ذاتها بشكوى أو بأمل بحجة أن باريز عندهم. وأما إذا أرادوا بكلمة «السياسة» ما أراده سولون للشرع اليونانى وصاحب المذهب الجمهورى بأن يشغل كل وطنى ذهنه وخاطره بشئون بلده، فأنا أستطيع أن أؤكد كل التأكيد أن لُبنان غارق بالسياسة حتى آذانه هذا إذا ترفَّقت بالوصف ولم أقل أن هذا الفرق قد تجاوز الفم إلى العينين والأذنين، فكل حاسة من حواس القوم منهمكة فيه منهوكة به.

وإذا قيل لى:

وما هى هذه السياسة السولونية التى تشير إليها قلت مرددا كلمة رينال: «فى السياسة أخطاء لا عداد لها إذا اتبعها السياسيون صارت عندهم مبادئ يعملون بها»، فسياسة لبنان اليوم ترتكز على هذه المبادئ فلو أن «باتيست دى سن بير» بُعث اليوم حيا لقال: لقد قلت لكم- أيها الناس- منذ زمن بعيد مضى: «إن جو أى بلد من بلاد الله لا يكوِّن أخلاق سكانه وإنما النظام السياسى هو الذى يكوِّن تلك الأخلاق».

والشاهد على صحة ذلك لبنان. فمنذ ١٩٢٠ إلى اليوم والنظام السياسى فى تلك البلاد يتغير ويتبدل ويتبع هذا التبدل والتغير فى النظام تقلب الأفكار وزعزعة الأخلاق، نخشى بعد هذا القول والبيان عن السياسة أن

[1] - الأهرام، ١٨ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٧م.

يحق على لبنان له وأهله كلمة شاتو بريان ذلك الفرنسوى الكبير القائل فى وصف السياسة: «إنا إذا اقتطعنا المبدأ الأدبى من المبدأ السياسى صار المبدأ السياسى بلا أساس»، لا سيما إذا كان ذلك مقرونا بالتعريف الآخر المنقول عن سوجور، وهو قوله: «إن التعصب السياسى لهو كالتعصب الدينى، يبعد الناس ويقصيهم عن وجهتين: الأولى العدالة، والثانية الإنسانية»، فكيف إذا وُجد كل ما تقدم وضوعف بما تضمنه القول المأثور: «إن التحكم يقتلع من الجذور كل نظام سياسى» و«إن الشعب الذى يصير سياسيا لا يصدق شيئا».

ادخل بيروت وطُف بعد بيروت حواضر لبنان وقُراه وحدث الناس جميعا عن كل أمر تريده من أمور حياتهم، ينته بهم الحديث إلى السياسة وينته بك حديث السياسة معهم إلى تذكر جميع ما قدمت من آراء الحكماء وأقوال الاجتماعيين الحُصَفاء. ولا أدرى ما هى الحكمة فى تغيير النظام وتبديله فى كل سنة حتى يشغل بالسياسة عامة الناس وخاصتهم. وحتى لا يعرف أحد منهم إلى أى قرار يصلون ولا فى أى طريق هم مَسُوقون وكل ما يستطيع الباحث أن يستخلصه من الدرس والبحث أن الذين يضعون الأنظمة المتعددة لم يكونوا يوما براضين عن واحد منها، ولو أنهم كانوا راضين عن نظام واحد يضعونه لساروا عليه إلى النهاية، فلا إخالهم يطلبون من الجمهور الرضا بما يعلنون هم ذاتهم عدم الرضا عنه أو به. وإذا كان عدم رضا الجمهور نابعا أو ناجما عن عدم رضاهم فلماذا يعدون عدم رضا الجمهور أو النواب أو الموظفين إغضابا لهم- هكذا خلق الناس- كذلك قل عن القوانين التى صارت خليطا مزيجا بين القديم والحديث وبين الموضوع لحادث بعينه والموضوع أبديا لإدارة الشئون، وبين الرسوم والضرائب المتعددة التى لا يتوصل العمال ذاتهم لمعرفتها! وإنه ليدهشك



أن تقدم ورقة للتسجيل أو لغير ذلك من الأعمال الرسمية فترى أنها قد امتلأت بالطوابع، وكان بالإمكان أن يغنى طابع واحد عنها جميعا.

إذا خلصت من هذا الحديث بدا لك حديث آخر فى المجالس وفى الصحف وفى كل مكان ومع كل إنسان، وهو حديث الطائفية التى يتظاهر الجميع هناك باستنكارها، ولكنهم بهذا الاستنكار وبهذا التحدث بها يؤيدونها. والطائفية– أى اقتسام المناصب والوظائف بين الطوائف– سهم صوبه اللورد دوفرين إلى قلب لبنان فى مؤتمر السفراء البيروتى سنة ١٨٦٤ إذ قسم فيه لبنان إلى طوائف بعد أن كان أمة أو شعبا، واعترضت على ذلك فرنسا كل الاعتراض. فلما أفلح اللورد دوفرين فى مهمته أرسل تلغرافه المشهور إلى وزارة الخارجية يبشرها فيه بالنجاح أى بالقضاء على لبنان بعد هدم إمارته بعزل الأمير بشير حليف محمد على، وبتقسيم سكانه طوائف حتى يكون بعضهم خصما للبعض وفى الآية الإنجيلية: «كل مدينة تنقسم على نفسها تخرب»[1].

فهل يستطيع لبنان الشفاء من ذلك السهم المسموم الذى أصابه فى الصميم من قلبه؟؟ ومتى يكون هذا الشفاء من داء تقدسه الأنظمة والقوانين حتى الدستور، وتزيده جميع الأيدى كل يوم تمكينا، وإذا أرادت يد أن تنفض عنها غباره أكرهتها أختها على التلوث بحمأته.

يُقتل لبنان بسهم الطائفية. خدم اللورد دوفرين سياسة دولته أيام كانت فرنسا مسيطرة على هذا الشرق القريب وكان الإنكليز يقولون: «لبنان فى الشرق، ومصر فى الوسط، وبنزرت فى الغرب ثلاثة مواطن للعداء لا مندوحة عن هدمها فهدمت سياستها الإمارة اللبنانية سنة ١٨١٠، وهُدمت بهدمها وحدة الشعب.

١- متّى، بتصرف (٢٥:١٢).

واحتلت بعد ذلك قبرص ومصر فأمنت تلك المواطن الثلاثة. أما إعلان الأدباء اللبنانيين استنكار الطائفية فما مَثَله فى نظرى إلا كمثل الذين يستنكرون أمرا وهم باستنكاره يوجدونه ويؤيدونه. والذى يزيل الطائفية هو العمل ضدها بتولية الكفء أيا كان، والسكوت عنها حتى يتناساها الناس فهل إلى ذلك من سبيل؟ أما وضعها موضع الجدل فإنه يحييها كلما ماتت، ويبعثها من مدفنها كلما قالوا إنها قد قُبرت.

هذه الطائفية هى التى جعلت سوريا ولبنان طوائف وحالت دون جعل أحدهما أو جعلهما أمة أو شعبا. وهكذا كانت سياسة فَرِّق تسُد على عهد الترك وهكذا كانت سياسة أوروبا بأخذ كل دولة طائفة تحت رعايتها لتكون آلة فى يدها لقضاء أغراضها وهكذا أكل الآباء الحِصْرِم[1] فضَرِس[2] الأبناء والأحفاد وأحفادهم.

حَدّث مدير احتكار الدخان فى فرنسا عن كيفية حمل النساء على التدخين قال: خطر لى أن أزيد فى دخل الحكومة من بيع الدخان، فكلّفت طائفة من كتاب الصحف أن ينكروا ذلك على النساء، وكلفت طائفة أخرى منهم أن تستحسنه، فما هى إلا بضعة أسابيع حتى رأيت خياطة تدخن بالغليون فلم يرضنى الأمر لأن دخل السيكارة أكبر من دخل الغليون فكلفت رجالى بأن يحملوا حملة شديدة على الغليون؛ لأنه لا يتفق مع الرشاقة واللطافة، وأبرزت ذلك بالصور والرسوم خلافا للسيجارة[3] فكان لى ما أردت، وانتشرت عادة التدخين بين نساء فرنسا بل بين نساء أوروبا، فكلامك فى الشىء يثيره واستنكارك له ليس بمانع هذه الاستثارة.

---

١ - العنب أول ما يُثمر، حيث يكون شديد الحموضة. مختار الصحاح، (حصرم).

٢ - أى: كلّت أسنانه من تناول شىء حامض. المعانى الجامع، (ضرس).

٣ - وردت لفظة سيجارة مرة بالجيم وتارة بالكاف في الفقرة نفسها؛ ربما لم تكن ثمة مشكلة فى عدم اتساق الألفاظ المعربة في صحيفة الأهرام، ولم يكن ثمة دليل تحريري معتمد في ذلك الحين.



هذه العيوب السياسية كلها متفرقة ومجتمعة تجعل لبنان يئن منها أنينا. وإذا كانت الأراضى التى ضمت إلى جبل لبنان لا نحس بها لما كانت عليه من سوء الحال، فإن جبل لبنان الذى كان يعيش بميزانية لا تزيد على ٣٥ ألف جنيه ويمثل هذا المبلغ من الرسوم الاختيارية وينأى عن تقلبات السياسة ويرتع بأمنه الشامل وبوفرة رزقه من نتاج أرضه العامرة ومن أموال أبنائه فى الخارج يشعر شعورا أليما؛ لأنه بدل من تلك الحال غير الحال، ومن النظام الثابت القلق الدائم، ومن قلة الموظفين كثرة عددهم، ومن توزيع مظاهر الحياة فى جميع أنحائه حصرها جميعا فى مدينة بيروت، حتى كاد يشعر بأنها سوف تبتلعه ابتلاعا.

لما زار الموسيو كابو الوزير الفرنساوى لبنان مارّا إليه (...)[١] قابله اللبنانيون الذين كانوا يشتغلون يومئذ بتوسيع اختصاص لبنان (...)[٢] فسألت مدام كابو زوجها عن شكواهم فقال لها: تأملى يا عزيزتى بأمر قوم يشكون وهم لا يُكلّفون الجندية ولا دفع الضرائب!

فقد تحدث الصحافيون[٣] بلبنان عن انصرافهم إلى السياسة دون سواها. وما دخلت السياسة أمرا حتى أفسدته، فنسمع اعتذارهم إليك بأن السياسة هى التى تكرههم على الاشتغال بالسياسة دون الاقتصاد والإرشاد والأخلاق والاجتماع، وأن الحكومة لا تستقر على حال، فهم ليسوا سوى مقررين ومسجلين للأحوال التى تعرض لهم كل يوم. وقد قال لى أحد كبارهم: وأنا أرتئى ضرورة انصراف الجمهور عن السياسة إلى الاقتصاد والصناعة والتجارة وتعمير الخارب ومحاربة الفساد فى الأخلاق بقوله: امنع عنا السياسة نمتنع عنها وننصرف إلى سواها من الشئون. ففى ست سنين عدَّل الدستور ست مرات! ومن مجلس واحد إلى مجلسين،

١- كلمة مطموسة فى الأصل.
٢- كلمة مطموسة فى الأصل.
٣- فى الأصل (الصحافيين)، والصواب ما ذكرناه.

ومن مجلسين إلى مجلس واحد، ومن بعض السلطة إلى لا شيء، ومع ذلك فإنهم يسمونه المجلس النيابى، أليس حقا أن يسمى المجلس الاستشارى؟

وإذا تفحصت الأمر وجدت فى قلب الصحافة ضربا من الحقد لكثرة ما يصيبها من التعطيل الإدارى، فهم يروون لك أنه لم تسلم جريدة واحدة من هذا التعطيل، وأغرب من هذا أن الصحافى منهم قد يكتب مقالة عن مسألة من المسائل ثم يخبر قراءه بأن جريدته سوف تعطل. وقد قرأت ذلك فى جريدة الأمة قبل أن تعطل، فإن صاحبها الأستاذ السودا كتب مقالا فى نقد تعديل الدستور، وختم مقاله بانتظار التعطيل، فلم أصدق تنبؤه ولكنه كان صادقا؛ لأن القوم جسّوا النبض كثيرا وعرفوا الطريقة والأسلوب، فقلما يخطئون التقدير. وقلما سلمت جريدة من التعطيل. وإذا كانت الصحافة تشكو من الحكومة فإن شكوى الحكومة من الصحافة أشد وأنكى، لأنها تغير الرأى العام على الحكام. وأغرب ما فى الأمر أنك لا تجد قلما واحدا يدافع، ولا جريدة واحدة تدفع وتزع. ولا أدرى السبب، أهو الارتكاز على القوة والاعتماد على العقاب فى التعطيل، وأناتول فرانس يقول: «دعوا الحرية، دعوها كاملة ولا تمسّوها، ولا تخافوا مغبتها، بل خافوا مغبة تقييدها،؛ فإن ما كان منها شرا قتل نفسه، والشر للشر أقتل، وما كان منها خير أحيا نفسه، والخير للخير أنمى».

إذا قلت هذا قال لك اللبنانيون: بمثل هذا القول، أحببنا فرنسا، ومن أجل أقوال علمائها عشقناها، ولوقوفنا على تعاليم حكمائها أردناها لأنفسنا معلمة ومرشدة وحامية ومربية.

داود بركات



فى لبنان وعاصمته[1]

(٦)

إن لبنان الذى وصفه هابوتو الوزير الفرنساوى المؤرخ بأنه « جبل صغير فى الأرض كبير فى التاريخ » ضاق قبل الحرب بأهله كما اتسع عليهم كثيرا جدا بعد الحرب، لنزوح ثلث سكانه إلى جميع الأمصار والأقطار، ولوفاة الثلث الثالث أو أكثر إبان الحرب بالمجاعة والأمراض.

ففى ٦٣٠٠ كيلو متر مربع ثلثها من الصخور كان يسكن أكثر من نصف مليون نفس حتى صار لبنان كله قرية واحدة بعدما أربت قراه على ١٢٠٠ . وإذا كانوا قد قالوا إن أهل جزيرة سيلان أكثر أهل الأرض تناسلا، فالإحصاء يدلنا على أن أهل لبنان كانوا قبل اليوم أكثر تناسلا، فالعقم هناك قليل ومرض الأطفال الذى تكافحه الآن جميع الأمم والشعوب غير معروف، وعناية الأم بالطفل ليس فى العالم أتم منها وأكمل.

نزح اللبنانيون إلى سائر الأقطار والأمصار طلبا للرزق بعدما أتموا نقب الحجر والمَدَر، واستحلبوا الصخر فى وطنهم، وكانت عدتهم كلها أو كل عدتهم فى مطارح غربتهم وديار هجرتهم نشاطا مَرَنوا عليه فى معالجة الصعب كل الصعب فى أرضهم، وقوة أبدان كسبوها من تمرن عضلاتهم فى مغالبة طبيعة أرضهم، وأمانة طبعوا عليها بالتوارث وإخلاصا فى العمل لم تَشُبْه شائبة الروح المادية ومفاسد المدن، فكان ذلك كله مفتاحا فتحوا به المغلقات، وأداة أوصلتهم إلى الفوز والنجاح، فكان متوسط ما يرد منهم على أوطانهم فى كل عام مليونى جنيه توزع على نصف مليون نفس، فكان ذلك ربحا كبيرا لا أدرى هل هو يعادل الخسارة التى خسرها ذلك الجبل الذى أقصت عنه الحاجة الشباب الذى ينسل والذى ينتج والذى يعمر ويعمل. ولو

١- الأهرام، ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٧م.

وجدت إلى جوانب بلادهم حكومة حرة معمِّرة لوجد اللبنانيون -كما وجد السوريون إخوانهم الذين حذوا بعد ذلك حذوهم في الهجرة - أرضا واسعة للتعمير وكنوزا مدفونة تنتظر الأيدى العاملة والهمة العالية في إخراجها من حِرزها المقفل.

لذلك ما كان يصح قبل اليوم أن تطلق على أولئك النازحين المتغربين في طلب الرزق كلمة (الهجر) ولا وصفهم بالمهاجرين؛ لأنهم لم يهجروا وطنهم ولم يقطعوا صلتهم به، وقد يسافر الأب فيترك أولاده في حضانة زوجه وأمه، وقد تسافر الأم تاركة فلذات أكبادها في كفالة زوجها وأمها، فلم يُنعَت مثل هؤلاء بالمهاجرين. ولم يكن لبنان بعد خروجهم منه في لبنان فقط، بل كان في كل مكان على وجه الغبراء وفي كل يابسة تحت القبة الزرقاء.

كم منزل في الأرض يعشقه الفتى وحنينه أبـدا لأول مـنــزل

جاءت الحرب وذاع خبر مجاعة لبنان فهز اللبنانيون أعطاف الأرض رحمة بأهلهم، وجادوا بالملايين لتصل إليهم فتحول بحرها الزاخر إلى قطرات، وشحنوا من ميناء نيويورك باخرة تسمى (سيزار) بستة آلاف و٢٠٠ طن من المآكل والملابس والأدوية لوطنهم، واستعانوا بإيصالها إلى أهلهم بالبابا وملك إسبانيا وملكة هولندا وسويسرا. وأعدوا أخرى ولكن الحرب العمياء والسياسة التي لا قلب لها أوقفت الباخرة في ميناء الإسكندرية، ومنعت الأخرى عن المجيء. وكانت الأولى لا تحمل قوتا ودواء فقط بلد دموعا سخينة وتحرق أحشاء على من حرمتهم السياسة الفَوْت[1]، فماتوا جوعا وسقما. ويكفي الباحث أن يلقي اليوم نظرة على أية قرية من تلك القرى اللبنانية بعد خسائرهم الفادحة ليرى البيوت الخاوية والدور المتهدمة.

١ - المهْرب. والفوت الفرجة بين شيئين. الوسيط، (فوت).



كان لبنان فقيرا بأرضه وتربته، ولكنه كان غنيا جدا بنشاط أهله وقناعتهم، بل كان غنيا بالمرأة اللبنانية حتى قال أحد الخبراء الباحثين: «أعيدوا إلى لبنان امرأته، تعيدوا إلى لبنان الثروة والغنى والهناء والعيش الرغيد».

أجل، إن المرأة اللبنانية تستحق بلا شك هذا الوصف ممن عرفها، فقد كانت سيدة البيت المدبرة الحازمة حتى قالوا فى أمثالهم: «الرجل جلّاب والمرأة دولاب». وقالوا فى اختيار الزوج: «طُبّ الجرة على فمها تلق البنت كأمها»؛ لأن الأم كانت مدرسة، تعلّم البنت منذ نعومة أظفارها الحياكة والنسيج، فقلما كنت تدخل بيتا لا تواجهك فيه عند الباب «المسلكة[1] والنول». وتعلمها الطبخ وتعلمها التفصيل والخياطة لها ولزوجها ولأولادها، وزرع حاجات المنزل من الزهور إلى البصل والثوم والبطاطس وأنواع البقول وكيفية كبسها وخزنها. تعلمها كل شيء حتى أغانى الفرح ومراثى الحزن. فالمرأة اللبنانية كانت تزرع القطن فى حوض المنزل وتغزله كما تغزل الحرير والصوف، وتحيك بعد ذلك ملابس زوجها وملابسها وملابس أولادها، وترعى الغنم وتخزن «القورمة»[2] من لحومها، وتكفل أولادها وتعليمهم وزواجهم دون الأب. وفى أمثالهم للحض على الزواج من البنت العاملة دون الغنية «يا واخد[3] القرد على ماله يروح المال ويظل القرد على حاله».

تضاءل نشاط هذه المرأة الفاضلة العاملة تقليدا للمدن التى ظنت أنها تنقل مدنية الغرب أو «التفرنج»، فنقلت فساد المدنية، أى ذلك الفساد الذى يحوّل المرأة إلى أنثى فقط.

١ - آلة تُلف عليها خيوط الغزل. الرائد، (سلك).
٢ - فى بر مصر (قطع اللحم الكبيرة).
٣ - فى الأصل (يأخذ)، وأثبتنا ما يوافق اللهجة العامية وسياق الكلام.

فصارت تلك اليد التى كانت تدر على لبنان «لبنا وعسلا» كما قالت التوراة، تستدر من لبنان ثروته فى سبيل الخُيلاء والبهرجة، فظهر الفقر والفاقة، وعجز دخل المهاجر عن أن يفى بحاجة أسرته، فطالت غيبته حتى صار مهاجرا كسائر المهاجرين لا يفكر إلا قليلا بالعودة إلى وطنه، إما لأنه لا يملك ما يملكه من الراحة فى أرضه وإما لأنه ارتبط بالثروة التى لا يجد له انفكاكا منها تنعما بالاستزادة.

فإذا زرت القرى التى كانت مشهورة بمصنوعاتها من أى ضرب كان وجدت تلك المصنوعات وقد صارت إلى حالة البوار أو العدم؛ لأن المرأة تَلبس وتُلبس أولادها من مصنوعات أوروبا المزخرفة اللون بلا متانة. وتبتاع آنية منزلها من مصنوعات أوروبا. وتدخل المنزل فتجد كل شيء قد تغير وتبدل؛ فبعد أن كنت تجد المرأة فى المطبخ والابن الصغير يخدم على المائدة ولا تقابل السيدة وأولادها إلا بعد الأكل، أى بعد إنجاز عملهم حسب تقاليدهم القديمة مهما كانت ثروتهم وغناهم، أصبحت تلقَى السيدة تقابلك وتجالسك والخدم هم الذين يقومون على خدمتك، فتعرف كيف تزعزعت قواعد الاقتصاد وكيف ضرب الفقر بجرانِه.(1)

وتنظر إلى الرجال وأعمالهم فتجد أيضا أن هذا الذى يسمونه المدنية- وهو فى الواقع فساد فيها قد أفسد(2) فى الرجال فضيلة أخرى وهى فضيلة التعاون، فحياة تلك البلاد قامت على التعاون بين الأهالي؛ فما لم يكن باستطاعة الفرد القيام به من شئونه الخاصة كان يقوم به الجماعة لإعانة الفرد، كذلك كان شأنهم فى الأفراح والأحزان وفى إنشاء الطرق وغيرها.

أما الآن، فإن هذه الفضيلة فضيلة التعاون- قد ضعفت فيهم ضعفا

١- أى: استقر وثبت. الوسيط (جرن).
٢- فى الأصل (أنسد)، والصواب ما ذكرناه.



كبيرا. فضعْفُ هذه الفضيلة من جانب الرجال والنساء إذا قُرِن بتحول المرأة اللبنانية عن مهمتها المتوارثة، وأضيف إليه داء المهاجرة ومرضها العضال لمن كان محتاجا إليها ولمن لم يكن فى حاجة إليها تبين للقارئ نتيجة تحول تلك البلاد عن حالها الأولى؛ بل عن مدينتها الخاصة وحياتها الخاصة إلى حال أخرى لا يمكن أن يكون من ورائها سوى الفاقة والحاجة بَلْهَ[1] الفقر مهما كانت ثمرة المهاجرة ومهما درَّت على البلاد من المنافع؛ لأن هذه المنافع التى كانت كبيرة عند بدء المهاجرة قد أخذت اليوم بالتضاؤل لطول بعد الناس عن أهلهم (...)[2].

ولأن الأكثرين منهم قد نقلوا عيالهم إليهم، ولأن الذين يولدون[3] منهم فى البلاد الساحقة النائية لا يمكن أن يكون حنينهم إلى ذلك الوطن كحنين آبائهم وأجدادهم إليه، وإن كان الأعزاب منهم لا يودون إلا قليلا الزواج من الأجنبيات، فهم يعودون إلى بلادهم لاختيار زوجاتهم من اللبنانيات لاعتقادهم بعد الاختبار الطويل الفرق العظيم بين اللبنانية والأجنبية، ففى كل عام ترى المئات منهم عائدين إلى وطنهم لاختيار الأزواج وقد لا تخلو باخرة واحدة من هؤلاء العائدين إلى وطنهم يبحثون عن شريكات لهم فى الحياة.

إذا عرفت كل ما تقدم ثم تساءلت عن عمل الحكومة فى ذلك كله وأعجزك أن تجد لها عملا واحدا، وإذا أنت حدثت ولاة الأمور فى هذه الأمور وفى أمر المهاجرين على وجه التخصيص ألقيتهم لا يحيرون جوابا، وكل ما يقولونه أنهم سيسنون قانونا يعتبر فيه المهاجر وأبناؤه لبنانيين إذا هم عادوا إلى وطنهم.

١ - اسم فعل أمر بمعنى (دع)، والمقصود: فضلا عن. اللغة العربية المعاصر. (بله).
٢ - كلمتان مطموستان فى الأصل.
٣ - فى الأصل (يلدون)، والصواب ما ذكرناه.

تسمع هذا الجواب فتتساءل أهذا كل ما باستطاعتهم أن يفعلوا؟ إن إيطاليا التى يكثر عدد المهاجرين من أبنائها قد ألَّفت اللجان واستعانت بالخبراء، بل هى ألفت فى ذلك مكتبة ضخمة يرجع إليها الباحثون فى هذا الموضوع الجليل الشأن، أما لبنان فلم يفعل شيئا وأما المهاجرون الذين تهملهم الحكومة اللبنانية فهم الذين أحيوا لبنان بل هم لبنان. وهم وهم وحدهم دون سواهم أوجدوا بمساعيهم ومجهوداتهم وبأموالهم ونفوذهم لبنان المستقل بحدوده الطبيعية بضمانة الدول التى آلت إلى شكل الانتداب.

فهل من مدكر؟!

داود بركات



لماذا أنشئت الجامعة؟
وماذا ينتظرون منها[1]

بسطنا للقارئ المصرى كيف نشأت الجامعة المصرية التى وضع جلالة مولانا الملك الحجر الأول فى أساسها عند ظهيرة أمس، وكيف عُدّ هذا الحجر الأول فى الأساس قاعدة للمنطقة العلمية الجديدة أو «المدينة الجامعية» فى تعبير وزير المعارف الجليل. واليوم ننظر إلى المسألة من الوجهة العلمية لنعرف لماذا أنشئت الجامعة وماذا تنتظر البلاد منها؟

فإذا كنا قد نشرنا البيان الأول الذى أصدره سعد باشا وإخوانه فى سنة ١٩٠٦ وكتاب مجلس الإدارة إلى رئيس النظار فى سنة ١٩٠٨، فإن الجامعة اليوم غيرها بالأمس، وإن نظامها والقصد منها قد تبدل قليلا وتحوّل بعض التحول، ولكن الأساس ظل واحدا والقصد ظل هو القصد النبيل الشريف الذى بسطه معالى وزير المعارف الجليل على الشمسى باشا بقوله:

«والأمل معقود بأن تربى الجامعة فى شبيبة المتعلمين فيها ملكات حب العلم والتعمق فيه. وحب البحث العلمى لتخرج فى مصر طوائف من العلماء الباحثين المتحررين لطلب الحقائق العلمية، وأولئكم الذين يستطيعون أن يثبتوا لبلادهم العظمة العلمية والفنية الجديرة باسمها القديم؛ وحينئذ يتهيأ لمصر أن تحتمل هى الأخرى قسطها من بناء الحضارة العالمية، وأن تشارك جماعة الأمم فى العمل على تقدم المدنية ورفعة الإنسانية».

ذلك ما يراد من الجامعة المصرية، وذلك ما يجب أن ينغرس فى قلوب الناشئة المصرية التى تختلف إلى تلك الجامعة لطلب العلم. فالجامعة التى نشأت بإرادة الأمة إنما هى نشأت لنقل العلم من العالم المتمدن إلى مصر،

١ - الأهرام، ٨ شباط/ فبراير ١٩٢٨م.

ولتتمكن مصر من تخريج علماء من أبنائها لا يخدمون مصر فقط ولا يخدمون أنفسهم فقط بل يخدمون الإنسانية- وللعالم وطن ولكن العلم لا وطن له- فإذا لم يفهم طلبة الجامعة هذه الحقيقة، وإذا قام فى أذهانهم وأذهان آبائهم وأذهان البلد أن الغرض من إنشاء الجامعة المصرية صَوْغُ الموظفين فقط، كما هو قائم حتى الآن فى أذهان الذين يتعلمون؛ ذهب المجهود عبثا وفات الأمةَ الغرضُ المقصود وضللنا سواء السبيل، ولو أن الغرض من التعلم صوغ الموظفين لما نهضت الأمة منذ عشرين سنة لإنشاء الجامعة ولتركت الإنكليز يتحكمون بالمدارس كما يهوون.

يقول وزير المعارف الجليل: «إنه قدر لمصر أن تكون فى ملتقى الشرق والغرب وهى بهذا قبلة للأنظار ومحط الرحال، كما عقدت لها فى نفوس أهل الشرق القريب إمامة العلم وفى هذا مجدها وفخرها، وستعمل على الدوام للمحافظة على هذه المكانة السامية، وستكون جامعتها إن شاء الله منارا عاليا يَهوى إليه طلاب العلم ليغترفوا من بحارها ويستضيئوا بأنوارها».

فهذا الكلام كلام الوزير الجليل يتضمن أمرين: الأول مركز مصر من أم الشرق، وقد وصف الوزير الحصيف هذا المركز وصفا صحيحا؛ لأن مصر كانت منذ عرف التاريخ من الشرق بمثابة المنارة يستفيض ضؤها إلى الجهات المحيطة بها كلها، فهى التى مَدّنت الشطر الأكبر من اليَبَس الإفريقى، وهى التى أفاضت النور على الشطر الأكبر من اليَبَس الآسيوى، وهى التى تَهوى إليها اليوم قلوب العرب من كل جانب، وكل من يحيط بها من الأمم والشعوب يعترف لها بالإمامة بل هو يريد مبايعتها على ذلك. فإذا رسخ فى ذهن ناشئتها هذا الإيمان واليقين الذى أعرب عنه معالى الشمسى باشا الإعراب الصحيح. وإذا أدركت الناشئة المصرية أهمية هذا



التراث الجليل المتنزِّل إليها من آبائها وأجدادها الأقدمين تحقق الأمر الثانى من كلام معالى الوزير، وهو بذل الجد والجهد لتحافظ مصر على هذه المكانة السامية التى اكتسبتها من نفسها ومن مركزها. ألم تكن مصر أم المدنية يصح قول أهلها فيها إن مصر أم الدنيا؟ بل ما لنا والقديم.

ألم تكن النهضة العلمية التى ظهرت فى سوريا بعد سنة ١٨٦٠ وليدة النهضة العلمية المصرية على عهد محمد على؟ ألم يجد أولئك المؤلفون السوريون الذين عالجوا التأليف فى كل علم وفن المساعدة الكبرى من ولاة مصر وخديوييها؟ ألم تكن من اللبنانيين والسوريين البعثات العلمية إلى مصر بعدما أنشأ محمد على مدارس الطب والهندسة والألسن والعلوم؟ ألم يكن من أولئك السوريين شبان أوفدهم ولاة مصر إلى أوروبا لتلقى العلوم والفنون فكان منهم المسابكى الذى تولى القسم العربى بالمطبعة الأميرية، وابن عمه الذى أنشأ معمل الجوخ فى الروضة، وآخر تولى إدارة معمل البارود؟

ألم توفد مصر ضباطها إلى تركيا لينظموا الجيش التركى بعد إلغاء أجواق الإنكشارية؟ ومن الذى سبق المصريين إلى إنشاء المدارس فى السودان والأخذ بتثقيف أهله؟ ومن الذى طاف اليمن وعرف ما غمض على الأوروبيين من شؤونه؟ أليس الضابط المصرى سليم بك قد عدته مجامع أوروبا العلمية يومئذ رحالة مكتشفا؟ ومن الذى اجتاز اليَبَس الإفريقى من الخرطوم إلى زنجبار قبل الضباط المصريين الذين أدخلوا زنجبار فى حماية مصر بمعاهدة مشهورة ذات ستة بنود سميت بمعاهدة سليم قائد تلك الحملة؟ ومن الذى أنشأ معامل السلاح، والقماش، والزجاج وغيرها قبل مصر؟ وأى أسطول قبل الأسطول المصرى قد طاف حول القارة الإفريقية طوافا كاملا تاما؟

وإذا لم نقف بأبصارنا على القارة الآسيوية والقارة الإفريقية ذاتها وأرسلنا النظر إلى أوروبا ذاتها، عرفنا أن إسماعيل الفلكى المصرى هو الذى وضع الخريطة الجوية بين فرنسا وألمانيا كما وضع بعد ذلك الخريطة الجوية بين القاهرة والخرطوم، ونذكر أيضا ذلك العالم المصرى النابغ عثمان غالب الذى ذكره برجمن العالم البكتريولوجى الدنمركى منذ عهد قريب بقوله: «إن من الميكروبات ما لا يضر إلا إذا اجتاز جسما حيا إلى جسم ثانٍ حى، وهذا الاكتشاف العلمى الجليل الشأن لم يعرفه أحد قبل الطالب المصرى عثمان غالب، وهذا المذهب العلمى الجليل الشأن يستند اليوم إليه جميع علماء البكتريا فى البحث عن منشأ داء السرطان وعلاجه».

من هنا لأقول: إن مهمة مصر للعلم والعلماء وللشرق والغرب هى مهمة جليلة الشأن بسطها وزير المعارف الجليل بكلمة جامعة، أود من صميم الفؤاد أن تكون أمام طلبة الجامعة المصرية شعاراً لهم فيقولون مع معاليه وهم جلوس على مقاعد الدرس كما يقول أساتذتهم وهم على منابر التدريس: «ستكون الجامعة المصرية منارا عاليا يهوى إليها طلاب العلم ليغترفوا من بحارها وليستضيئوا بأنوارها».

داود بركات



الممكن والمستحيل
المجمع اللغوي[1]

بهذا العنوان كتب أحد مراسلي الأهرام أن الحكومة تعنى بإنشاء المجمع اللغوى الذى سيؤلف من ١٥ عضوا، وأن الأعضاء سيكونون من هيئات مختلفة يمثلون طوائف الشعراء كشوقي ومطران وحافظ ورجال القانون كعبد الحميد بدوى وأحمد نجيب الهلالى، ورجال الشرع كالشيخ المراغى، ورجال اللغة كأحمد الإسكندرى وطه حسين، ورجال العلم كعلى إبراهيم ومُشرَّفة، ورجال اللغات القديمة كالدكتور صبحى.

وقبل أن نبدى رأينا فى هذا المشروع الجليل الشأن الذى لا نعرف عنه إلا هذه النبذة الصغيرة نقول: إن هذه الفكرة جالت فى رؤوس أبناء اللغة العربية منذ زمن بعيد جدا، لا فى مصر فقط. بل فى كل بلد عربي. فظهرت فى بيروت عند ظهور النهضة الشهيرة من سنة ١٨٦٥ إلى ١٨٨٠، وظهرت فى مصر من سنة ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ ثم خمدت ثم اتقدت. وظهرت فى دمشق حيث ألفوا المجمع العلمى، وظهرت فى لبنان حيث ألفوا مثل هذا المجمع، وتطورت اليوم فى مصر فأخذت وزارة العلم ذاتها تعنى بتأليف هذا المجمع على النحو الذى نقل إلينا أو ما يدانيه.

فالفكرة إذن جالت فى صدر كل بلد عربى ولم تنبت هذه الفكرة فى الصدور إلا لشعور الذين يشتغلون بالأدب والعلم فى كل بلد عربى الحاجة بل بشدة الحاجة إلى هذا المجمع. ولم تنجح حتى الآن لأنها لم تعيِّن الغرض ولم تُوفِّر لبلوغ هذا الغرض الوسائلَ.

والذى لا يضع الغرض أمام عينيه، ولا يتخذ العدة للوصول إليه لا يبلغ غرضه ولا ينجح فى عمله.

١ - الأهرام، ١٤ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٢٨م.

فقد رأيناهم بالأمس يبحثون في قواميس اللغة عن أسماء للمسميات الحديثة، ورأيناهم يعودون إلى الحُوشِي والوَحشِي المهجور المنبوذ ليحملوا الأقلام على إذاعته والأقلام عافته، وليحملوا الناس على استعماله والناس نبذوه، فلم يفلحوا بالأمس ولن يفلحوا في ذلك غدا.

ورأيناهم بالأمس يبحثون لكل مسمى جديد حديث واختراع مولَّد بديع عن اسم في القاموس، وليس في القاموس أسماء تدل على ذلك المخترَع والمبتدَع فلم يتابعهم أحد. ولم يكن راضيا عنهم أدباء العرب في قبورهم؛ لأن الذين أخرجوا اللغة العربية من جمودها وخشونتها في بغداد على عهد العباسيين، وفي الأندلس على عهد حضارتها، وفي مصر على عهد الفاطميين إلى اللين والمرونة أبقوا لكل جديد جدته ولكل مسمى [اسمه][1] ولم يراعوا سوى الصيغ العربية وأوزانها في النطق فقط.

أراد هؤلاء الذين يدّعون معرفة اللغة وأصولها- وأنا أشك وارتاب كثيرا جدا في وجود جماعة يعرفون هذه اللغة وأصولها معرفة صحيحة- أن يرجعوا بها إلى عصر الخشونة والجاهلية، عصر الناقة والجمل والفرس في السير والحمل والركوب. ونحن قد صرنا في عصر الكهرباء والبخار والطيارات والغواصات وهذه وحدها تقاومهم وتغلبهم.

أرادوا أن يرجعوا بالأوصاف الطبية إلى عصر ابن البيطار وداود الأنطاكي، وهؤلاء (في)[2] عصرهم ذاته أخذوا الأسماء والمسميات عن اليونان، وأرادوا أن يرجعوا بعلم قياس الأرض وعلم الفلك إلى عهد أولاد موسى، وأين نحن اليوم من يوم أولئك، وأين العلم الحديث من علمهم القديم؟!

يريدون بالجملة أن يضعوا عيون الناس في مؤخر رؤوسهم لينظروا إلى الوراء، وقد خلق الله عيون الناس في وجوههم لينظروا إلى الأمام. فهل

١- أضيفت الكلمة حتى يستقيم السياق.
٢- كلمة مطموسة في الأصل، ولعل الصواب ما ذكرناه.



بالإمكان أن يعود الناس القَهقَرى وأن ينقلبوا على أقفيتهم وكل شيء في الكون يقول إلى الأمام، وكل شيء متحرك، فهل من سبيل إلى الجمود أو التقهقر؟

يقولون في وصف أجدادهم السابقين: «إنهم السلف الصالح»، فهل فعل السلف الصالح ما يريدون هم فعله؟ إن السلف الصالح فتح باللغة العربية لغة البرِّية الخشنة الجامدة باب المجاز فكان بابا واسعا جدا اتسعت به هذه اللغة ومرنت ولانت حتى صورت لأبنائها أدق الأشياء وأنحفها في عصرهم، وهو عصر إذا قيس بعصرنا عُدَّ عصرا جامدا خشِنا قليل المادة قليل العناصر قليل المسميات قليل الأسماء. فإذا مدحت ذلك العصر فقل إن أهله كانوا يعرفون لغتهم، وإذا ذممت هذا العصر فقل إن أهله لا يعرفون هذه اللغة. وأما أن تجعل لغة العصر الماضي صالحة لعلم العصر الحاضر فذلك محال؛ وهو محال لأنه نقيض العلم، فلكل حضارة لغتها، ولكل علم لغته في تلك الحضارة.

لذلك تجد اليونانية أم لغات العلم لغتين القديمة والحديثة. والفرنساوية والألمانية والطليانية وكل لغة في كل أمة متعلمة لغتين قديمة مهجورة وحديثة مألوفة.

أرادوا أن تكون هذه اللغة مستقلة بذاتها كل الاستقلال لتكون في غنى عن سواها من اللغات، فهل ذلك في الإمكان؟

إن اللغة ليست سوى مظهر من مظاهر مدنية الأمة وحضارتها. وليست ألفاظها وليست عباراتها سوى ظروف لأفكار الأمة ونفسيتها وميولها. فإذا أردنا أن نعرف اللغة وجب علينا أن نعرف نفسية الأمة قبل ذلك؛ لأن الأمة هي التي تخلق اللغة لتعبر بها عن أفكارها ونفسيتها وروحها وميولها وعواطفها، وليست اللغة- كما هم أرادوا حتى الآن- أن توجد الأمة أو تخلقها.

فإذا كان بالإمكان أن تعيش أمة من أمم الأرض بمعزل بالفكر والعلم والنظام الحياة عن الأمم الأخرى، كان بالإمكان أن تعيش لغة من لغات الأمم بمعزل عن الانفعال والتأثر والاقتباس من اللغات الأخرى. فما طلبوه محال، ولا يمكن أن يُحقق إلا إذا كان للعرب علم خاص وحياة خاصة لا تتصل بجهة من الجهات أو بناحية من النواحي بالأمم الأخرى وفنها وعلمها.

أرادوا أن تعتبر اللغة العربية لغة منزَّلة من السماء ولكن العربية لغة كسائر اللغات التى ألهمها الله لبنى الإنسان: فهى والسُّريانية والكلدانية والعبرية أخوات، ولها الاتصال الوثيق بالفارسية من جهة العراق، وبالحبشية من جهة اليمن والحجاز، وبالمصرية القديمة من جهة فلسطين، فكيف نستطيع معرفتها إذا لم نعرف هذه اللغات وما أخذته عنها وما أعطته لها؟ ومن الذين يستطيعون عندنا أن يقولوا إنهم يعرفون ذلك كله أو فى مقدورهم أن يَرجعوا بالأصول إليه أو يُرجعوه إلى أصوله؟

لقد ظنوا أن اللغة مفردات جمعها القاموس وعَرّفها القاموس، وما كانت اللغة كذلك، ولكنها جمل وعبارات تصوِّر المعانى ولا يمكن تصوير معنى اللفظة بتعريف القاموس بل هو يصوَّر بإيراد العبارة وموقعها منها.

اللغة اخترعها الإنسان القديم لوصف ما حوله وتسميته وما يحيط به من عناصر الطبيعة وما أوجدته يداه لقضاء حاجاته؛ فهى عند أبناء السهل غيرها عند أبناء الجبل، وهى عند أبناء الصحراء غيرها فى أبناء السَّبَخ[1] والوادى. وهى فى الشام تزيد فى بعض المسائل والشؤون عن مثلها فى العراق ومصر أو تنقص تبعا لما فى عناصر تلك البلاد وحاجات أهلها ومصنوعاتهم. وهى فى العراق ومصر تزيد من بعض الوجوه وفى بعض الحاجات والشؤون عن مثلها فى الشام أو اليمن أو الحجاز أو تونس أو المغرب أو تنقص.

١ - المكان الذى يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام. الجامع (سبخ).



هى لغة العرب لجميع العرب حيث يتكلمونها وحيث يكتبونها، فلا يجوز لمصر أن تدعيها ولا للشام أن تستأثر بها، ولا للعراق أن تزعم أنها ملكها وحدها، ولا لليمن أن تدعى معرفتها كلها، فكل قُطرٍ يعرف منها ما قد يحتاج إليه ويجهل منها ما لم يحتج إليه، ويعرفه سواه قضاء لحاجته.

واستنادا إلى هذه الحقيقة نقول بل نعتقد ونؤكد بأن المجمع العلمى فى الشام يُؤلَّف من أهل الشام وحدهم لا يستطيع أن يكون مجمعا علميا عربيا شاملا، والمجمع العلمى بمصر يُؤلَّف من علماء مصر وحدهم لا يستطيع أن يكون مجمعا علميا شاملا، ولا يستطيع أن يقضى من هذه اللغة حاجات أبناء مصر إذا قال قائل بالأثرة والأنانية. ولكن المجمع العلمى العربى الشامل هو الذى يجمع علماء الأقطار العربية كلها، فيُتِم بعضُهم ما ينقص البعض، ويكون التعاون الفكرى إما بالإبداع وإما بالاقتباس. وهذا التعاون العقلى، وهذا التعاون الفكرى هو وحده الذى جعل أوروبا أوروبا العالمة القوية سيدة الأمم بالقوة ومعلمة الأمم بالعلم- ومنبت كل شىء فى الكون هو القوة المستمدة من العلم.

وإذا قيل كيف السبيل إلى ذلك والبلاد العربية مقسمة ممالك وإمارات، وحكومات عديدة. قلنا إن ذلك بالإمكان إذا سعت حكومات هذه البلاد العربية إلى توحيد برامج مجامعها، واشتركت فى كل مبحث من المباحث، وأبلغت كل هيئة نتيجة عملها إلى الأخرى، وعقدت هذه الهيئات كلها مؤتمرا أو أكثر من مؤتمر فى كل عام للتحرى والتحقيق.

يرجعون إلى القاموس فى البحث والاستقصاء فهل هذا القاموس صحيح؟ وهل هذا القاموس كامل؟ وهل هو كاف؟

إنّا لا نظن ولا نعتقد بشىء من ذلك، والذى يؤيد اعتقادنا هو القاموس ذاته لمن تحرّاه ثم سبب تدوين هذا القاموس.

لقد دونه الفقهاء ليعرفوا معانى الألفاظ التى وردت فى الأحاديث النبوية والآيات الكريمة القرآنية مخافة أن تغيب عن أذهانهم ومخافة ألا تصل معانيها الصحيحة إلى الأجيال المقبلة.

وإذا كانوا قد توسعوا بعد ذلك بعض التوسع فإنهم لم يحصوا العربية كلها، ولم يحصوا جميع كلام العرب. وإذا كانت المترادفات كثيرة والمسميات لاسم واحد عديدة فهذه المترادفات هى لغات للعرب فى جهات عديدة، وهذه الأسماء لهى أوصاف ونعوت للمسميات.

لا ندخل فى البيان والتفصيل بل ننظر إلى المشروع فى جوهره لنقرر أن هذا المشروع لا ينفع ولا يفيد إلا إذا توافرت فيه شروط كثيرة:

الأول- أن يُوكَل العمل فيه إلى الاختصاصيين لا إلى الموظفين فى دواوين الحكومة كما فعلوا حتى الآن؛ فقد يصح أن يكون الموظفون أعوانا ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا أركانا.

الثانى- أن يعين للاختصاصيين فى كل فن وعلم أجر يمكِّنهم من البحث والدرس والاستقصاء، لا أن يكون العمل تطوعا من ناس قد لا تسمح لهم أشغالهم بالانصراف إلى المباحث الدقيقة.

الثالث- أن يشترك فيه علماء الأقطار العربية كلها حتى تجتمع كلمة العرب على استثمار المجمع العلمى العربى.

الرابع- أن يكون من أعضائه من يعرفون الفارسية والسريانية والكلدانية والعبرية ونحوها وتصاريفها مما يرجع المجمع العربى إلى الأصول التى نبتت منها اللغة ومعرفة مدلولاتها الصحيحة واستقصاء طرق المجاز.

الخامس- أن يُسار فى العمل على طريقة الإفرنج فى تأليف قاموسهم للغاتهم لا على طريقة القواميس العربية القديمة.



السادس- أن يكون فى هذا المجمع أعضاء عاملون من كبار المستشرقين وأعضاء مراسلون من هذه الطائفة الجليلة العالمة المحققة.

بذلك وبأمثاله يكون العمل مفيدا ويكون ناجحا، وإلا كان مظهرا فقط، والمظاهر لا تغنى عن الجوهر ولا عن الحقائق شيئا.

داود بركات

ساعتان فى الترسانة وبين عمالها[1]

انظروا إلى مستقبلكم
إنه فى دُور الصناعة

حق للمصرى بالأمس وقد تحررت أرضه وصارت ملكا له ولم يعد هو والأرض عبدا وملكا للسلطان أن ينظر إلى مستقبله فى الأرض وفى الزرع والضرع فقط. فالأرض أُمنا ومنها غذاؤنا وبها ضمانة وجودنا. وحُقّ لمحمد على الذى ألف ملكه الضخم من الطوروس إلى بحر الهند، أن تكون مفخرته فى تحرير المصرى وعتق أرضه وفتح كنوز تلك الأرض لساكنها وتمليك تلك الأرض لأولئك السكان بكل الطرق والوسائل حتى الإكراه بالكرباج والتيلة أكثر من مفخرته بتأليف هذا الملك الضخم.

فمنذ ١٨٤٠ إلى اليوم ونظر المصرى متجه إلى ذلك الكنز العظيم- الأرض- الذى استنفد مكنوناته- أو كاد- وأثرى به، وتعلم بثمرته، واغتنى بثمنه وقيمته، وعامل العالَم بحاصلاته. فإذا كان هذا الكنز لم ينفد فإن الذين يمترون[2] منه ويغترفون قد كثروا حتى تضاعفوا أضعافا، فمهما كثر دخله اليوم ومهما زاد دخله غدا فإن هذا الدخل لن يعادل زيادة السكان، ولن يقوم بجميع حاجاتهم. والزيادة فى العدد تضاعفها الزيادة فى الحاجات لانتقال هذه الأمة من الاكتفاء بالضروريات إلى طلب الكماليات. فأين أين تجد هذه الزيادة رزقها اليوم؟ وأين أين تجد هذا الرزق والكماليات غدا؟

إنها لا تجده ولن تجده فى غير الصناعة، وإنها لا تجده ولن تجده فى الصناعة الكبرى لاستحالة مزاحمة أوروبا والأوروبيين والأميركان، ولكنها

١- الأهرام، ٢٦ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٢٨م.
٢- يأخذون ويستخرجون. الوسيط بتصرف، (مرى).



تجده فى الصناعة الصغرى تلك الصناعة الصغرى النابتة فى جميع أنحاء البلاد الآن والنابتة كالجنين بين ضروب الآلام والمشاق العظام لقلة النصير- والعون والمساعد، ولإهمال القَيِّم- أى الحاكم- أو لجهله أو تجاهله.

وإذا كانت الحاجة تَفتُق الحيلة فإن هذه الزيادة فى سكان الأقاليم وقلة الرزق وموارده قد ألقت بالكثيرين إلى المدن، ودفعت بالكثيرين من هؤلاء إلى دور الصناعة، حتى أحست الحكومة بأن فى البلد صناعة وأن فى دور الصناعة صناعا، وأن تلك الدور ومن فيها بحاجة إلى التشريع وبحاجة إلى البيئات الخاصة وإلى الدور والمساكن، فانصرفت إلى توفير ذلك كله ولم تكن لها مندوحة عنه.

و١٦٦ ألفا فى القاهرة ومثلهم فى الإسكندرية ومثلهم فى السويس وبورسعيد والمدن الأخرى الكبرى يُكرهها عددهم ووجودهم وحالتهم ومطالبهم على ذلك إكراها.

وهل باستطاعتها بعد اليوم أن تتناسى أو تتجاهل ٧٠٠ ألف عامل وصانع؟ وهل تستطيع الصحافة وهى مرآة الرأى العام أن تجهل وجود العنابر وفيها ٤٥ ألف عامل؟ أو الترسانة- دار الصناعة- وفيها ٢٥٠٠ عامل؟ وهل تغفل المحالج وهل تغفل المغازل وهل تجهل أو تتجاهل المصانع والمعامل الأخرى؟

إن الأمة فلاحة وإن عدد الفلاحين من أبنائها ٤ ملايين وربع مليون، ولكن الحاجة قضت بوجود الصناعة، والصناعة تُشغِّل الآن ربع من تُشَغِّلهم الفلاحة. وقوة هذا الربع فوق قوة الثلاثة الأرباع إذا سادته الفوضى وإذا غضب أو تذمر لأنه كتلة واحدة، وهذه الكتلة الواحدة من العمال فى أوروبا هى التى أوجدت نظام أوروبا الحالى، وهى التى تطوّر ذلك النظام كل يوم.

دُعيت لزيارة الترسانة– وهذا الاسم صار اسمها المحرف من دار الصناعة ولا سبيل للعودة إلى الأصل– فطابت نفسى للدعوة وضاعف فى ارتياحى أن عمال هذه الدار القديمة– دار صناعة محمد على التى وصلت إلى الفَناء والدمار على عهد الاحتلال والحماية وجددت شبابها على عهد الحرية والاستقلال، فخورون بدارهم، فخورون بإتقان أعمالهم، فخورون الآن فوق ذلك كله باستقلالهم كل الاستقلال؛ لأنهم جميعا من الوطنيين. يعملون بحذْق وبجد ونشاط بإدارة رئيسهم الوطنى أحمد حافظ شكرى الذى احترف حرفتهم غلاما فى مدرسة الصنائع، وحذق هذه الحرفة فى بلاد الإنكليز، ومرن على الأعمال وإدارتها وإتقان تلك الإدارة فى أكبر المعامل، فلما اعتزل المدير الإنكليزى «ساور» إدارة الترسانة تولاها شكرى وإلى جانبه زميله مصطفى فتحى ومعهما عبد العزيز أحمد، وعلى رأس القسم الميكانيكى البارع عبد اللطيف محرم ،ولما تولاها زاد عدد عمالها من ١٥٠٠ إلى نحو ثلاثة آلاف، وزادت أعمالها فى سنة واحدة من ١٦٠ ألف جنيه إلى ٣٦٠ ألف جنيه وجعل قاعدة تلك الأعمال القاعدة الاقتصادية الصرفة «العرض والطلب»، وعاونه إخوانه من رؤساء هذه الدار ورؤساء الورش فيها لشعورهم جميعا بأنهم يعملون عملا وطنيا، ولشعور كل واحد منهم بأن عليه إجادة العمل وبأنهم وطنيون مستقلون تتعلق كرامتهم ويتعلق نجاحهم وتتعلق فوق ذلك جدارة المصرى بالاستقلال بعمله، فكانوا وهم ١٥٠٠ يعمل نصفهم، فصاروا ثلاثة آلاف يتوافر لهم جميعا العمل.

وإن قوما تتملك هذه العواطف نفوسهم مضمون بلا شك ولا ريب لهم النجاح، وأول مراتب النجاح الثقة بالنفس وحب الواجب.

نجد فى مكتب المدير أنموذجا جميلا من أثاث المنازل والمكاتب، صناعة



متقنة بأجود الأدوات وأوطأ الأسعار. وتجد أنموذجا لرقابة العمل فيعرف منه فى كل يوم ما يطلب وما ينجز وموعد الإنجاز وقيمته، وعلى ذلك يسير العمل بدقة.

وتجد رئيس كل قسم مسئولا عن إدارة قسمه، وكل رئيس من هؤلاء الرؤساء واقفا على سر قسمه؛ لأنه كان عاملا من عماله فارتقى درجاته حتى الرياسة.

تدخل تلك الورش فتقعُ من أذنك أصواتُ المطارق وحفيف المناشير وهدير الأفران ونفخ الأكوار وروح النشاط المخيم على المكان كله، وَقْعَ الموسيقى أو أعذب أنغاما من نفوس الذين يقدرون الصناعة فى حياة الأمة حق قدرها؛ لأن أولئك العمال المجدين النشيطين لا يعملون لأنفسهم فقط بل يعملون لوطنهم، ولأن ذلك النشاط والجد المقرون بالفن والعلم هو الحياة بل هو الحياة العاقلة المدركة والحياة تُحَب.

هذه الورشة الصناعية الفنية سبعة أقسام، قسم للنجارين يعمل فيه ٧٠٠ عامل جلهم من خريجى المدارس الصناعية، أنجزوا للمدارس وحدها عشرة آلاف مقعد وطاولة ومكتب ودولاب، وأغنوا الدواوين والمصالح ودور الكبراء عن معامل أوروبا؛ لأن ما يصنعونه تحسدهم عليه معامل أوروبا، وهذا القسم مؤلف من فروع، كل واحد منها يصنع جزءا مما يُطلب منه عمله، ففى طرف الورشة الأخشاب على اختلاف أنواعها يتناولها النشّار للقطع، ثم الصاقل للصقل ثم التفصيل، وهكذا تصل كل قطعة من تلك القطع إلى آخر القاعة وهى مُعدّة جاهزة للتركيب.

وإلى جانب النجارين الخراطون، وعددهم ٢٠٠ صانع يُصلحون جميع الآلات والعدد. ثم ورشة البرشام والحدادة وهذه الورشة تصنع الكبارى، وقد رأينا هذا القسم وقد صنع كُبريا لكفر شكر طوله ٣٠ مترا بعرض ٥

أمتار على صينية متينة، ورأينا الصنادل والزوارق والرفاصات المعدة للإبحار بالنيل والمواسير الكبيرة وسحارات الرى... إلخ، وعدد عمال هذا القسم ٨٠٠ عامل. وقد أنزل إلى النيل أمام الورشة الباخرة بقادة تسير بالمازوت، وقد سارت أمامنا فى النيل تسابق صندل الحرائق الذى يسير بالبترول ليكون جاهزا سريعا.

وهذا الصندل أو الرفاص الجميل الذى بدأت الترسانة صنعه منذ عام فقط يحدثك قائده عن خدماته التى قام بها منذ إنجازه؛ فهو الذى أطفأ حريقة المعرض الزراعى وحريقة البدرشين وحريقة معمل الحوامدية وحريقة التبن فى مصر القديمة وغيرها وغيرها، وفيه أربع أنابيب ترسل الماء إلى ٣٠ مترا وإلى علو ٢٠ مترا. وإلى جانبه الرفاص الذى صنعته الورشة لبلدية بنى سويف وهذا الصندل يستخدم لنقل الموتى لأن مدافن بنى سويف فى الجبل الشرقى ويسهل استخدامه لنقل الركاب، وقد تساءلنا لماذا لا يستخدمونه للإطفاء فقال لنا مدير الورشة إن ذلك من السهل وإن من السهل أن نصنع بكل بلدة على النيل صندلا كهذا يستخدم لإطفاء الحريق ونقل الركاب ولغير ذلك من المهام مع قلة النفقة حتى صُنع أحد الرفاصات بأقل ألف جنيه عما طلبت المعامل، فهل تسمع مجالس المديريات وهل تسمع هذا القول البلديات وهل لجميع الهيئات آذان تعى؟ وهناك عدد ليس بالقليل من الصنادل والرفاصات لمصلحة الرى لم يتم صنعها لتستخدم فى الترع الصغيرة.

بل هناك كل ما تحتاجه مصالح الحكم ومصالح الأفراد لو عرفت مصالح الحكم جميعا ما هناك. ولو عرفت وعرف الأفراد أن فى إحياء هذه الصناعة إحياء للبلد وإبقاء على ثروة البلد من أن تتسرب إلى الخارج، ولو عرف كل مصرى أن ما ينتقل من يده إلى يد أخيه قد يعود إليه، وأن ما يذهب إلى



الخارج لا يرجع إليه منه شيء؛ فالباقى فى البلد ربح والخارج منها خسارة.

ننتقل من هذه الورشة إلى المسابك، فنجد مائتى عامل يشتغلون بسبك الزهر الخام والنحاس والألومنيوم.

وقد قيل لنا إنهم يسبكون فى الشهر ١٥٠ طنا، وإذا مررت بأفرانهم رأيت هذا الزهر الصلد يتحول إلى ذائب كالماء يصب على القوالب فإذا هو بعد بضع دقائق صفائح صلبة منقوشة نقشا بديعا لا يستطيع الناقد البصير أن يجد فرقا بين ما يُستورد من أوروبا ومن أتقن مصانعها وبين ما يصنعه هؤلاء العمال الوطنيون ويزيدون بمتانته.

وقد رأينا لإدارة هذا القسم عملا اقتصاديا يستحق الذكر نضرب عليه المثل بالصفيحة تعلق على الأوتوموبيل أو العربة؛ فقد كانت تباع بمبلغ ٤٥ قرشا، فصب هذا القسم صفائح أتقن وأمتن ولا يتجاوز ثمنها ٥ قروش.

ننتقل إلى قسم التنجيد حيث نجد ١٥٠ صانعا يصنعون الخيام والأثاثات والشنط والأعلام... إلخ، وقد صنعوا كثيرا لمصلحة المساحة والصحة والأشغال ونقالات وملابس للمستشفيات.

تسأل العمال عن مدة عملهم فى الورش فتعرف أن الغلام بين الرابعة عشرة، والسادسة عشرة يدخل إحدى هذه الورش بخمسة جنيهات تعد تأمينا على أن يواصل العمل إلا أولاد العمال، فإنهم يُقبَلون بلا تأمين؛ فبعد خمسة أشهر من تمرنهم يعينون للواحد منهم قرشين، ثم ترقى الأجرة حتى تصل إلى ٦٥ قرشا فى اليوم.

وَسرَّنا أن رأينا عشرة من خريجى مدرسة الهندسة يصنعون رسوم العدد والآلات اللازمة لبعض الأعمال الجديدة، يعاونهم فريق من خريجى مدرسة الصنائع، وهكذا أصبح القسم الميكانيكى مدرسة عملية بفضل ذلك المهندس القدير محمد بك عبد اللطيف محرم الذى

يتولى رئاسة هذا القسم الكبير، ويديره الرجلان النشيطان من خيرة شبابنا المتعلمين أحمد أفندى حافظ شكرى ومصطفى أفندى فتحى، والأول- كما قلنا- يدير قلم الورش، والثانى يدير قلم الترميمات، وقد انضم إليهم منذ ثلاثة شهور الدكتور عبدالعزيز أحمد الذى كان ناظرا لمدرسة الهندسة.

وإذا كنا نود الوقوف عند ما يُفرح ويَسر، ونهوض هذه الورش يُدخل على النفوس السرور والفرح، فإنا نشفق من ذكر المحزن الذى يقضى بالأسف وهو تجاهل بعض الوزارات هذه الورش وتجاهل الحكومة مكافأة القائمين بأمرها وتنشيطهم، وفوق هذا كله «لا تعدم الحسناء ذامًّا».

لقد قلت فى صدر هذه الكلمة إنى رأيت مديرى هذه الترسانة وعمالها فخورين لأنهم يعملون مستقلين، ولأنهم من وراء استقلالهم رقَّوا مصنعهم رقيا كبيرا بعدما اعتزل الإنكليز الاثنا عشر العمل.

تسمع من رؤساء القسم الميكانيكى مفاخرتهم بأعمالهم، وإذا ذكروا لك تلك الأعمال قلت بلا تردد إنه يحق لهم أن يفخروا؛ فهم الذين أنشأوا محطة طلمبات البوصيلى، ومحطة طلمبات بنى صالح، وغيروا طلمبات القصاصين، وطلمبات المكس، وهم يشتغلون بإنشاء طلمبات السرو للصرف، ومحطة جديدة لتوليد الكهرباء للطلمبات الجديدة شمالى الدلتا، ومحطة طلمبات أسست للرى بإسنا، ومحطة طلمبات بلقاس للصرف، ومحطة طلمبات العطف للرى ولإمداد الطلمبات التى تقرر إنشاؤها فى البحيرة بالكهرباء وبالإنارة لمدينة العطف.

فإذا عرفت هذا كله وهذا بعض ما تراه وتعرفه فى دار الصناعة المصرية، ورأيت أولئك الشبان العاملين المجدين الرؤساء منهم والمرؤوسين، ثم رأيت تلك الكؤوس الفضية التى غنموها فى مسابقات الألعاب الرياضية وقد



كان أحدهم بطلا من أبطال الألعاب الأوليمبية، ثم عرفت أن جلالة ملك البلاد أمر بأن تُعمل بهذه الورش جميع حاجات الركائب الملكية؛ حكمت معنا بأن فى هذه الدار وأمثال هذه الدار مستقبل البلاد، وإلى هذا المستقبل يجب أن تتجه الأنظار.

داود بركات

يومان فى لجة التاريخ
ومن على شرفة الديار المصرية[1]

إذا قلنا اليوم «السويس» لا يتبادر إلى ذهن المصرى إلا تلك القناة التى حفرها بيده وبماله وفى أرضه منذ ٦٥ عاما، ولم يجن منها ثمرة إلا أن تكون مصر ملكا للقناة بدلا من أن تكون هذه القناة ملكًا لمصر، وأن يملك هذه القناة ومنافعها كل إنسان فى العالم إلا المصرى. فهل عند هذا الحد، وفى هذه الذكرى، وفى نتيجة ذلك المجهود العظيم الذى بذلته مصر ينتهى بنا طواف الفكر فى الماضى وتطلعه إلى المستقبل؟

لا.

إن لناموس الطبيعة حكما فوق أحكام ناموس الناس، فإذا قام دون ناموس الطبيعة وأحكامها حاجز أو مانع أو عائق أو طارئ حينا ما، فإن هذا الناموس يذلل العقبة الكؤود ويطغى على الحاجز العتى ثم يسير سيرته.

فالسر كل السر- كما قال شكسبير- هو الوجود[2]، ومصر موجودة، ومصر حية تزداد حياتها كل يوم قوة، فالمستقبل بُعد أو قرب هو لها. وما عرفنا فى تاريخ أمة من الأمم أن مستقبلها كان رهن وجهة أخرى غير الشرق، حتى هذه الأمة الأميركية الغنية الواسعة الأرض الكبيرة النشاط العظيمة الثروة فإنها تتطلع كسواها من الأمم والشعوب إلى مشرق الشمس.

فإلى السويس قال رفاقي- وكلهم حصيف الأدب وكلهم عالم عامل- لنطل من تلك الشرفة- شرفة الديار المصرية- إلى الشرق، فقلت: أجل. وأرسل قبل الوصول إليها والإشراف منها على العالم الشرقى نظرته إلى

---

١ - الأهرام، ٤ تشرين ثان/ نوفمبر ١٩٢٨م.

٢ - ترجمة للعبارة «To be or not to be, this is the question»، التى شاعت ترجمتها بـ « أكون أو لا أكون تلك هى القضية».



ذلك الماضى الذى نحن بنوه، وهذه البلاد وليدته والذى سيكون المستقبل خليفته.

أيذكر المؤرخون المصريون تلك الملكة الفرعونية هانشو سبيتو وذلك الفرعون العظيم سيزوستريس الثانى الذى يلقب بالفاتح لأنه رَكَزَ رموزه وأعلامه وأنصابه على مجرى الفرات؟ أيذكرهما المصريون وقد نمت مصر بلادهما وكبرت عمارتها وعمرانها وزاد أهلها وارتقت حضارتها ومدنيتها فضاقت بالملايين، فاستوحت هانشو سبيتو الآلهة فقالوا لها وقالوا لكهانها وقالوا لقوادها من وراء ستر الكرنك وحُجُب الهياكل فيه: «اذهبوا إلى أراضى بونط وموانئ البخور ومراسى الذهب والحجر الصقيل والخير الجزيل... إلخ» فسُطر أمر الآلهة على صخور الدير البحرى، حيث يقرؤه المصريون الآن، وذهب أجدادهم بمراكبهم التى حفروا لسيرها التُرع إلى البحيرة المرة، فالسويس، فالبحر الأحمر، فأرض بونط- بين سواكن ومصوع وما ناحاهما- فعادوا بالبخور للهياكل وبالذهب واللؤلؤ والجواهر والحجارة وكل غالٍ ونفيس حتى المواشى والأسماك.

وعلى هذه الطريق سار بعد ذلك رمسيس ففتح سوريا ثم سيزوستريس، واتسعت مصر الضيقة على أهلها. وسَطر أعماله المجيدة على جدران القنطرة كما تشهد أنقاضها، وأنفق هذا الفرعون حياة ١٢٠ ألف رجل فى حفر القناة من بابليون- مصر القديمة- إلى وادى الطليمات، فالبحر الأحمر. فقال له الآلهة من وراء جدران المعابد بعد ذلك إنه يفتح بلاده للبرابرة، ولم يكونوا مخطئين؛ فإن داريوس دخل هذه البلاد من تلك الطريق وخلَّد تاريخ دخوله على جدران الشاونة بين القنطرة وبورسعيد. وعلى عهده كانت المتاجرة تسافر من الهند إلى البحر الأبيض ومن أسيوط إلى السودان. وهذا العهد انقضى. وجاء عهد البطالسة (٢٨٥ قبل الميلاد)

فأعادوا فتح القناة التى طمرها الفرس، ولكنهم حموا أنفسهم بالبوابات العاتية، أنشأوها ليستدروا بالقناة الخير من الشرق وليدفعوا بالأبواب شر الغارات عليهم. ثم جاء الرومان فوجد غازيهم أنطوان كليوبترا ملكة المصريين تجمع جواهرها وتحشد مراكبها بعد معركة أكسيوم لتفر بجواهرها إلى بحر الهند.

جاء عهد الإغريق فاكتفوا من الغنيمة بمصر وحدها وأقفلوا القناة وهجروا السويس؛ إلى أن جاء عهد العرب، فرأى عمرو فتح القناة وخالفه الخليفة عمر حتى لا نفتح بها طريق النصارى إلى بلاد العرب. وجاء العباسيون فثار عليهم محمد بن عبد الله بن الحسن فى المدينة، فأبى الخليفة فتح طريق للسويس حتى لا تصل المؤن إلى الثوار فى الحجاز واليمن من مصر.

ولما صارت لأوروبا سفن ومراكب تطلعت إلى الشرق. وكانت شُرفة الشرق إلى أوروبا مدينة الإسكندرية، وكانت الإسكندرية ومخزن السويس شرفة مصر إلى الشرق، فأرادوا أن تفتح لهم مصر طريق السويس فأصرت مصر على أن تكون هى وحدها الوسيط بينهم وبين المشارق.

إلى أن فتح فاسكو دى غاما فى القرن الرابع عشر طريق الرجاء الصالح، وقد عرَّف الأدباء المصريون هذا الأميرال البرتغالى[1] فى رواية الإفريقية يمثِّلها الإفرنج بلغتهم فى دار الأوبرا، وكان يمثلها الشيخ سلامة بالعربية فى دار التمثيل. هؤلاء البرتغاليون حاولوا بعد خمسين سنة الاستيلاء على السويس، بل خطر لهم قطع النيل عن مصر. ولم يدخل الإنكليز الميدان إلا بعد أن انتهبوا من هولندا طريق الرجاء الصالح فى القرن السابع عشر، ومن البرتغال وفرنسا الهند. وغنموا فرصة عصيان على بك على السلطان فجاءوا ليحتكروا سواحل البحر الأحمر لتجارهم. وكان أول مركب من

١- فى الأصل (البرتوغالى). والصواب ما ذكرناه.



مراكبهم أذن له بدخول السويس بوساطة قنصلهم جيمس بروس حوالى ١٧٨٠ . ومما يذكر لهذا القنصل أنه أول من اختط لحكومته أن تستعيض عن أميركا التى أضاعتها بمصر طريق المشارق .

ولكن التسابق إلى الشرق بين فرنسا وإنكلترا والنمسا والبندقية كان تسابقا إلى مصر، فسبقت فرنسا سواها إلى عقد أول معاهدة لنقل تجارة المشارق إلى الغرب، فتعهد لها مراد بك بأن يدع لفرنسا حرية المرور بالمتاجر بين الإسكندرية والسويس على شرط أن تدفع ٢ بالمئة للباشا الموفد من تركيا، ولمراد بك ٤ بالمئة، ولأمين الجمارك نصفا بالمئة، وللشيخ نصر شديد من عرب القليوبية مبلغا معينا عن كل حِمل من الأحمال لِخفارتها من السويس إلى الإسكندرية . وبعد سنين قليلة عقدت إنجلترا معه مثل هذا الاتفاق على يد قنصلها بلدوين، ولكن الباب العالى قاوم هذه الاتفاقات ليبعد الإفرنج عن سواحل بلاد العرب .

لا أطيل الحديث التاريخى الذى أمرّ به مرورا لأدل القارئ المصرى أو بالأحرى لأتذكر معه وأُذكره بأن السويس ليست بنت اليوم، وبأن أهميتها الكبرى لم تولد بمولد القناة فى سنة ١٨٦٥ ، ولكن هذه الأهمية من وجهتى الخير والشر على مصر كانت منذ أقدم العصور بوحى الآلهة وبوحى القواد والسياسيين . وأن المرور بهذه الطريق التى تمر بها اليوم من القاهرة إلى السويس– وقد مهدت بأمر جلالة الملك فؤاد ووحيه– حفظه الله– منذ سنتين– يذكرنا بذلك كما يذكرنا بأن نابليون ذلك الغازى الذى غزا مصر فى سنة ١٨٩٧ لم يلبث فى القاهرة بعد أن دخلها إلا قليلا، ثم قصد إلى السويس شرفة الديار المصرية على مشارق الأرض، فلما بلغها قال لقواده : إن هذا الجيش الذى أقوده هو الجناح الأيسر من الجيش الذى أحارب به إنكلترا .

أجل، إن نابليون سار فى تلك الطريق التى فتحت منذ سنتين بوحى جلالة الملك فؤاد وأمره، والتى جعلت القاهرة الآن على مسيرة ساعتين إلى ثلاث ساعات، ولم ينته العمال من رصفها[1]، ثم عاد إلى القاهرة على مجرى القناة الفرعونية حتى بلبيس.

وما دمنا فى لجة التاريخ وفى أطماع أوروبا بمصر حق علينا أن نتم الرواية عن رأى ذلك القنصل الإنكليزى الذى أشار على حكومته بأن تمتلك مصر وميناء السويس لنستعيض بهما عن ضياع أميركا، فنقول: إن إنكلترا اقترحت على الدول أن ترسل هى نابورا لاحتلال الإسكندرية تأمينا للأوروبيين على أموالهم من جور المماليك، ثم حاولت على عهد محمد على فى سنة ١٨٠٧ مثل هذا الاحتلال، فألقاها فى معركة رشيد إلى البحر.

وكل مصرى يعرف أن محيى هذه الأمة محمد على الكبير اختاره المصريون لحكم بلادهم فى سنة ١٨٠٥، فبعد أن استتب له الأمر فى سنة ١٨٠٧ قصد إلى السويس من هذه الطريق ليشرف منها على الشرق، وكل مصرى يعرف أنه فى سنتين بنى ٢٠ مركبا لنقل جيشه إلى بلاد الحجاز لإخماد ثورة الوهابيين رافضا عرض الإنكليز أن يقدموا له ما يحتاج من السفن والمراكب.

ولا يتساءلن المصرى الذى يسير اليوم على تلك الطريق ما هى تلك الأنقاض: أنقاض العمارات الكبيرة والصغيرة على جانبى الطريق من القاهرة إلى السويس؟ إنها أنقاض القلاع والمعاقل التى بناها ذلك النابغة الأمى ليحمى القاهرة. ولما لم يفلح سعيهم معه عرضوا عليه إبرام معاهدة نقل بضائعهم بهذه الطريق من الإسكندرية إلى السويس على شرط أن يمهلهم مدة سنة لتصفية أعمالهم إذا وقعوا فى حرب مع الترك، وأن

١ - فى الأصل (رصمها)، والصواب ما ذكرناه.



يعطوه ٣ بالمئة ضريبة جمركية، و٦ بالمئة لحراسة النقل؛ لأنهم كانوا قد أخذوا جزيرة «سِقَطرى» من الهولنديين، ووضعوا يدهم على عدن فى سنة ١٨٣٩. ولم يكفهم ذلك، فامتلكوا «بريم» وجعلوا من ذلك كله جبل طارق ثانية.

وحدث قنصل النمسا محمد على بفتح القناة من السويس إلى البحر الأبيض فكان جوابه المأثور: «لا أريد فى الشرق بوسفورا ثانيا، وإذا أنا فتحت هذه الطريق وضعت إنكلترا بابا على المدخلين وحرمت علىّ وعلى العالم الدخول والخروج من هذين البابين بغير إرادتها».

ويعرف المؤرخون المصريون أن محمد على أراد التخلص من هذا الحرج الإنكليزى بالاشتراك معهم بإنشاء شركة النقل بخمسة ملايين قرش، ولكنه لم يلبث أن ابتاع أسهم تلك الشركة كلها. وكان لها ثلاثة فنادق، أحدها بالإسكندرية، والآخر بالقاهرة، والثالث بالسويس، وثلاث بواخر للنقل بالنيل من الإسكندرية إلى بولاق، وقافلة من الجِمال والبغال والخيول للنقل فى طريق الصحراء.

ولما ظن محمد على أنه يخلص من حرجهم واستقل بالنقل طلبوا منه الإذن بمد الخط من الإسكندرية إلى السويس فى سنة ١٨٤٥ فأبى للسبب ذاته، فقالوا فى طلبهم: إذا لم تسمح بذلك فإذن لنا بتسيير المركبات البخارية. فأبى، ولكن خلفه عباسا الأول هدم هذه الدولة هدما، فسرح جيش محمد على، وكان ٢٥ ألفا، وطرد الموظفين الخبراء، وأوقف كل من الإصلاحات، وعزم على بيع الأسطول للنمسا، فاعترضت عليه فرنسا اعتراضا شديدا حال دون ذلك. واستولى على عقله وليُّه المستر مرى قنصل إنكلترا، حتى كان يلازمه فى رَوَحاته وغَدَواته، ونال منه الامتياز بمد الخط الحديدى من الإسكندرية إلى القاهرة على أن يتموا هذه السكة إلى السويس.

وفى ٣ نوفمبر ١٨٥٠ بدأ المهندسون الإنكليز بتخطيط السكة الحديدية، ولما اعترض الفرنساويون على مد الخط إلى السويس كان رد الإنكليز أنها ستمد إلى قنا؛ لأن ميناء القصير أصلح لخدمة مراكبهم. وبلغ من خنوع عباس للإنكليز أن الباب العالى طلب منه بعض المطالب فذهب إلى الصعيد منتظرا نهاية المكالمة بين الباب العالى وإنكلترا فى هذا الصدد، ولم يكن المستر مرى يفارقه، فأقام معه حتى عاد إلى القاهرة. وكان الأمر الذى أصدره عباس باشا للحكام أن يسخِّروا دائما أربع[1] قلاع ليمدوا السكة الحديدية بإدارة المهندسين الإنكليز. وعقدت معه شركة الهند الإنكليزية اتفاقا بأن ينقل من السويس إلى الإسكندرية كل ما يطلبون نقله من البضائع والمتاجر مقابل ٦ آلاف جنيه فى السنة، ولكن هذا المبلغ كان عباس باشا يدفع ضعفيه أى ١٢ ألف جنيه للمستر والنس ليقوم بالنقل للسويس إلى محطات للقوافل. ولزيادة التقرب من إنكلترا دفع هذا الوالى للمستر إسفنسون الذى سعى لمد السكة الحديدية ٥ ملايين فرنك مقابل أتعابه.

وهكذا كانت السكة الحديدية المصرية السكة الثانية فى العالم، فلم تتقدم مصرَ فى هذا السبيل سوى إنكلترا وحدها.

فهذه السياسة- سياسة عباس باشا- أغضبت أسرة محمد على على عباس، فغادر سعيد باشا ولى العهد مصر إلى أوروبا، وأمر عباس باشا بإيحاء من المستر مرى بأن يفتش قصره، وبأن يسجن جميع أتباعه فى القلعة.

ولما وجد الإنكليز أن العمل بالسكة الحديدية بطىء طلبوا من عباس باشا أن يخرج ٢٥ ألف فلاح لمدها ففعل، ولكن هذا (...)[2] تركيا فى الحرب، وأدرك عباس أن الشعب ناقم عليه، فانزوى فى القصر الأبيض على طريق السويس، وهو القصر الذى لا تزال أسسه قائمة حتى الآن بالقرب من

١- فى الأصل (أربعة)، والصواب ما ذكرناه.
٢- بياض فى الأصل.

الكيلو متر ٥٠، ومن ذلك القصر انتقل إلى بنها حيث لقى حتفه.

ولا أظن أن قراء الأهرام نسوا تلك المناقشة التاريخية عن مقتل عباس باشا على صفحات الأهرام، وكيف أن إلهامى باشا ابن عباس أتى إلى مصر وعرف قاتلى والده الاثنين، فلحق بهما إلى الأستانة وأطاح رأس أحدهما على مائدة أحد الوزراء انتقاما لوالده.

وخلف سعيد باشا عباس باشا فأعطى دلسبس امتياز حفر قناة السويس وأدخل مصر فى طورها الحديث.

ذلك ما تذكرنا به الطريق من القاهرة إلى السويس، بل إن هذه الذكرى تبدأ قبالة فندق شبرد؛ ولم يكن شبرد إلا أحد المتعهدين بنقل المتاجر والتجار من الإسكندرية إلى القاهرة فالسويس.

ففى السويس تلك الشرفة من الديار المصرية على المشارق تذكرت ورقا فى عظات التاريخ، والتاريخ أبو العِبر، وقد قال لنا فى الماضى بعض ما قلت لك، فماذا يقول لنا فى الغداة؟

إن للحوادث وسنن الكون أحكاما لا تخفى ولا تبين.

ولا علـم لـى بالغيـب إلا طليـعـة   من الرأى لا يخفى عليها المغيب[1]

داود بركات

١- البيت من قصيدة للشريف الرضى، وقد ورد بلفظ:
ولا عِلمَ لي بالغيب الا طليعةً   من الحَزْمِ لا يَخْفى عليها المغَيَّبُ

الناس عبيد ما يألفون
ثورة فى الأرثوذكسية[1]

أمام مرآة الحلاق وعلى مسمع بين الجالسين خُشّعا وادعين بين يديه التى تدير رؤوسهم من جهة إلى أخرى كما يدير الصانع الآنية يجلوها أو يزينها، انفلت «زبون» من تلك الأيدى وقال لحلاقه: إن هذا البطريرك ملاتيوس رجل سياسة أكثر منه رجل دين، ففى فلسطين وفى الأستانة، وفى أثينا سار سيرته فى الإسكندرية فلم تطق تلك البلاد جرأته، فكيف نطيقها ونحتملها نحن «الروم الأرثوذكس»، وهو يريد أن يغيّر ديننا بتغيير تاريخنا، وتاريخنا هو الصحيح؟!

- يُغيّر دينكم؟

- نعم.

- وما علاقة التاريخ بالدين؟ وهل فى عالم النصرانية مسيحان؟

- لا (...)[2]، فكنا نحن على حق وصواب.

محاورة بسيطة ولكنها حادة، وهى فى دكان الحلاق تعطى الحلاق الحق بأن يكون الحكم. وهى مع رجل أرثوذكسى من رعية البطريرك ملاتيوس تخوِّل لهذا الرجل أن يقيم الحجة على بطريركه. وإذا جهلت هذا الأرثوذكسى ولم تعرف منزلته من علم الدين وعلم الفلك المبنى عليه حساب السنين والشهور والأيام التى تُتمُّ فيها الأفلاك دورتها، ويكون إتمام كل دورة من دورات الأرض هو السنة، وكل دورة من دورة الشمس هو اليوم إلى آخر ما يُلقيه معلمو المدارس على طلبتهم الصغار- فإنك لا تجهل أولئك الأطباء والمهندسين والمحامين الذين تعلموا ذلك وعرفوه وأدركوه

١ - الأهرام، ٩ كانون ثان/ يناير ١٩٢٩م.

٢ - كلمة مطموسة فى الأصل.



ومع ذلك تجاهلوه وكأنهم جهلوه.

وقالوا: إن آباءنا كانوا على مثل ذلك وإنا عليه لدارجون. فلا تقل له: إن آباءك كانوا يجهلون علم الأفلاك، وكانوا على خطأ فى حساب دوراتها، وأن حساب الدورة الأرضية لم يُضبَط حتى فى الحساب الغريغورى الذى يتبعه الغربيون ضبطا تاما؛ لأنه لا يزال ينقص يوما فى أكثر من ألفى سنة، وأن جمعية الأمم عنيت بالأمر علَّها تصل إلى ضبطه بالدقة- فإنه يجيبك: خطأ مشهور خير من صواب مهجور. وما هذا الصواب بالمهجور!

وإذا قلت لهذا وأمثاله: إن التاريخ بالسنين لم يتبع إلا حديثا، فالمصريون الذين عرفوا السنة قبل سواهم كان تاريخهم ولاية الولاة والملوك، ولم يعرف عنهم تاريخ السنين إلا مرة واحدة فى حكم الرعاة.

قالوا لك: ذلك كان قبل المسيح.

وإذا قلت لهم: إن تاريخ مولد المسيح لم يعرف بالدقة، وأن أتباعه كانوا يعيدونه فى ١٥ مايو حتى القرن الرابع، هزوا أكتافهم؛ لأن الإنسان يُخيل إليه دائما أنه ابن يومه مع أنه ابن الماضى. وهؤلاء الأرثوذكس الثائرون على البطريرك ملاتيوس هم أبناء الماضى ويتمسكون به حتى العبادة ومع ذلك يأبون أن يكونوا أبناء اليوم.

وإذا قلت لهم: إن هذا التاريخ الذى تعشقون وتجعلونه قطعة من الدين وهو قطعة من علم الفلك، ولم يعلمكم الله علم الفلك ولم يقل لكم إن لم تعرفوه كنتم من الهالكين- إن هذا التاريخ ظل مجهولا من القرن الثالث حتى القرن الثانى عشر- أشاحوا بوجههم عنك مُتصاممين.

إن الذى جعل أول يناير غرة العام الجديد لا المسيح ولا أتباعه ولا تعاليمه، ولكنه يوليوس قيصر قبل ظهور المسيح بخمس وأربعين سنة.

وأن النصارى كانوا فى أول عهدهم يجهلون عيد الفُصح رأس سنتهم حتى السنة ٣٢٥، وأن هذا العيد كان عندهم فى ٢٥ مارس. ومع أنهم كانوا على مذهب واحد ولم يتفرقوا فرقا، ولم ينقسموا شِيَعا، فإنه كان لكل بلاد حسابها، وبكل بلاد سنتها. فالفرنساويون كان أول سنتهم مارس، ولم يتبعوا حساب الرومان ويصلوا أول السنة أول يناير إلا فى سنة ١٥٦٣. وكان أول السنة فى القرون الوسطى فى إيطاليا وإسبانيا وألمانيا ٢٥ ديسمبر. وهذه روسيا كان أول السنة فيها ٢٥ مارس ثم نقلوه إلى أول سبتمبر، ولم يُغيِّر هذا التاريخ إلا بطرس الأكبر الذى أراد أن يُلحق شعبه بشعوب أوروبا فى كل شىء حتى فى التاريخ.

***

فالمسألة إذن ليست دينية ولا هى مسألة عقيدة، ولكنها مسألة تقليدية. وكثير من التقاليد يلحق بالدين والعقيدة حتى يصير منه وحتى لا تستطيع قوة من القوات حتى قوة العلم فصله عنه. والنصارى أخذوا بذلك منذ عهد قديم، واضطر علماء دينهم إلى التسليم بذلك فنصوا فى مجمع- مؤتمر- ترانت على أن المؤمنين يسلِّمون بما ورد فى العهد القديم- التوراة- كما يسلِّمون بكل ما جاء فى العهد الجديد- الإنجيل- وكلاهما من الله ولا يسعهم إلا التسليم بما جاء فى التقاليد التى توارثتها الكنيسة جيلا عن جيل، سواء كان لهذه التقاليد علاقة بالعقائد أو بالأخلاق. ولهذه التقاليد فعلها وأثرها؛ لأنها تستند إلى أقوال المسيح أو إلى أعمال الرسل، وأن ما كتب فى الكتب وما أرجع إلى كلام المسيح لقبوه بالإلهى، وما أرجع إلى أعمال الرسل فى تنظيم الكنيسة وصفوه بالرسالة.

ولكن هذا التعريف قد اصطدم بصعوبة التحقيق عن أصل التقاليد التى درج عليها الناس، فاعترض على الأخذ بها جميعا فلاسفة الكاثوليك



ذاتهم إلى أن جاء (شيمنز)[1] فقال : إننا[2] وصلنا من سلسلة التقاليد إلى مجموعة من الأخطاء لا حد لها، ولكن هذا القول واعتقاد المحققين بصحته لم يمنع الناس أو أغزر الناس عقلا وأوسعهم فهما عن التمسك بها .

ذلك فى النصرانية. وما سلم منه دين من الأديان ولا مذهب من المذاهب؛ حتى قالوا: إن كل دين من الأديان ومذهب من المذاهب يكيِّفه الذين يعتنقونه تكييفا يتفق مع مزاجهم وهواهم وتقاليدهم. فاليهودية قبل النصرانية عرفت ذلك، فانقسم أبناؤها إلى : ربانيين، يأخذون بالتَّلمود وما حواه من التقاليد، وقَرّائين، وهم يقولون: ما جاء بالتوراة هو وحده المعتقد الذى يُعتَقد . ولا يُعرف أحد يجهل كلمة أبى حنيفة القائل: ما جاءنا عن النبى فعلى العين والرأس، وما جاء عن سواه فنحن ناس وهم ناس.

(على أن التقاليد هى كما قال لاكورد: «حبل الاتصال بين الماضى والحاضر»، ولكن هل الحساب منها؟ وهل تصحيح هذا الحساب نقض لها أو هو اقتلاعها حتى تصمد للمقاومة)[3]؟

انظر إلى هؤلاء الذين ينعون على البطريرك عمله، تجدهم يمزجون المذاهب السياسية بالعقيدة الدينية. فهم فى بلاد اليونان ملكيون، والحكومة التى اتبعت الحساب الغريغورى جمهورية. وهم فى بلاد الروس قيصريون، والحكومة التى اتبعت الحساب الغريغورى شعبية بلشفية. فهل يجعل الملكيون لأنفسهم اتباع الجمهوريين فيما يسنُّون من سُنة وفيما يختطون من خطة؟ أليس هناك معنى لمسايرتهم ومجاراتهم فى طريق واحد، والمغاضبة والتنافر يقضيان بذهاب الخصم يمينا إذا ذهب الخصم يسارا؟ وأى شيء دخلته السياسة ولم تفسده؟! ومتى استطاعت الأديان والعقائد أن تخلص وَتُنَزَّه عن تدخل السياسة وأفاعيلها وأباطيلها، والسياسة تقول:

١ - غير واضحة فى الأصل.
٢ - فى الأصل (إنا).
٣ - هكذا فى الأصل، والعبارة غير واضحة.

« كل غاية تبرر الواسطة » . وإذا كان لهؤلاء اليونان ولأولئك الروس حجتهم السياسية مقرونة بالحجة الدينية، فما هي حجة السوريين الأرثوذكس؟ إذا، هي لم تكن تقليدية محضة مزجت بالعقيدة وكأنها منها، وكأنها هي والعقائد لا تُمس؛ لأنها مغروسة فى الصدر، وأولها هنا المخالفة فى المذهب وثانيها المخالفة فى كل شيء يميز المذهب لتظل لذلك المذهب ميزة على سواها. فإذا صار التاريخ واحدا والحساب واحدا بدأ التقرب، لذلك تسمع أحدهم يقول لك ما قاله رجل الحلاق: نحن على الحق وسوانا على الباطل، وليتبعنا المُبطلون أما نحن فلا نتبع مُبطلا. هذا القول يقوله هذا الفريق وذاك. وإن كانت المسألة مسألة دورة الأفلاك وأبراج النجوم وحركة الثوابت والسيارات وليست خيالية تمثل الخالق جل وعلا فوق عرشه استوى وتمثل صفاته وتمثل نعوته وما هو وكل شيء فيه وإن سلموا جميعا بقول الغزالي:

فـهو لا كـم ولا كيف لـه　　　وهو فوق الكم والكيف يحول (1)

فأنت ترى أن الاختلاف فيما يعرف الناس كالاختلاف فيما يقدِّرون ويفترضون ولا يعرفون. ولَكم من دماء سفكت؟! ولَكم من أرحام تقاطعت؟! ولَكم من شعوب تطاحنت وهي تظن أنها تجاهد في سبيل الحق وفي سبيل الحقيقة! ولو سئلت عن هذا الحق لما عرفته. ولو سئلت عن هذه الحقيقة لَتَلَت أسطورة الإغريق القائلة: إن الحقيقة مزوية في أعمق الآبار لا ينفذ إليها نور الأبصار، ولا يرى الناس من يدها إلا مرآة ترى فيها وجهك وهي توحي إليك بقولها: « اعرف نفسك، اعرفها قبل كل شيء » .

أنـــت لا تـــعرف إيـــاك ولا　　　تدري من أنت ولا كيف الوصول

---

١ - ورد هذا البيت فى كتاب (تحفة المريد)، فى رد الإمام الغزالي على الإمام الزمخشري، وقد ورد كالتالى:
فـهو لا أيـنَ ولا كيـفَ لـه　　　وهو ربُّ الكيفِ والكيفَ يَحُول



كيف تدري من على العرش استوى لا تقل كيف استوى كيف الوصول[1]

ومع ذلك، فإن العالم مشى ومضى إلى الوحدة الإنسانية بالعلم، والعلم في مباحث العلماء لا ينقض الدين، فقاعدة كليهما الافتراض تصعد منها رويدا رويدا إلى الحقيقة، فإذا أثبت العلم بالحس أن من هذه القاعدة قاعدة الافتراض المحسوس نصل إلى الحقيقة الملموسة. فهل هو يستطيع أن ينكر أن من القاعدة الروحانية التى نفترضها نصعد إلى الحقيقة الروحانية التى نود الوصول إليها مهما كان الطريق وعرا والمسالك صعبة متشعبة؟

وقبل أن تصل الإنسانية إلى هذه الأمنية أو الغرض الأسمى لا مندوحة للعلم عن الفوز والانتصار سواء رضيت التقاليد أو لم ترض، وسواء أراد الذين يتمسكون بها أو لم يريدوا، فإن هذا العالم الذى أزال العلم منه اليوم الحدود بالتلغراف والتليفون والطيران والأفكار والنظريات- إلى أن يزيل الحدود التى أقامتها السياسة- بدأ يتحدث بوحدة الإنسانية وآفاقها، فكيف يظل مختلفا متنابذا فى حساب الفلك الذى قدر الله لعوالمه المنازل لا يتخطاها ولا يعدوها. وإذا حسبنا المسافة الطويلة التى اجتازها فى خمسمائة عام عرفنا أن المسافة الباقية صغيرة ضئيلة حتى فى الشرق وعند الغارقين من الشرقيين فى تقاليدهم.

داود بركات

١- البيتين من قصيدة فى كتاب (خواطرمن واحات الأنس) وقد ورد بلفظ:

أنت لا تعرف إياك ولا تدري ... من أنت ولا كيف الوصول

كيف تدري من على العرش استوى ... لا تقل كيف استوى كيف النزول

جهد عالم ومجهود باحث(١)

محمد كرد على لمن عرفه ولمن عاشره- وقد عرفته وعاشرته- رجل علم وأدب، بل هو فوق ذلك وأفضل من ذلك، رجل بحث، ورجل البحث يطلب الحقيقة، والحقيقة عنده دُرَّة تُغنم أينما وجدت وكيف وجدت، فلا ينقص من قيمتها أنها فى وعاء بخس ولا يزيد فى قيمتها أنها فى وعاء ثمين. لأنها الحقيقة تُطلبُ لذاتها، وبما أنها(٢) تطلب لذاتها فهى فوق كل اعتبار آخر.

تلك ميزة الأستاذ محمد كرد على الدمشقى، تجلُّها فيه ونجله لأجلها. وقد(٣) تكون هذه الميزة (...)(٤) السجية الجليلة عيبه عند الذين يريدون أن يكون للعامل عيب.

رأى على ذلك العلماء الأوروبيين فأعجب بهم وحذا حذوهم، وأراد أن يكون عاملا- وأنا أقول عالما- شرقيا يعمل للشرق وأبنائه إخوته وعشيرته. فاختص المستشرقين منهم بعنايته ودرسه وتمحيصه. فما عرضت له مسألة من المسائل الشرقية التى عُنى بها، حتى بحث وسأل عن رأى المستشرقين فيها، وحتى حقق ودقق فيما عللوا به بحثهم ودرسهم. وهنا أعرف لصديقى محمد كرد على ميزة ثانية أجلّها فيه وأجلّه أيضا من أجْلها، وهو أنه يعترف بالفضل لصاحبه، ولا يعمل كأولئك الذين يقول فيهم مثل العامة: «يشربون من البئر ويرمون فيها حجرا!».

إن محمد كرد على الذى عرفت يقول بكتابته ويقول بمباحثه: «من علمنى حرفا كنت له عبدا»، فلم ينسَ فى حين من الأحيان أستاذه الشيخ طاهر الجزائرى، ولم ينس فى مؤلفه الجليل «خطط الشام» هذا الأستاذ ولا

---

١ - الأهرام ١٨ حزيران/يونيو ١٩٢٩م.
٢ - فى الأصل (أن)، والصواب ما ذكرناه.
٣ - فى الأصل (ولقد)، ولعل الصواب ما ذكرناه.
٤ - كلمة مطموسة فى الأصل.



العالم المصرى الجليل أحمد باشا تيمور الذى يكاد يجعل مؤلَّفه هدية إليه وهو يناشده أن يرشده ويهديه إلى مواطن الضعف ومواطن النقص أو الخطأ فيه. وهو إذا نظر إلى القول منصرفا عمن قال، فهو ينظر أيضا إلى من قال وإلى القول معا، وهنا أيضا وفى هذه الميزة والسجية الجليلة عيبه عند الذين يريدون أن يكون للعامل عيب.

فهل كان عالمنا الدمشقى فى ذلك كله مقلدا؟ أم كانت كله ميزة ترفعه وتنزهه عن التقليد ليكون مبتكرا؟

إن الذى أقوله فيه وفيما عرفت من تأليفه وفصوله وكتبه وآرائه أنه شديد الميل إلى وَصْل الماضى بالحاضر وربطه فى المستقبل، ووصل الشرق بالغرب حتى تخرج له من ذلك كله خلاصة تجمع كل حسنة. وفى هذه الميزة والسجية الجليلة عيبه عند الذين يريدون أن يكون للعامل عيب.

وهذه العيوب التى ذكرت هى مفاخر طلاب الحقيقة. وللحقيقة وجوه كثيرة، فلا أكون معك دون غيرك لأنك عرفت وجها من وجوهها، ولا أكون مع غيرك دونك أو عليك لأنه عرف بعض الوجوه دون البعض.

هكذا يُخلَص إلى منهج[1] الأستاذ الصديق محمد كرد على.. ولست فى هذا مُقرِّظا؛ والذى يقول لصديقه تيمور باشا دلنى على خطأى ويناشده فى صدر مؤلفه ليرشده إلى النقص فى تأليفه لا يَنشُد التقريظ ولا يهواه، بل يطلب الصواب.

***

هذا العالم الفاضل رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق أتم فى هذا العام طبع كتابه «خطط الشام»، وإذا أردت أن تعرف مجهوده فحسبُك أن تعرف أنه فى ستة مجلدات ضخمة. طُبع المجلد الأول فى سنة ١٩٢٥ وطبع المجلد السادس والأخير فى سنة ١٩٢٨ والطبع غير التأليف.

١- فى الأصل (من منهج)، والصواب حذف (من) ليستقيم المعنى.

فقد بدأ فى الكتابة عن عمران دمشق فى مجلة «المقتطف» فى سنة ١٨٩٩، فكان ذلك الأساس الأول لذلك السفر الضخم الذى قال فيما حمله على تأليفه: «إن فصوله التسعة فى مجلة المقتطف صادفت استحسان بعض من قرأوها من خاصة الباحثين وجمهور المطلعين. فوقع فى النفس يومئذ أن أتوسع فى هذا البحث وأدرس عمران الشام كله؛ لأن صورة العاصمة وحدها لا تكفى للدلالة على حالة القطر، ومن الإشراف على الأطراف قد تعرف صحة الجسم عامة والقلب خاصة، ومن اهتم بالجزء كان حريا أن يضاعف الغاية بالكل».

وإذا سألنا المؤلف العالم كيف توصل إلى إنجاز هذا العمل الشاق قال لنا: «إنه تصفح ما ظفر به من المخطوطات والمطبوعات باللغات العربية والتركية، والفارسية، وقصد دور الكتب الخاصة والعامة فى مصر والشام والمدينة المنورة والأستانة ورومة وباريس ولندرة وأكسفورد وكمبريدج وليون وبرلين ومونيخ ومجريط والإسكوريال». وعاونه بعد هذا كله حلول الشقاء به على جمع المواد لتأليفه، فإن التضييق عليه بدمشق اضطره إلى الارتحال غير مرة، فاستقر بين العالم والجاهل فى القطر الشامى نزل على أمم كثيرة فى بلاد الغرب... إلخ.

فى ذلك كله كان منبت «خطط الشام» وأنت ترى أنه منبت الكد والجد والنعمة والنقمة والحل والترحال، فكأنما هذا «الفكر» الذى تملك نفس المؤلف صار شطرا من وجوده لم يفارقه فى حالة من حالاته. والشام التى ألف خططها فتكلم فى هذه الخطط عن كل مدينة وبلدة وقرية ومزرعة وجبل وواد ونهر وبحيرة وخليج وجون فيها. هى البلاد الممتدة من عريش مصر إلى الفرات، ومن سفوح طوروس إلى أقصى البادية. وقد حذا الأستاذ حذو المقريزى فى كتاب «خطط مصر»؛ لأن المقريزى فى نظره «أجمل مثال فى باب الإجادة بالتأليف». ولم يعرف المؤلف أحدا



من المتقدمين «كتب على الشام وخططه». ويقول لنا المؤلف فى وصف الخطط: «إن موضوع الخطط موضوع جليل تستعين الإحاطة به على كل من يحب أن يعرف بلاده ليخدمها ويستفيد منها، وأحق الناس بمعرفة بلده أهله وجيرانه، ومن لم يرزق حظا من الاطلاع على ما حول وطنه من الخيرات وما أتاه أجداده من الأعمال لا ينهض بما يجب عليه ليؤثِّر الأثر النافع فى الحال والمآل.

ومَن أجدر من الأبناء والأحفاد بالرجوع إلى سجلات الآباء والأجداد، وكيف يحب المرء بلدا لا يعرفه ويحرص على سعادته ليسعد هو فيه وهو لا علم له عنده بما تعاقب عليه حتى صار إلى ما صار إليه؟! وهل يُفهم الحاضر بغير الغائب؟ وهل تنشأ فى الأمة روح وطنية إذا لم تدرُس تاريخها حق الدراسة؟!».

فمن الذى لا يقول للمؤلفِ صدقت، ومن الذى لا يعترف بهذه الحقائق؟ ولكن كم هم الذين يسلِّمون بما تقول لهم إنه الحق ثم بعد ذلك التسليم به يتبعونه؟

إن العالم العامل الشرقى يكد ويجد ويعمل ويعلم، ولكن مثله كمثل الراعى يهيب بالقطيع فيصغى لحظة إليه ثم يعود إلى مرتعه وكأنه أصم لم يسمع وأعمى لم يرَ. فالأستاذ محمد كرد على يقرع المسامع بتأليفه وبما ضمّنه ذلك التأليف من عِظات التاريخ وحكمته، فكم من شاب استوعب تلك العظات، وكم من قارئ يستغرق من وقت لهوه وعمله وجده وباطله لمطالعة هذا السِّفر النفيس؟

ولكن ذلك يزيد فى فضل العاملين بل جهادهم.

إنى لأسأل عن ذلك والأستاذ كرد على يوسع بكتابه الدائرة الضيقة التى وضعها الشاميون لوطنهم، حتى صار الوطن كله للدمشقى دمشق،

وللحمصى حمص، وللحلبى حلب... إلخ، فضلا عن أن هنالك من يزيد هذه الدائرة الضيقةَ ضِيقا حتى تصغر ثم تصغر فيصير الوطن إما المنزل الكبير وإما الكوخ الصغير.

إن هؤلاء وأولئك يصغِّرون الشعب فيضيقون الدائرة بالطائفة، ثم بالبيئة الصغيرة منها حتى يصل بهم التضييق فيكون الوطن أحد الرؤساء.

يضرب الأستاذ المؤلف المثل على الإهمال بأن علماء الغرب ألفوا من سنة ١٨٠٥ إلى ١٩٠٣ خمسة وتسعين كتابا فى آثار البتراء فقط (وادى موسى)، فى حين أنه قل جدا من الشاميين من زاروا هذه الخرائب المهمة، بل منهم من لم يسمع باسمها. وزهِد المتأخرون بالتاريخ حتى كادوا لا يفرقون بينه وبين أقاصيص العجائز، فهذا القول الذى يقوله صاحب «خطط الشام» فى الشاميين لهو القول ذاته الذى يقوله الكتاب المصريون فى المصريين. فالمرض واحد، وهو مرض شرقى أصاب الشرقيين جميعا على السواء.

ولكن الأطباء قد أخذوا بمعالجة هذا الداء، فالأمل كبير بالشفاء.

هذه المجلدات الستة «خطط الشام» هى خلاصة أربعين عاما فى الدرس والاستقصاء. وهى فوق ذلك خلاصة ٩٦٥ مؤلفا من مؤلفات العرب والإفرنج، ومع ذلك يقول المؤلف مع فوستيل دى كولنج: «ليس التاريخ من العلوم السهلة، فلأجل يوم واحد يصرف فى التركيب، ينبغى قضاء أعوام طويلة فى التحصيل». وكتابٌ هذا شأنه ومؤلفٌ هذا مذهبه لا يستطيع الباحث أن يوفيه(١) حقه فى الوصف، وقد جمع تقويم تلك البلاد ولغاتها أخوات اللغات العربية، وهى الآرامية والسريانية العبرانية والحيثية، ويرجع أول ما سطر فيها إلى القرن الأربعين قبل الميلاد، وقد جمع المؤلف تاريخ تلك البلاد وما توالى عليها إلى أن وصل إلى الكلام فى حياتها المدنية

١ - فى الأصل، (يفيه)، وما ذكرناه هو الصواب.



والدينية الآن، وإلى تقاليد كل قطر من أقطارها وعادات أهله، فإذا كان المؤلف قد قال لنا: إن المقريزى كان فى هذا العمل نسيجا وحده[1]، فهل يسمح لنا أن نقول نحن فى «خطط الشام» إنها كانت فى تاريخ الشام نسيج وحدها؟ إن ما تقدمها كان يتناول جانبا من جوانب خطط العمران أو وجها واحدا من وجوه التاريخ. أما «خطط الشام» فقد تناولت الشام من جميع جهاته وجوانبه؛ حتى علاقته بمصر وعلاقة مصر به والتفاعل الدائم بين القطرين اللذين خلق الله أحدهما مزرعة والأخرى قلعة– فى رأى نابليون– وقضى ناموس الطبيعة أن يُتم أحدهما الآخر؛ كما كتبت آثار تل العمارنة وآثار بيبلوس وبينوس وما بينهما من المدائن والهياكل والمعابد، وما نبت فى جنباتها من الأديان الإلهية النازلة على موسى وعيسى ومحمد، ومن تعاليم مَن تقدمهم من دعاة الحضارة ورسل المدنية. فإذا أقامت السياسة الحدود فى الأرض فلا حدود بين الأرواح تتناجى والنفوس تتفاهم، ومتى تفاهموا تحابوا.

فقل إذن للذين يؤلفون مثل «خطط الشام» وللذين يحفظون خطط الأمم والعمران كلمة الشاعر الخالدة وبالشعر خلود الحكمة.

من وعى التاريخ فى صدره   أضاف أعمارا إلى عمره

داود بركات

١ - يأتي التعبير بصيغة مضاف ومضاف إليه كتعبير اصطلاحي (نسيج وحدِه)، فلا يجوز تصريفه، لكن هكذا استخدمه الكاتب.

فلنتعلم
جراف تسبلن[1]

مَن منا لم يرافق بالفكر والخيال هذا البالون «غراف تسبلن» فى طوافه حول الكرة الأرضية فى ١٢ يوما؟؟

ومن منا لم يحلق به الخيال إلى سمائه وأجوائه التى جابها.

فلا الريح تسبقه أو تصده، ولا الطير يُدركه أو يبلغ شأوه، ولا أحلام الحالمين تطوف طوافه وتسرِع سرعتَه بالانتقال من جو إلى جو ومن سماء إلى سماء.

ومن منا لم يرقص قلبه بين جوانحه طربا لخبر هبوطه إلى الأرض من السماء أو لصعوده من الأرض إلى الأجواء.

ومن منا لم يحس ويشعر بجوارحه تهتف وتصفق وتضحك اغتباطا وتهتز طربا وسرورا كلما نقل الهواء إلى الأرض عن الطائر الحديدى حديث الفوز والنجاح والطمأنينة والسكون.

فمن ٨ أغسطوس[2] أى من يوم طيرانه من نيويورك عائدا إلى فردريكسهافن إلى ٤ سبتمبر يوم عودته إلى حظيرته وعين العالم وسمعه ولبه وَقْف على كل حركة من هذا الطائر الجبار الذى يقال فى رجاله الذين قادوه كلمة دى تورين القائد الفرنساوى الشهير: «إنهم رجال يرفعون من قدر الرجال».

أتم المنطاد غراف تسبلن رحلته حول الأرض بسرعة ودقة تدهشان. فإذا قيل إنه لاختراع عجيب يقضى على الهواء بأن يحمل ما هو أثقل من الهواء فيحمل الخفيف الثقيل بإكراه الطبيعة وناموسها لإرادته قيل أيضا إن هذا الاختراع قد أيد أيضا اختراعات أخرى والعلم سلسلة مفرغة الحلقات

١- الأهرام، ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩م.
٢- وردت هكذا فى الأصل.



كل واحدة منها ترتبط بالأخرى، ومن مس حلقة هز سائر الحلقات؛ ألا ترى هذا التلغراف الجوى وقد كان ينقل إلينا والمنطاد فى الأجواء ونحن على ظهر الغبراء فى كل ساعة بل فى كل لحظة أخباره وأنباءه؟؟ ألا ترى أن هذه المراصد الجوية كانت ترسل إليه من الأرض وهو سابح طائر فى الفضاء أخبار العواصف ومُتَّجه هبوبها والغيوم والسحب والضباب وكثافة سديمها؟ ألا ترى كيف خبر المنطاد كروية هذه الأرض فدل على أن أقرب الطرق للطيران عدًّا بين جميع القارات طريق القطب أو ما داناها وحينئذ تظهر للإنسانية أهمية مناطق القطبين وأهمية اكتشافهما الذى ذهب كثير من الضحايا فى سبيله؟

هذا بعض ما وصلوا إلى تحقيقه من الوجهة العلمية، وهم مجدون فى البحث يواصلونه من طريق العلم على وجه عام، ومن طريق علم الطبيعة على وجه خاص حتى يراد من وراء هذه الرحلة ثروة وغنى.

وهذه مهمة العلماء يقومون بها بين جدران غرفهم وبين أنابيب معاملهم وبين كتبهم ودفاترهم فى ظلام السكون وبين أضواء البصيرة.

وفى طريق[1] البحث والاستقصاء الذى لم يعرف حتى الآن من الطبيعة غير بعض مظاهرها، وهذه المظاهر هى كالسراج المضىء ينقل العالَم والعالِم والعِلم من خطوة إلى أخرى.

***

أما نحن الكافة فلنا اليوم وإلى أن يُعدَّ لنا العلم جميع ثمار الغُنْم الإعجاب بهذه البطولة. بطولة رجال يقتحمون بأنفسهم الأخطار على أكف الأقدار لتجنى بعد ذلك الإنسانية أشهى الثمار. ثمار العقول التى فكرت والأيدى التى عملت والأموال التى أنفقت والشجاعة التى ازدرت بالموت فى سبيل الحياة.

١- فى الأصل (طرق)، والصواب ما ذكرناه.

٩٦ منطادا من طراز جراف تسبلن بنيت إبان الحرب- الحرب التى أهاجت العقول فاندفعت بالاختراع والابتداع إلى مدى بعيد- فهلكت ٢٩ منها وهلك من فيها. ولقد يكون هلاك تلك الأرواح بالأمس حياة لهذه الأرواح التى اقتحمت الأخطار اليوم وضمانة الحياة لمن يلونهم فى خدمة العلم الذى تخدم به الإنسانية غدا.

وأنت تعلم أن هذه المناطيد لا تزال كالطيارات عرضة للوقوف والتعطيل، فإذا هى عطلت ولم يكن بالإمكان إصلاحها كان الخطر الشديد بل كان كل الخطر؛ لأن نزولها إلى الأرض ليس بالأمر السهل ولا هو بالأمر الهين لحاجتها إلى مكان خاص صالح لنزولها وإلى أعمدة خاصة تعلق بها، وإلى أناس مدربين يتلقونها عند النزول ويساعدونها على الجثوم والرُّبُوض.

فالمنطاد فى الجو كالسفينة فى البحر يحتاج إلى الميناء وإلى المرسى. والمنطاد الذى يطيره الغاز ويسير به الهيدروجين يجد بهذا الغاز مصدر حياته، وبهذا الهيدروجين مصدر قوته منبت هلاكه وسبب تلفه وضياعه. ولقد اجتاز المنطاد جراف تسبلن اليوم خطرين من أخطار الالتهاب، الأول بإيقاد أحد ركابه من الأميركان سيجارا، والثانى باشتداد الحر عليه فى منطقة إسبانيا وجو إفريقيا حتى هبط إلى ٢٠٠ متر من الأرض.

فالنجاح اليوم لا يعنى انتفاء الخطر غدا. ولكنه يعنى فتح باب الدرس والاستقصاء للوصول إلى وسائل السلام والأمان فى الطواف فى الأجواء والانتقال من القطب إلى القطب فى خمسة أيام فلا تبقى فى الأرض حدود بين الأمم ولا تكون الأجواء إلا الطريق الحر الذى يُقرب بعد اليوم بين أمة وأمة ويَبَسٍ ويَبَس.

فلا تعد تلك الرواية التى ألفوها منذ ٥٠ عاما للرحلة حول الأرض فى ٧٢ يوما ضربا من الأعاجيب. بل لا تدخل فى حيز الأعاجيب تخيلات



جول فرن مؤلف «سياحة فى جوف البحر» وقد وصلنا إلى الغواصة التى تقوم بهذه السياحة، حتى قالوا إنه هو الذى أوحى بها بروايته. ولا تدخل فى حيز الغرائب سياحة إلى القمر وقد قال فرنسيس كسارسى: «إن كل ما يخطر ببال الإنسان كان تخيله من منبت عقل الإنسان وكان عمله وإنجازه خاضعا لقدرة ذلك العقل وقوته».

على أن هناك صعابا أخرى مالية والناس لا يعملون عملا إلا لجر النفع من ورائه. فالإنكليز أنشأوا لمناطيدهم التى ينوون تسفيرها من إنكلترا إلى الهند محطتين فقط. الأولى فى الإسماعيلية[1] على مجرى قناة السويس. والثانية فى كراتشى الهندية. وقد أنفقوا على هاتين المحطتين حتى الآن مليونين ونصف مليون جنيه، وبنوا لهذه الطريق من لندن إلى مصرف الهند منطادين اثنين، أطلقوا على الأول اسم R100 وعلى الثانى اسم R101، وكان موعد سفر الأول منهما من لندن إلى الإسماعيلية فى ٢٧ فبراير الماضى ولكنهم عَدَلوا عن ذلك. فقيل إن سبب عدولهم انتظار ما يكون من أمر المنطاد جراف تسبلن، وقد أنفقوا على هذين المنطادين نصف مليون جنيه.

ويبنى الأميركان الآن منطادين ضخمين كل واحد منهما ١٨٣ ألف متر مكعب ونفقة كل واحد ستة ملايين دولار. فإذا أرادوا غدا حشو أحدهما بالغاز الطيار بلغت النفقة ثلاثين ألف جنيه.

وهذا مرسى لكهرست الذى نزل فيه المنطاد جراف تسبلن وأنت ترى ساريته التى علق فيها المنطاد تنفق عليه أميركا فى كل سنة مليونا و٢٠٠ ألف ريال.

فأنت ترى مما تقدم كله أنا لن نرى فى القريب العاجل المناطيد تملأ الأجواء وتطوف تحت كل قبة زرقاء ولكنا فى مفتتح الطريق والطريق لا تزال وعرة.

١ - فى الأصل (الإسمعيلية)، والصواب ما ذكرناه.

وليس شأن الأمم في أيام السلم والسكون كشأنها في أيام الحروب واقتحام المخاطر والازدراء بالمهالك فتبذل الأرواح بلا حساب وتبذر الأموال بكل كرم وسخاء، لأن هناك ما هو أعز عليهم من الأرواح والأموال، هو استقلال الوطن وهو حرية الشعب بل هو الحياة.

لعلك تعرف أو لعلك تذكر نظرية ارخميدس[1] في الثقل النوعي ولعلك جربت أو رأيت أن جسما تلقيه في الماء وهو أثقل من الماء يزيل من ذاك الماء على مقدار حجمه. فإذا كان أخف من الماء طفا على وجهه. كل ما[2] يصح في الماء يصح في السائل الغازي فالبالون يعلو في الجو إذا كان فيه من الهواء ما تزيد زنته على زنة حجمه ويفضلون في نفخ البالون ليطير. غاز الهيدروجين على الهواء لأنه أخف من الهواء. فمتى عرفوا ثقل البالون وزنوا ثقل الهواء أو الغاز الذي ينفخ في ظرفه واستطاعوا بعد ذلك أن يعرفوا ما يقدر أن يحمل والمسافة التي يستطيع اجتيازها بذلك الحمل.

اضرب لك مثلا زنة متر الهواء على ساحل البحر فهي ١٢٩٣ غراما وزنة المتر في الجو ٩٨٣ غراما.

على هذه القاعدة صنع جوزيف مونغولفيه بالونه من القماش في سنة ١٧٨٣ وزنته ٢١٥ كيلو ومحموله من الخشب ٢٠٠ كيلو فأوقد فيه النار التي طردت الهواء فارتفع ١٥٠٠ متر وسار ٢٥٠٠ متر فوجه إليه أنظار العلماء، ثم ربط الرجل إلى بالونه عند اختباره بباريز أمام الملك سلة وفيها خروف وديك وكنار فنجح الاختبار.

وأول من ركب هذا البالون من الرجال المركيز دارلاند وبيلاس دي روزيه فحلق بهما من غابة بولونيا إلى ثمانية كيلو مترات وراء باريز فأنت ترى أن هؤلاء الفرنساويين يسبقون غيرهم إلى الابتداع، ويسبقهم سواهم

١ - وتُكتب أيضا (أرشميدس).

٢ - في الأصل (كلما)، والصوابما ذكرناه.



إلى الانتفاع. فمن طيران ذلك البالون من القماش- والبالون هو الكرة لكرويته- إلى طواف الدكتور (...)[1] حول الكرة الأرضية وفى بالونه ٤٠ عاملا و ٢٠ راكبا ١٤٦ سنة.

ومن اكتشاف كافايديش الهيدروجين وهو الأخف من الهواء على نسبة ٩٦ إلى الألف إلى استخدامه فى بالونات تسبلن مثل هذه المدة، وهى مدة سار فيها العلم إلى الأمام بقدم المجدِّ الجبّار حتى مكّن العلماء والذين يعملون بالعلم ويعتمدون على العلم. من أن يملكوا ناصية الريح فبعد أن جعلوا القرن الماضى قرن البخار جعلوا هذا القرن قرن الكهرباء، وقرن الأثير، وقرن الهواء، فسخروا الطبيعة لإرادتهم، وأملوا على كل أمة تريد النهوض واللحاق بهم أن تعمل عملهم، فمن المحال أن يطمع راكب الجمل باللحاق براكب الطيارة أو البالون، وأن يكون غُنمه غُنمه، ومصيره ومصيره، ومن المحال أن يسابق نوتيُّ الشراع بحريَّ البخار والكهرباء.

فهذه طريق الرقى ممهدة لمن أراد رقِيًّا ولم يرض لنفسه أن يظل جاثما فى مكانه ترى عيناه ولا يعتبر، وتسمع أذناه ولا يتعظ.

فلنتعلم ولنعمل بالعلم

داود بركات

١- كلمة مطموسة فى الأصل.

فى بيروت ودمشق والسويداء واللاذقية هل تغيرت الدنيا[1]

بيروت ودمشق والسويداء واللاذقية عواصم ثلاث حكومات أو دويلات فى بلاد لا يزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين ونصف، ولكن يزيد عدد طوائفها الدينية ومذاهبها فى تلك الأديان على ستة عشر مذهبا. وقد كانت مع فلسطين قبل الحرب وتحت حكم الترك ولايتين وبضع متصرفيات[2].

فسارت بعد سَلخها عن تركيا دولات أو دويلات، إذا أقيمت بينها الحدود، فهذه الحدود ليست اقتصادية. وإذا كانت حكوماتها مستقلة فإن السلطة العليا على تلك الحكومات المتعددة واحدة، هى سلطة الدولة المنتدبة سلطة فرنسا، فجميعها فى نظر فرنسا «واحد» أو «وحدة»، وكل واحد منها فى نظر نفسه «وحدة مستقلة».

دع عنك السياسة هناك والتحدث عنها، فحديث السياسة حديث ذو شجون. ودع عنك الجدل فى هل الاستقلال يوصل إلى النجاح والفلاح والقوة فى بلد ضعيف فقير أم هو العلم وهى الثروة بالصناعة والزراعة والتجارة والفن توصل إلى الاستقلال(...)[3] مقدمة عليه أو مقدمة له.

وانظر معى إلى هذه البلاد لنرى: هل تقدمت أم جمدت أم تأخرت فى عشر سنين، أولها ختام الحروب وعقد الصلح وتقرير الانتداب. ولكى نصل إلى معرفة هذه الحقيقة يجب علينا أن ننظر إلى الماضى ونقارنه بالحاضر، ونغضى عن المستقبل الذى تتوق إليه نفوسُنا فنتخيله ثم نخذله، فيصغر فى عيننا الحاضر ثم يحقر.

---

١ - الأهرام، ١٣ تشرين أول/أكتوبر ١٩٢٩م.

٢ - تقسيم إدارى فى عهد الخلافة العثمانية يقابل الإقليم أو المنطقة الغنى، (صرف).

٣ - بياض فى الأصل.



وأول المظاهر تبدو حديثهم بالاستقلال، ونقدهم رجال الانتداب، وقلة رضاهم عن الحكم والحاكمين، وإملاء إرادتهم وإعلان حقهم مما لم يكونوا على شيء منه بالأمس، فقل إنهم إذن قد تيقظو، واليقظة أول مظاهر الحياة.

كانت تصل بك الباخرة إلى بيروت ميناء سوريا ولبنان فيقتسم بحارتها الركاب اقتساما على قاعدة أنهم ملك لهم. وكان السعيد من أكابر الناس من يحمل توصية إلى بحرى أو يفتح جيوبه واسعة للدفع، فإذا أعرض عنهم أو أراد أن يكون حرا فى تصرفاته، لا يشبعونه ذما ولعنا فقط بل هم يزيدون على ذلك اللكم واللطم. وأما الأجرة فإنهم هم الذين كانوا يقررونها ويحصّلونها، فيدفع لهم كل إنسان على يد وهو صاغر.

أما الآن فلا، وأما الآن فرسم مقرر وبحرى مهذب، ومن وراء ذلك كرامة مصونة، وحرية محترمة، وخدمة لينة صادقة، فقل إذن قد وجد النظام.

لقد كنت تخرج إلى الجمرك بحاجاتك فإن لم يحمك حام أو لم يوص لك موص فخشونة فى المعاملة وسفاهة فى المكالمة، وتعذيبٌ فى الانتظار والتفتيش، ومن وراءك بحرى يحثُّك فى سبيل الراحة وابتياعها على دفع البقشيش.

(وأما الآن فلا)[1] يكادون بعد سؤالك عما معك يمسون عفشك أو صندوقك. فقل إذن، هى سيادة القانون.

كنت بعد ذلك تجتاز المدينة إلى الفندق فى حارات وأزقة تكدست فيها الأقذار وانبعثت منها الروائح الكريهة. وإذا ركبت العربة رقصت بك رقص المجانين، فلا تجد الراحة راحة النفس والجسم إلا إذا غادرت بيروت إلى لبنان الهادئ الآمن.

١- مكررة فى الأصل.

أما الآن فلا، فقد فتحت الشوارع الواسعة ورصفت الأرض ونظفت المدينة، لأنه صارت لبيروت بلدية، وصارت للبلدية ميزانية، وصارت أموال المدينة تنفق على المدينة، وصارت المدينة تُنارُ ليلا وتنظف نهارا. وكانوا قبل اليوم يجبون الأموال باسم البلدية ويرسلونها إلى إستامبول،[1] أو ينفقونها فى كل وجه إلا خدمة المدينة.

فقل إذن إن مال قيصر صار لقيصر- كنت تخشى وكنت تخاف الطواف ليلا أو السهر فى قهوة أو ملعب اتقاء سكين تتناول خاصرتك أو «قَبَضاى» يُخترق ظلُّه الصعيد الوارف فيغضب فتغضب عليك الأرض والسماء.

أما الآن فلا، فأنت تطوف تلك المدينة كما تطوف حِجْر بيتك آمنا مرتاحا مطمئنا.

كنت تقرأ على وجوه الناس جميعا إما الغطرسة وإما القلق وإما الوجوم والانقباض. أما الآن فإنك تحسب بيروت «أم الأفراح» فالناس فى غِبطة وحُبور ولكنك تسمعهم يشكون: يشكون من الحكومة، ولا بأس عليهم ولا حرج بعدما كان واحدهم إذا جلد بالسياط يدعو الله بطول حياة مولاه السلطان وأفنديه الوالى العائش بنعمة ظليهما الوارف. وهم يشكون من العسر المالى والضائقة وتراهم يلبسون الحرير وينامون على الفراش الوثير، ولا يُحرمون الطرب والشرب ليلا ولا الاختلاف إلى رءوس الجبال صيفا، ومع ذلك يشكون الضائقة. وترى العمارات والبنايات الشاهقة تنبت بين الصبح والمساء بمال السكان وبلا رهن ومع ذلك يشكون الفقر، ويحق لهم أن يشكوا؛ لأن الحياة الاقتصادية مهملة.

كانت بيروت ٨٠ ألفا فأربى عددها على المئتى ألف، فأهلها فخورون بنموها وحكومتها أكبر فخرا، فمن أين جاءها هذا النمو؟ وما هى نتيجته؟ وما هو مصيره؟

١ - هكذا فى الأصل.



ذلك هو السؤال الخطير الذى كان يجب على حكومة لبنان أن تتساءله، ولكنى لا أظنها تفعل، ولو أنها فعلت لحزنت؛ لأن قرى لبنان التى كانت تغذى لبنان وتحييه، وتحيى بيروت وتنمى ثروتها تستحلب بيروت منها السكان حتى أَقَفَر كثيرٌ من القرى، وحتى بات كثير من الأرض بلا زرع ولا ضرع. فإذا دام الحال على هذا المنوال فإن لبنان راجع إلى حاله الأولى أيام كان مصايد للنمر والسباع. وتكون بيروت الجميلة التى يضحكون لها اليوم ذلك المدفن الجميل والمدن مدافن الأمم. ولا فرار من ذلك (ما دام)[1] المعروف أن الذى يهجر الأرض والزرع والضرع لن يعود إليهما. فلبنان مصاب بهجرتين هجرة إلى بيروت وأخرى إلى العالم البعيد، ومن طبع الإنسان أن يطلب نعمة الحياة بأقل جهد وعناء، وذلك شأن الحياة الحَضَرية، وما دامت الحكومة قد جعلت بيروت مركزا لكل مصلحةٍ وديوانٍ ومعهد وعنصر من عناصر الحياة، وما دام كل شيء من التشريع ذاته تراعى فيه مدينة بيروت وحدها، فإن الدولة اللبنانية هى «دولة بيروت» وحدها فقط.

ولم يكف ذلك كله حتى زادوا الضغط ضغثا على الإبالة[2] ببناء مساكن لإسكان ثلاثين ألف أرمنى، وأمام عيونهم القرى الخالية من السكان والأراضى الخالية من الزرّاع، ولكن ليس فى لبنان ولا أمام حكومة لبنان سوى عاصمة لبنان يُحشَر فيها كل شيء حتى جميع السكان.

يشكون من الحالة الاقتصادية: فالصادرات من تلك البلاد على نسبة ٥ إلى ٧، فالعجز اثنان أو سُبْعان يذهبان فى كل عام من رأس المال، فكم رأس المال كله؟ وفى كم سنة ينفَد؟ وإلى كم من الزمن يظل المهاجرون يدفعون شطرا من العجز؟ وإلى كم من الزمن تظل الإرساليات الأجنبية والجنود الغريبة وأمثالها تأتى ببعض المال من الخارج لسد هذا العجز والنقص؟

١- فى الأصل (وما دام).
٢- فى الأصل (حفظا على الإبالة)، ولعله يقصد المثل ضغثا على إبالة، ويقصد به اجتماع البلايا وقد سبق شرحه.

أجِل نظرَكَ وفى يدك مصباح « ديوجين » لتسأل فلا تعثر على من يستطيع الجواب . إذا، أنت عثرت على من يقول لك إذا احتاجت الحكومة إلى المال ضربت الرسوم الجديدة .

يشكون من المهاجَرة، والمهاجرة فى اعتقادى « داء وبيل » لأنهم لو حسبوا الناجحين وحسبوا ما دفعوه ثمنا لنجاحهم من العدد الكبير الذى لم يلق النجاح ومن النسل الذى حرمت منه البلاد– لأن المهاجرين هم الشبان الذين ينسلون من سن العشرين إلى سن الأربعين– لكانت خسارتهم فادحة من وراء أجور السفر ومن قلة النسل، ومن ضياع الأيدى العاملة، ومن بوار الأرض حتى هبط الدخل إلى الخُمس. أفلا يعادل ذلك كله أضعاف أضعاف ثروات الذين أثروا؟

ومع ذلك فداء المهاجَرة لا يزال يعمل بجسم تلك البلاد ولا يجد طبيبا؛ لأن بيروت تكبر وتنمو فحسبهم وكفى .

إن المهاجر لا يزال لبنانيا يحن إلى لبنان ويجود عليه بشطر من رزقه لأنه نبت فيه، ولكن ابن المهاجر ماذا يكون، وماذا يكون نصيب لبنان منه؟ ومن الذى يفكر بإبقائه لأبيه لبنان، وهل للبنان راية تُظله ليظل لبنانيا فى ظلالها؟

يشكون كثرة النفقة وهم الذين بالتقليد حولوا المرأة اللبنانية إلى أنثى فقط، وإلى زينة بالدار فقط بعد أن كانت عماده وبعد [أن][1] كانت يداها تدران الخير عليه: تَحيك بيدها القميص، وتخيط بيدها ثوب زوجها وأبيها وأخيها وابنها، وتستنبت القطن وتغزله، والحرير تسلكه، وتربى الخروف وتعلفه. فصارت المدنية والحضارة عندها البطالة عن العمل وجهله. وهكذا صار مصدر الثروة هُوَّة للنفقة وباتوا يشكون .

١ - أضيفت الكلمة ليستقيم السياق.



يشكون من الحكم. ونظام الحكم كرة لا تقف ولا تثبت، فالوزارة تُغَير لأنها ثلاثية لتصير خماسية، ثم هى تُغَير لأنها خماسية لتصير ثلاثية. والدستور كالوزارة والنواب كالدستور فأين المستقر؟ ومتى؟ ومدارسهم كثيرة ولكن ماذا تُعلِّم؟ تُعلِّم الأكثرين ألاّ تدير الفتاة منزلها، وألا يعمل الفتى بالأرض. بل هى تعلِّم كُره الأرض، والأرض هى أمنا التى يجب أن تُحَبّ قبل كل شىء وفوق كل شىء؛ لأنها مصدر الحياة لكل شىء، بل كيف يعيش شعب كله من السادة العظماء؟!

***

كانت الطرقات قليلة وكانت على قلتها غير صالحة، أما الآن فإنك تصل فى وقت قصير من بيروت إلى دمشق واللاذقية وحمص وحماه وبعلبك وحلب وفلسطين وإلى أكثر جهات لبنان وسوريا، حتى الفرات وأنطاكية بطرقات مُعبّدة وبطرقات فرشت بالأسفلت وأنت مرتاح قرير العين، لولا أنهم فى العهد الأخير روَّعوا الناس بسقوط الأوتوموبيلات. وإذا سألت هؤلاء السواقين عن السبب قالوا لك هى السهولة بإعطاء إجازة «السواقة» لمن طلبها مقابل عشرة ليرات ذهبية تدفع «لفلان» دون امتحان. فعلى هؤلاء الرواة تَبِعَة روايتهم وعلى حكومة تلك البلاد تبعة الإهمال، فإن نتيجته الوبال لو يعلمون.

تصل إلى دمشق فى وقت قصير بطريق معبدة مطلية بالقير، وتجد طرقات تلك المدينة وضواحيها حسنة مرصوصة وقد امتدت إلى ستين قرية وضاحية من ضواحيها، وقد أفضت إلى أحياء جديدة نظيفة جميلة فتلمح التقدم والرقى فى كل شىء، ويقول لك ولاة الأمور إذا حدثتهم: آه لو أنّا أخلدنا إلى الراحة والسكون آنا!! إذن، كنا نواصل الإصلاح والعمل فى كل شىء.

أما اللاذقية عاصمة العلويين، وأما السويداء عاصمة جبل الدروز فإنهما في نهوض ورقى ظاهر. وكم سمعت من الثناء على حاكم جبل الدروز غرانكور من الدروز أنفسهم! ولكم سمعت من عبارات الأسف لمرضه الذى اضطره إلى الغياب فى هذه الأيام. فإذا رددت الثناء الكبير عليه فلأنى لم أسمع إلا هذا النداء.

««فالدنيا إذن قد تغيرت».

داود بركات



ملحق

صور أرشيفية لمقالات الأستاذ داود بركات على صفحات جريدة الأهرام




الأهرام

AL-AHRAM

ARABIC DAILY PAPER ESTABLISHED 1875.

JOURNAL QUOTIDIEN ARABE FONDE EN 1876.

الاشتراك

الوصولات

الاعلانات

المراسلات

الجامعة المصرية

المعهد الاسلامي في باريس

ما وراء البحار


يوم الخميس ٣٠ يوليو سنة ١٩١٤ – ٧ رمضان ١٣٣٢ – ٢٣ أبيب ١٦٣٠
الأهرام
الاشتراك
الإعلانات
AL-AHRAM
احذروا الدسائس – ٢
من كل نبع قطرة
ومن كل شجرة ثمرة
شذرات
الروح الخبيثة
داود بركات



حديث مع ناظر المعارف

أسهم القناة

« مجلس الشورى »

رسالة داخلية

مقتل ... التحقيق

عدد ١٠٥٣٧

الأهرام

جريدة يومية سياسية أدبية تجارية

القاهرة يوم الاثنين ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩١٢ — و ١٩ ذي القعدة سنة ١٣٣٠

ما هذه الحرب

??

١

عناية أمير بمشروع خطير

جمعية الهلال الأحمر تحت رعاية دولة والدة خديوي

وتحت رئاسة ثلاثة أمراء وسمو النبيل ... من الأعيان



السنة ١٠٥٣٨

بيروت وشارة القلا من نساجرين الأهرام

الأهرام

جريدة يومية سياسية أدبية تجارية لصاحب امتيازها جبرائيل بشارة تقلا

AL AHRAM
Journal quotidien
Abonnement pour l'Egypte..... un an P.T. 150 — 6 mois P.T. 80
Turquie..... » Frs. 50
l'Etranger.... » Frs. 60

AL AHRAM
Edition hebdomadaire
Abonnement pour l'Egypte et la Syrie......... un an Fr. 15
Etranger........................ » » 20

INSERTIONS
P.T. la ligne à la 1ère page, 14 P.T. à la 2me, 10 P.T. à la 3me
5 P.T. à la 4me et supplément
Les prix seront réduits pour les insertions répétées
Pour les annonces, réclames et abonnements
s'adresser directement à l'Administration, rue Moustoua Pacha No 16.
Pour reçus et factures, pour être valables doivent porter le sceau de l'administration

Télégr. Adr. Ahram Caire | Ahram Caire No 144 | Propriétaire Gabriel B. Takla

الأهرام اليومية
قيمة الاشتراك في القطر المصري ١٥٠ قرشاً في السنة و ٨٠ قرشاً في ستة أشهر
وفي تركيا ٥٠ فرنكاً في السنة و ٦٠ فرنكاً في سائر الأقطار

الأهرام الأسبوعية
قيمة اشتراكها في مصر وسوريا ١٥ فرنكاً في السنة ، وفي غيرهما ٢٠ فرنكاً

« والإعلانات »

« المراسلات »

القاهرة يوم الثلاثاء ٢٩ أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩١٢

و ٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٣٠ و ١٨ ت١ سنة ١٦٣٠

فهرست

ما هذه الحرب

؟؟

٣

الأستانة العلية

في ٢٩ أكتوبر — للمراسل

الاهرام في ٢٦ ولية ١٩٠٩

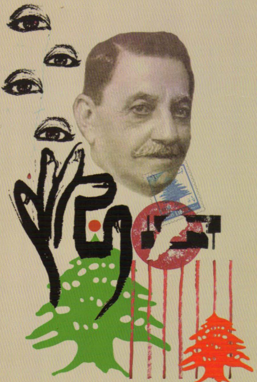
الجرائد الافرنجية

لاعضاء الشورى

[illegible]

الاسكندرية

[illegible]



هذا الكتاب...

داود بركات هو رئيس تحرير الأهرام الأطول عهدا إذ شغل المنصب من عام ١٩٠١ إلى عام ١٩٣٣، وهو لبناني المولد والنشأة، تخرج فى مدرسة الحكمة ببيروت؛ عاش فى مصر، بدأ موظفا فى هيئة المساحة قبل أن ينتقل للعمل بالأهرام.

ويجمع هذا الكتاب طائفة متنوعة من مقالات الأستاذ داود بركات التي نشرها على صفحات الأهرام في الربع الأول من القرن العشرين؛ في الفترة الممتدة من سنة ١٩٠٧ إلى ١٩٢٩، وهى فترة شهدت أحداثا جساما كالحرب العالمية الأولى وحرب البلقان وسقوط الدولة العثمانية وبدء مخطط الاحتلال الصهيوني فى يافا وغيرها من مدن فلسطين.

وهذه المقالات تمثل مرحلة مهمة فى تاريخ الصحافة المصرية والقضايا التى تناولتها، وسجلا حيا للعربية المعاصرة، ومن ثمَّ فهى تفيد دارس الصحافة وعلوم اللغويات والاتصال. والكتاب يعد بامتياز تأريخا لحركة الصحافة فى العالم العربى. ومن بين مقالات الراحل الكبير، يضم الكتاب سبعا وثلاثين مقالة منتقاة تتراوح بين أجناس صحفية مختلفة، ما بين حوار، ومقالة رأى، وأدب رحلات، ومرثية، أو عرض كتاب، أو تحقيق صحفى، كما يجد القارئ أيضا رسالتين من رسائل القراء ورد الأستاذ داود بركات عليهما.

مركز الأهرام للترجمة والنشر
Ahram Center for Translation & Publishing
0100000690592018
مطابع الأهرام التجارية ACP
e-mail: acp@ahram.org.eg